نزار يوسف

الزمن العربي الرديء

نزار يوسف

الزمن العربي الرديء

دراسة وبحث

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

موافقة وزارة الإعلام السورية للطباعة و التداول
رقم / ٤٥١٦٢ / - تاريخ ٢٠٠١/٣/١

عنوان المؤلف البريدي : elpha@scs-net.org

إهداء

إلى كل العرب في كل مكان

(الكتاب يرى بشكل بحثي متعمق وبكل جرأة وحرية بدون خوف أو وجل أن لا وجود للقومية العربية [في عقل الإنسان العربي] رغم وجود المقومات الهامة التي تربط العرب مع بعضهم كالدين واللغة والجغرافيا والتاريخ المشترك والعادات والتقاليد. وأتمنى أن يقوم بقراءته كل الزعماء والملوك العرب ورجال السياسة عموما حتى نلم الشمل العربي ونستعيد أمجادنا العربية)

الممثلة السينمائية المصرية ناديا لطفي – جريدة الشرق الأوسط العدد / ١٠٣٣٣ / ١٤مارس ٢٠٠٧ .

المحتوى

الموضوع	الصفحة
. تمهيد	٥
. مقدمة	٧
. العرب قديماً	١١
. العرب والأندلس	٥٢
. العرب حديثاً	٦٧
. العرب والسياسة	٧٥
. العرب والدين	١٤٤
. السياسة الإسلامية والمفهوم السياسي	١٦٨
. المجتمع الإسلامي والدولة الإسلامية	١٧٩
. التعصب	٢١٠
. العرب نظرة شمولية واستخلاص	٢٤٣
. أبعاد الوضع الراهن للأمة العربية	٢٥٦
. آفاق الوضع العربي والمتطلبات العربية	٢٦٨
. المراجع و المصادر	٢٧١

تمهيد

لم يعرف العالم والتاريخ المعاصر، أمة مشتتة كالأمة العربية، وقوماً اقتتلوا وتناحروا كالعرب . حقاً أن الأمة العربية أمة فريدة من نوعها، أمة كانت في الجاهلية مؤلفة من قبائل متفرقة، جاءها الإسلام فوحدها وجعلها من أقوى الأمم حضارة وعلماً. وفجأة هوى صرح هذه الحضارة وهذا التراث، وهوت تلك الأمة إلى الحضيض، وأصبحت تتأرجح بين أمواج الطائفية والاستعمار والضغائن والتفرقة ..

إن أي حضارة أو تاريخ أمة أو إمبراطورية لا تخلو من هذه الاختلافات والمشاحنات، فكل أمة حصلت فيها ثورات وصدامات واختلافات مذهبية وحروب، حتى أوروبة صاحبة التقدم والازدهار، لم تكن أمة مثالية، فقد حصلت فيها حروب كثيرة وانقسامات كبيرة، ولكن كل هذا لم يلبث أن زال تقريبا واندثر، وعلى كل حال فالغرب وإن حصلت في تاريخه كل الأمور، فهو معذور لأن دولة مختلفة فيما بينها بالحضارة واللغة والعقيدة والتاريخ والقومية، أي باختصار لا يوجد بينها أية روابط، ومع ذلك فهم قد تخلصوا من كل هذه المشاحنات وهذه الشوائب التي تعيق تقدمهم، فلم يزجوا بالدين في ميدان السياسة والتعصب، بل تركوه على الحياد واتجهوا إلى العمل والعلم والتنظيم .

أما العرب فإذاً أردنا أن نعدد مزاياهم الحضارية،لرأينا أنهم مرتبطون مع بعضهم بالحضارة والدين السماوي واللغة والتقاليد والأرض والتاريخ المشترك والتراث، أي باختصار هم شعب واحد وأمة واحدة، ومع ذلك اختلفوا فيما بينهم،مما أدى إلى تقهقرهم واستعمارهم من قبل الشعوب والأمم الأخرى .

لقد فعلت العوامل الفردية العربية فعلها في تزوير الحقائق والتهرب من الواقع وإيهام الشعوب العربية وطبقة العامة، وتضليلها وحرفها للمأساة العربية، حيث لعب الحكام والولاة والزعامات الدينية دوراً كبيراً في ذلك الأمر، وعلى مر العصور. و الحقيقة أن الشعب العربي والطبقة العامة العربية كانت هي نفسها مهيأة لهذا التضليل و مستعدة لتقبل هذا الأمر . انظر إلى التاريخ العربي منذ أن ظهر العرب وإلى بداية الفترة الحديثة تقريباً، هل ترى فيه ما يشير إلى سلبية عربية أو يتحدث عن خطأ عربي شامل بالمعنى الحقيقي للنقد البناء ؟؟ ، وتصفح كل كتب المؤرخين والمفكرين العرب، هل ترى فيها موضوعاً واحداً يشير إلى القومية العربية، أو إلى ضرورة الوحدة العربية ؟؟ ، هل تجد فيها جزءاً يتحدث عن مأساة عربية ويصفها بأنها مأساة قومية ؟؟ ، هل ترى فيها شيئاً يتحدث عن وحدة الإسلام، وعن ضرورة توحيد الصف العربي الإسلامي ؟؟ . إنك لا تجد هذه الأمور إلا في ما ندر من الكتب .

هل يوجد في كل الكتابات العربية في التاريخ العربي بشكل عام ، سواء فيما يكتبه الشعراء أو الكتاب والمؤرخين، ما يدل على شعور العرب بالرابطة القومية التي تجمعهم، بالتأكيد لا يوجد مثل هذا الشيء. هل كلف الشعراء الفطاحل أيام الجاهلية والعصور الأموية والعباسية وما بعدها هل كلفوا خاطرهم وتحدثوا عن القومية العربية والوحدة العربية، وكلفوا أنفسهم عناء التحدث عن هذه الأمور،بدلاً من الهجاء والغزل وسب بعضهم البعض وهجاء قبائلهم..

إن الأحداث والأمور التي حدثت والتي تحدث الآن في الأرض العربية، هي من الخطورة بحيث أن خطورتها تفوق التصور، وأبعادها تطال العوامل الهامة والرئيسية في تشكل وانهيار الأمم، وخطورتها تكمن أيضاً في أنها ليست بذات أهمية للإنسان العربي من حيث تفكيره ومحور اهتمامه.والسؤال. هل هناك عوامل داخلية هيأت العرب للانقسام، أم أن هناك عوامل خارجية. وهل هناك عوامل أثرت على الفكر العربي، وجعلته بشكل عام قليل التأثر بالقومية [1].

إن كل دراسة أو مناقشة أو عرض للأحداث العربية لا يتضمن الصراحة الواقعية والحقيقة المنطقية للوضع العربي، هو غير ذي فائدة ولا طائل منه.وكل بحث أو استقصاء لعوامل التردي في الوطن العربي لا يتضمن الأسباب الحقيقية، التاريخية والحديثة، الاجتماعية والسياسة والدينية، هو بحث غير مجدي ولا نفع منه.

في هذا الكتاب، تمت دراسة الوضع العربي بمجمله في الماضي والحاضر، مع تبيان أهم الوقائع والأحداث العربية الحاصلة في التاريخ العربي، كشاهد أو دليل أو برهان، وكعامل إيضاح بنفس الوقت، وذلك لكونها تمثل صورة واضحة عن الوضع العربي.

وبما أن الأحداث والوقائع العربية التاريخية، قد ارتبطت بشكل أساسي، بالدين والسياسة، وحملت بمجملها الطابع الديني والسياسي، فقد تمت المحاولة لدراسة هذين المفهومين دراسة تحليلية شاملة، قدر الإمكان، ومحاولة الربط بينهما وتبيان العلاقة بينهما وبين تلك الأحداث والوقائع العربية.

---

[1] تاريخ الإسلام السياسي ص ١٨

مقدمة

تقول الحكمة "الاعتراف بالخطأ فضيلة" وهذه الجملة بحد ذاتها إذاً جردت من أي استفسار أو تأويل، فإنها تعني في جملة ما تعنيه، أنه يجب على الإنسان إذاً أخطأ بشيء ما، وأدرك هذا الخطأ وعرفه فإنه يجب عليه أن يعترف بهذا الخطأ ويقر به ولا ينكره وأن يعلنه على الأقل على نفسه وعلى ضميره.

ولكن هذه الحكمة لم تتطرق إلى موضوع إصلاح هذا الخطأ وكيفية معالجته، بل اكتفت فقط بمجرد الإعلان عن وجود هذا الخطأ والاعتراف به. وهذا ليس بكاف، أي إن الإنسان إذاً ارتكب خطأ ما واكتشف هذا الخطأ وأقر به واعترف، ولم يعمل على إصلاحه فإن اعترافه هذا عديم النفع، إذ يجب على المرء بعد الاعتراف بالخطأ أن يتجه نحو الصواب ويعمل على تدارك الخطأ وإصلاحه.

إذاً يجب القول الاعتراف بالخطأ فضيلة وإصلاحه فضيلة أخرى . فما الفائدة من الاعتراف بالخطأ إذاً لم نعمل على إصلاحه. ومهما كان الخطأ صغيراً، فإنه يجب على الإنسان إصلاحه عند الاعتراف به. فكيف إذاً كان خطأ كبيراً، وليس على مستوى فرد أو بيت أو حي، بل على مستوى أمة بكاملها، وليس عبر يوم أو أسبوع أو سنة، بل على امتداد قرون بأكملها. هنا وفي هذه الحالة، لا يعتبر هذا الخطأ ، خطأ بمعناه المألوف بل هو جريمة كبيرة وذنب عظيم وعدم تداركه أمر كبير وفظيع فكيف السكوت عنه وكأنه غير موجود. وهو موجود فعلاً وأمام ناظر الجميع.

يمكن تشبيه هذه الحالة بالوضع الذي تمر به الأمة العربية اليوم. فهذا هو الحال الذي وصل إليه العرب اليوم. أمة بكاملها ترتكب هذا الخطأ الكبير وهذا الخطأ موجود في كل كيانها، وهو خطأ شامل ويقع فيه كل فرد عربي في كل قطر من أقطار الوطن العربي.خطأٌ واضح بشكل فاضح. لا مجال لإنكاره أو تفاديه ، خطأ يزداد يوماً بعد يوم، وتتسع أبعاده يومياً بشكل مستمر، وتنعكس أثاره بالدرجة الأولى على الإنسان العربي سواء من خلال أرضه أو كرامته أو كيانه أو حتى وجوده نفسه، خطأ يهدد بمصير مجهول، مصير أسود قاتم، خطأ يهدد إذاً ما استمر على ما هو عليه، بالكارثة بكل ما في الكلمة من معنى، وهذه الكارثة هي طبعاً من نصيب العرب ولا قوم سواهم. والمشكلة هي أن الـ ٢٠٠ مليون عربي كلهم واقعون فيه، ليس هذا فقط بل إن الـ ٢٠٠ مليون كلهم متشابهون في طريقة وقوعهم فيه، وطريقة تعاملهم معه على أساس أنه غير موجود. ما هو هذا الخطأ ؟.

هذا الخطأ هو الوضع العربي الحالي بمختلف جوانبه السياسية والاقتصادية والاجتماعية هو ما وصل إليه الإنسان العربي الآن.هناك تساؤلات كثيرة تطرح نفسها، أو على الأقل يجب أن يطرحها الجيل العربي الحديث والتي هي نفسها تعبر عن الوضع العربي الراهن.

لماذا نحن العرب أمة متخلفة عن الركب الحضاري. لماذا أراضينا مغتصبه. لماذا نحن مجزءوون إلى أقطار وإمارات وممالك. لماذا نتعامل مع أنفسنا على أساس الطائفية و المذهبية. لماذا نعيش على إنتاج غيرنا من الأمم. لماذا نحن عاجزون عن الدفاع عن أنفسنا. لماذا نحن متأثرون بقرارات وأعمال غيرنا ولماذا لا نؤثر نحن بالحضارة البشرية وبقرارات الغير.

إن الجواب على تلك الأسئلة قد يبدو للوهلة الأولى بسيطاً سهلاً، لا يحتاج إلى تفكير ولكن بعد قليل من التمعن في هذه الأسئلة وغيرها من التي تختص بحال العرب، نجد أن الجواب تقريباً غير موجود، أو أنه لا يوجد جواب منطقي محدد يوضح كل تلك الأسئلة والاستفسارات. والسؤال هنا أيضاً أنه كم مواطن عربي سواء كان داخل الوطن العربي أم خارجه يطرح تلك الأسئلة على نفسه. في الحقيقة لا يمكن الجزم بدقة ولكن على الأرجح أنه لا أحد يطرح هذه الأسئلة سوى قلة قليلة.

هذه الأسئلة هي ليست من بدع الخيال أو من وحي الوهم، بل هي أسئلة واقعية، و موضوعها حقيقي. فالعرب الآن هم فعلاً شعب لا يتوفر لديه الوعي الكامل لإدراك عوامل نهوض أمته وتقدمها. بالإضافة إلى أن كثيراً من المناطق العربية واقعة تحت حد الفقر وسكانها يعيشون حياة صعبة.
والعرب أيضاً أراضيهم محتلة من قبل الغير وبعضها مهدد بالاغتصاب أو الانفصال ذاتياً عن الأمة العربية فهناك أراض عربية محتلة منذ عام ١٩٦٧ ، بالإضافة إلى المناطق المهددة لغوياً وقومياً.

والعرب مقسمون ومجزؤون إلى دول وأقطار وممالك هي دائماً في حالة نزاع وصراع بل وحتى حروب، وهي منفصلة عن بعضها بجيش ودولة ونظام وقانون، وشعوبها تتعامل مع بعضها وتنظر إلى بعضها البعض. من زاوية الحذر . والعرب ضعاف ولا يستطيعون مجابهة أي تحدٍ أو تهديد من دول أخرى بشكل فعال مضمون، ولا يستطيعون التحكم في مسار السياسة العالمية أو في أي اتفاق دولي حتى وإن كان ذلك يخصهم ويخص قضاياهم الداخلية والخارجية.

والعرب أمة تعيش على منتجات الغير وصناعاته، أمة لا تنتج أي شيء على الإطلاق، فعلى امتداد الوطن العربي لا نرى أية صناعة أو إنتاج معين باستثناء بعض عمليات الإنتاج البدائية والبسيطة.

إن الصور السابقة التي عرضت هي ناقصة وتحتاج إلى الكثير من البلورة والتوضيح وكلها تحتاج إلى جواب أو تعليل وتفسير، أو إن صح التعبير تحتاج إلى سؤال هو لماذا ؟ لماذا نحن هكذا ؟ إذ قمنا بإلقاء نظرة على الوضع العربي، سواء من خلال الإنسان العربي أو الدول العربية أو الإعلام العربي أو السياسة العربية، فلسوف نرى أن هناك تشابهاً واضحاً وكبيراً بالنسبة للتعامل مع القومية العربية ومع التعامل أو رد الفعل اتجاه القضية العربية وهذا التشابه يتجلى في عدم الاكتراث واللامبالاة تجاه هذا الوضع فعلى الصعيد الفردي أي على مستوى الإنسان العربي وفي أي قطر عربي أو أي بقعة من العالم لا نرى هناك أي حماس للعروبة، ولا تطرق إلى موضوع الوضع العربي. وكأن الأمر غير مهم (باستثناء الحركات والأحزاب السياسية التي تدعو إلى القومية العربية والوحدة العربية) وإذ تكلم البعض من الكتاب والأدباء عن هذا الموضوع فإنهم يتكلمون وكأنهم خائفون من التمادي في النقد، ولا يطرحون الفكرة بشكل كامل ومحلل بل يتكلمون بشكل مبهم وغامض ولا يتطرقون إلى الأسباب الحقيقة (باستثناء الكتاب الثوريين والقوميين العرب الذين يتكلمون عن القومية العربية بمعناها العلمي والشامل).

وعلى صعيد الإعلام العربي فبشكل عام لا يوجد في معظم وسائل الإعلام العربية هذا الاهتمام المباشر الدائم بقضية الأمة العربية وإذ تم التطرق لهذا الموضوع فإنه يتم التحدث عنه وبشكل مبهم وغامض، حتى إن بعض وسائل الإعلام نادراً ما تتحدث عن تلك الأمور والموضوعات، ويتضح من كل هذا ومن خلال الملاحظة على معظم الإعلام العربي بأنه غير مكرس تماماً لخدمة القضايا العربية، وبالتحديد علاج المشكلة العربية. وعلى صعيد الدول العربية، فهناك تخاذل كبير وتقاعس أكبر تجاه حل المشكلة العربية وهذا الأمر يلاحظ بشكل واضح من خلال النظر إلى علاقات الدول العربية مع بعضها البعض وطريقة تعامل كل دولة عربية على حدة مع الوضع العربي، ونقصد هنا بالدول العربية النظام الحاكم سواء كان ملكياً أم جمهورياً.

حيث أن الدول العربية بدلاً من التوجه نحو الاندماج والتقارب وصولاً إلى الوحدة، انحسرت إلى ظلام التفكك والتناحر السياسي، والسياسة العربية هي بدورها قد تجاهلت كل ما يتعلق بالقضية العربية وكل ما يمت بصلة إلى القومية العربية، والمقصود هنا بالسياسة العربية هي السياسة التي تتبعها الدول العربية من خلال علاقاتها مع الدول الأجنبية، وهذه السياسة تتجسد بالخضوع للسياسة الخارجية الأجنبية وتغذية الانقسام العربي الراهن وذلك بتأييد الدول العربية بالبقاء كما هي عليه وتؤيد ولو بشكل غير مباشر انفصال هذا القطر عن بقية الأقطار العربية الأخرى. والسياسة العربية أيضاً هي ليست سياسة واحدة، بل هي عدة سياسات متناقضة مختلفة وكل منها له أصوله الخاصة به، ولكنها تتفق في أمر واحد وهو تجاهل المشكلة العربية.

وفي هذا الجانب أو تلك الصورة نجد هناك جانباً أخراً مقابلاً للجانب الأول، هذا الجانب يتعلق بمزايا العرب الحضارية والتاريخية والمقومات القومية والأممية لديهم. وهذين الجانبين هما على نقيض من بعضهما البعض، فالأول جانب سلبي والآخر جانب إيجابي يفترض فيه أن يقضي على الجانب السلبي ويمحوه، وهنا يكمن السؤال وهو: لماذا الجانبان موجودان في الأمة العربية. العرب لهم ميزات فريدة من نوعها، فهم عندهم كل مقومات وجود الأمة والوحدة فهم يتكلمون لغة واحدة وينحدرون بالعموم من أصل واحد جغرافيتهم واحدة ولا يفصل بينهم أي حاجز جغرافي ولهم دين واحد، والأهم من ذلك كله أنهم كانوا في يوم من الأيام أمة واحدة وشعب واحد. والعرب أيضاً لهم كل مقومات الغنى والحضارة والتقدم، فموقع أرضهم العربية أي الوطن العربي هو موقع استراتيجي هام سواء من حيث المناخ والمكان، فيه أهم الممرات المائية والأنهار ويتوسط ثلاث قارات ويطل على ثلاثة بحار وثلاثة محيطات. والأرض العربية هي أرض خصبة مهيأة للزراعة وتحتوي على ثروات معدنية ونفطية هائلة، ومن أرضهم التي كانت مهد الحضارات الإنسانية، انطلقت كافة أنواع المعارف والعلوم والآداب، وأرضهم هي أيضاً كانت مهد للديانات السماوية الثلاث. والعرب أيضا لديهم الحافز لكي يتجمعوا ويتخلصوا من مآسيهم ونكباتهم، فالعرب مروا خلال ماضيهم القديم والمعاصر بكثير من الأحداث الأليمة كما تعرضوا للغزو والاستعمار بكافة أشكاله. وبعد كل هذا يطرح السؤال وهو لماذا ؟.

الأسئلة كثيرة ومتعددة ومتشعبة، أسئلة معقدة متشابكة وجوابها صعب، فكيف تتوافر للعرب كل هذه المزايا والإيجابيات، وكل عوامل القوة والوحدة والعلم بينما هم يمثلون كل مظاهر التجزئة والتخلف والضعف والعجز. في الواقع فإنه لا بد لحل مشكلة أو مسالة معينة ومعرفة أسبابها وعوامل وجودها، لابد من الرجوع إلى تفاصيلها وبدايات وجودها. وإذا كانت هذه المشكلة تتعلق بشعب ما وتدور حول قضية أمة ما فلا بد والحالة هذه من الرجوع إلى التاريخ ، أي تاريخ نشوء هذه الأمة وهذا الشعب، والإطلاع على أهم الحوادث الهامة التي جرت في الماضي ولهذا فلكي نجد شيئا من التفسير فيما يتعلق بالوضع العربي الحالي، ولكي نجد جواباً يفسر لنا هذا الأمر، فإنه لابد من الرجوع إلى التاريخ العربي منذ الجاهلية وحتى صدر الإسلام، مرورا بالعصر الأموي والعباسي فالأوروبي ربما نجد تفسيرا أو تعليلاً.

العرب قديما

في الجاهلية كان العرب قبائل متفرقة تعيش في صحراء شبه الجزيرة العربية حيث كان معظمهم قد استقر بها، وبالمقابل فقد هاجر البعض منهم قبل ذلك إلى بلاد الرافدين ومصر والمغرب. في تلك الفترة كانت القبائل العربية تابعة لأمتين أو إمبراطوريتين أجنبيتين هما الرومانية والفارسية ، وكان الأمر لا يخلو أحيانا من تدخل بعض الدول المجاورة كالحبشة تدخلاً محدوداً ، والجزيرة العربية الموطن الأصلي للعرب كانت أم العروبة وأصل الإنسان العربي كان منها .

وإذا نظرنا في كتب الأدب والتاريخ نظرة قومية إلى الحياة العربية لرأينا أن الصحراء العربية التي عاش العرب فيها ولا يزالون، قد أثرت على نفسيتهم وعقيدتهم، فكانوا على شكل قبائل رحل يتنقلون من مكان لآخر طلباً للماء والكلأ، ولعل هذا ما جعلهم لا يتميزون بشيء خاص بهم ولا يعتمد فكرهم على شيء محدد، وقد يكون هذا ما أضعف الشعور القومي لديهم، أي الشعور بالانتماء إلى أصل واحد وأنهم أمة واحدة ومنذ أن وجد العرب لم يهتدوا إلى قوميتهم ولم يدركوا كنهها مع أنها كانت ماثلة أمام أعينهم في كل مكان وفي كل فعل ومع أن تصرفاتهم وأقوالهم كانت تدل عليها فمع ذلك لم يشعروا بها ولم يروها.. فكثيراً ما نسمع ونقرأ في الأدب العربي كلمات وآثار تدل على القومية العربية . فمثلاً كان العرب قديماً يسأل بعضهم بعضاً عند اللقاء من أين أنت يا أخ العرب أو لم يبق أحد من العرب لم يسمع بذلك إن هذا الكلام لوهلة يدل على قومية صافية ويدل أيضا على معرفة العرب بأنهم أمة واحدة .

ومع هذا فإن العرب كانوا مقسمين إلى قبائل وبطون وغيرها، وهذه القبائل كانت معظم الأحيان في حالة حرب واقتتال، وإذا أردنا أن نعرف سبب هذه الحروب والغزوات بين القبائل العربية لوجدناها غالبا ما تكون من أجل سبب بسيط لا يذكر، فالحرب التي كانت تحدث بين قبيلة وأخرى كانت في معظم الأحيان تكون إما من أجل نبع ماء أو ناقة أو بيت شعر أو أمور اجتماعية صغيرة .، فحرب البسوس التي ذكرت إنها دامت أكثر من أربعين سنة وقتل فيها الكثير[1] من العرب وأريق فيها الكثير من الدماء، كان سببها كلب صغير لا يقدم ولا يؤخر، فهذه الحروب والمشاحنات التي كانت تحدث بين القبائل العربية كانت نتيجة أمور كثيرة أهمها شخصية الإنسان العربي الذي كان معروفاً بصفات الحمية الجاهلية والفورة العصبية و الثأر فهو إنسان عصبي سريع الغضب والانقياد للعاطفة وهذه الصفات الفردية التي كان يتصف بها الإنسان العربي كانت تنعكس على القبيلة كلها، وهذا ما يفسر بعض الشيء كثرة الصدامات والغزوات بين القبائل العربية[2]. وحيث أن القبائل العربية كانت متناحرة على الدوام، فهي لم تكن تلتقي مع بعضها إلا نادراً وبشكل مؤقت ولأجل أمر طارئ، وبعدها تنفك هذه الرابطة بينها وتعود على ما كانت عليه من القتال والصراع، ولهذه الأسباب منعتهم تلك الحياة المليئة بالمشاحنات والقتال من الثبات مدنياً، بالإضافة إلى أنها جعلتهم لا يتمتعون بالاستقرار بشكل دائم، أما المحاسن التي تزينوا بها كالمروءة والنخوة، فهي غالباً ما كانت تحمل طابع الفردية وليس الشمولية كما أن العرب كانوا وبشكل غير مباشر يدفعون ثمن هذه المحاسن التي كانت جميعها تنطلق من مبدأ العاطفة فهي التي كانت في بعض الأحيان السبب في تلك الحروب التي كانت تنشب بينهم. ، وهي (أي

---

(١) أدباء العرب الجزء الأول – أحداث التاريخ الإسلامي ص (٢١-٢٥)ج١ – تاريخ الإسلام السياسي ص(٣٥).

(٢) المصادر السابقة

المحاسن) كانت تصب في نفس مصب المساوئ، وإذا فرض عليهم أمر ما بالقوة كانوا يرضخون ولكن متى سنحت لهم الفرصة ثاروا[1].

وإذا نظرنا إلى أسوأ عادة عربية في تاريخ العرب ألا وهي الغزو، لرأينا أن العرب إذا أردنا أن نعدد حروبهم فيما بينهم لرأيناها كثيرة ، وهي ليست محصورة في بعض القبائل العربية دون سواها بل كانت تشمل جميع القبائل، وكانت كما ذكرنا من أجل أشياء ليست ذات أهمية وفي الغالب كانت تحدث من أجل السلب والغنيمة، هذا بالإضافة إلى الخسائر البشرية التي كان يتكبدها أطراف الغزوة، والملفت للنظر أنهم كانوا يعدون هذه الحروب من مفاخرهم فكانوا يذكرونها في أشعارهم وقصائدهم ويتغنون بها في مجالسهم، وحروبهم تلك كانت تقوم في بعض الأحيان على المباغتة، كما أن أساليب القتال النظامية كجيش لم تكن معروفة لديهم، وبما أن حس القومية كان ضعيفاً لديهم فإن القتال عندهم كان بدون مبدأ وبدون عقيدة قومية، خاصة وأن القبائل العربية كانت فقط تغير على بعضها البعض فلم يكن موجوداً في التاريخ العربي كله أن قبيلة عربية أغارت على قبيلة أو مدينة أجنبية. أما الحروب التي اتخذت شكل القومية العربية وبدت كأنها كذلك فهي حرب ذي قار، هذه الحرب التي لمت شمل القبائل العربية لتوحدها في جيش واحد ضد الجيش الفارسي وذلك للدفاع عن القبيلة العربية التي آوت نساء الملك النعمان و بناته بعدما قتله كسرى أبرويز . ولقد كانت الأشعار والقصائد العربية التي تصف تلك الموقعة مثالاً حياً وإيجابية نادرة للقومية العربية الموجودة في اللاشعور العربي آنذاك. .لقد كانت حرب ذي قار وما ترتبت عليه من ردات الفعل العربية وقتها عارضاً قومياً ما لبث أن خبا بعد انتهاء مؤثراته، فرجع العرب بعد ذلك إلى ما كانوا عليه.

إن مجرد مقولة وفكرة الغزو من أجل الغنيمة تنفي من حيث المبدأ أية فكرة للقومية فالعرب كان لهم احتكاك مع الأمم الأخرى وخاصة مع الأمم المجاورة والمحتلة كالفرس والروم والأحباش. وهذه الأمم

---

[1] المصادر السابقة

كانت على نقيض من الوضع العربي الاجتماعي والسياسي، فهذه الأمم كانت تأخذ شكل الدولة الواحدة ذات السيادة والقانون الناظم للحياة الاجتماعية فيها، ولها حدود جيش وشعب يخضع لها، وهذا الشعب كان متعصباً لقوميته ويعرفها ويذكرها عند اختلاطه مع الشعوب الأخرى ومنها العرب بالطبع.. ويبدو طبيعياً في مثل هذه الظروف وهذا الاحتكاك المتبادل بين العرب وتلك الشعوب، أن يعرف العرب في ذلك الوقت نظام الدولة والقانون عند الأجنبي، وأن يكونوا عند احتكاكهم بهذه الشعوب قد لمسوا فكرة القومية عندهم. خاصة وإن احتكاك العرب كان قوياً مع تلك الدول وبالذات الدول المستعمرة لهم، ولكن حتى القوانين لم تكن موجودة عند العرب في الإمارات والممالك، بل كان الحكم يتم حسب عادات القبيلة وقوانينها الخاصة بها.

وقد عرف العرب بعض أنواع التحضر وذلك في بعض المدن حيث أنهم (أي سكان المدن) قد عملوا في الزراعة والصناعة والتجارة، وهذه العوامل جميعها كانت حافزاً لسكان المدن على الاستقرار والتحضر، ولكن حتى تلك المدن كانت تتأثر أحياناً بالحياة البدوية بعض الشيء، فهي بالمقارنة مع المدن الرومانية، كانت تفتقر إلى شيء من التنظيم، كما أنها كانت تأخذ بمبدأ القبيلة، وبمعنى آخر كانت عبارة عن قبائل مستقرة. وهذه القبائل المستقرة كانت قليلة العدد وكان موطنها بالدرجة الأولى بلاد اليمن والشام. وهي رغم ذلك كانت على نقيض من البدو سكان الصحراء والذين كانوا يشكلون النسبة الكبرى، وبالرغم من أنهم كانوا على درجة كبيرة من الفراسة والذكاء، فلم يكن لديهم الكثير من عوامل ومقومات الزراعة أو الصناعة، وكل ما كانوا يعرفونه الشعر الذي أتقنوه وفاخروا به الأمم الأخرى، وكان سكان المدن بالنسبة إليهم محط سخرية وازدراء، والحرف اليدوية والزراعية والتجارية كلها كانت تمثل بالنسبة إليهم عارا لا يطاق ويعتبرونها ليست من شيمهم ولا من أخلاقهم[1]

[1] نفس المصدر السابق

والممالك العربية التي كانت آنذاك تمثل السيادات الإقليمية، كانت تختفي بعد حين لكثرة الصراعات بين القبائل العربية، وهناك بعض القبائل العربية التي أبيدت من جراء الحروب والنزاعات كقبائل طسم وجديس، حيث أن ملك طسم أغار مرة على قبيلة جديس فنهبهم وشردهم وسبى منهم، فثار الجديسيون على طسم وغدروا بهم وأفنوهم فنجا منهم طمسي واحد استنجد بقبائل من اليمن فأفنى جديساً وأما الممالك العربية نفسها، فهي كانت مثل القبائل العربية تتنازع فيما بينها كبني كنده وبني المنذر. فقد تزعم بنو قبائل غطفان وأسد وبكر وتغلب وأغاروا على الحيرة ونهبوها ونفوا ملوكها عنها وهم من المناذرة وكان ملكهم هو المنذر بن ماء السماء، ولكن هذا الأخير عاد بعد فترة وأغار على الكندين وذبح منهم خمسين أميراً[1].

وفي بعض الأحيان كان الملوك هم نفسهم يتعرضون إلى الثورات من رعيتهم، فأما أن يقتلوا أو يفروا كالحارث بن عمرو وابنه حجر . أو أن يوقع بهم بعض عمالهم التابعين للفرس أو الروم من أجل أمور شخصية كالثأر وغيره، ومنهم النعمان بن المنذر الذي قتل أحد كتاب وتراجم ملك الفرس كسرى وهو من العرب واسمه عدي بن زيد. فأخذ ابن المقتول واسمه زيد بعد أن استلم مكان أبيه يكيد للنعمان عند كسرى، حتى حمله على استقدام النعمان إلى المدائن وقتله هناك.

وكانت ممالك اليمن أيضاً في صراع دائم فيما بينها كبني حمير والسبئيين والذين امتدت الصراعات فيما بينهم إلى سنين طويلة . وهذا يدل على أن العرب ينزعون بشكل عام إلى القتال، وهم قد أصبحوا معتادين على هذه الأمور. فالعربي في داخل قراره يكره الدولة والسلطة عليه فهو يريد نفسه حراً طليقاً، وكما أنه يكره السلطة والتحكم، فإن هذا الأمر أيضاً أدى إلى كرهه الالتزامات والعمل، فإذاً قيل للعربي في تلك الأيام ماذا تكره يقول التقيد والإلزام وكونهم كانوا يكرهون العمل فإنهم كانوا يكرهون

---

[1] المصادر السابقة .

الابتكار اليدوي، وكما ذكرنا فإنهم كانوا يعيرون الصناع والمزارعين من سكان المدن[1]. كل هذا والأرض العربية لم تكن تحت السيطرة العربية بشكل كامل. وهنا تبرز المشكلة القومية، إذ أن العرب لم ينتبهوا إلى هذه المسألة ويعيروها اهتمامهم، حيث كان من الأجدر بهم بدلا من غزو بعضهم البعض، أن يتجهوا إلى ذلك الغريب المحتل الذي كان يستعملهم أداة لخدمة مصالحه ويؤلبهم على بعضهم البعض. كان من المفترض أن يكون الوعي لديهم من المكانة بحيث يجعلهم يدركون هذا التشرذم ويسعون بشكل أو بآخر إلى الالتقاء، وأن يعوا أنهم أمة واحدة وشعب واحد وقومية واحدة، فحتى أشعارهم لا يوجد فيها أية إشارة إلى القومية العربية والعروبة، لا من قريب ولا من بعيد بل كلها تتحدث عن الأطلال والغزل والغزو. أما بعض الأبيات التي كانت تذكر العروبة والعرب فهي لم تكن تحمل معنى القومية بل كانت فقط مجرد أبيات عابرة عرضية تذكر في مناسبات خاصة وتأخذ طابع الفخر القبلي.

وأمام هذه الوقائع فإن الفكرة التي تتضح الآن عن العرب في تلك الفترة هي أن العرب كانوا في منأى عن القومية العربية، إذاً العقلية العربية لم تملك الوعي الكامل لإدراك القومية، فلذلك بقي العرب بدون قيادة عربية أو زعامة عربية واحدة.

واستمرت هذه الحال على ما هي عليه حتى أتى الإسلام وظهرت الدعوى الإسلامية على يد النبي الكريم محمد (ص) وفي هذه المرحلة، مرحلة ظهور الإسلام بدأ الوضع العربي برمته من اجتماعي وحضاري يأخذ منحاً جديداً بل يمكن القول أن العرب بدؤوا يتحولون من شكل إلى شكل آخر مختلف تماماً عما كانوا هم عليه، ويمكن القول أن الإسلام هو بحق أول من نبه العرب إلى القومية العربية وأزال عنهم هذا الغشاء الذي كان يحجبهم عنها حين خاطبهم بقوله تعالى "كنتم خير أمة أخرجت للناس" والإسلام كدين كان قفزة كبيرة وجيدة في تاريخ العرب حيث أدخل العرب في

---

[1] أدباء العرب .

مرحلة جديدة ومتناقضة تمام التناقض مع طبائعهم وحياتهم الاجتماعية، فمعظم ما كان يشتهيه العرب تقريباً قد حرمه الإسلام.

ونحن هنا لن نتحدث عن ظهور الإسلام وكيفية نشوئه بالتفصيل الكامل لأننا لسنا بهذا الوارد، ولا ضمن هذا المجال، بل سنحاول قدر الإمكان أن نلقي الضوء على الأمور القومية والدينية بشكل سرد تاريخي مختصر، لنبين كيف أن العرب بطبائعهم تلك قد انحدروا بالإسلام فكان أن دفعوا الثمن، وكيف سيدفعون هذا الثمن طوال ألف وأربعمائة سنة. وكيف أن الإسلام بكل تعاليمه الصارمة والشاملة لم يستطع أن يغير العرب، بل على العكس لقد غير العرب الإسلام وحوروه على هواهم.

فلقد استعاض العرب عن التقسيم القبلي بالتقسيم الإسلامي واستعاضوا عن الغزو القبلي بالحروب لدينية، واستعاضوا عن التعصب القبلي بالتعصب الديني، فكان أن خرجوا من تقسيم وتجزئة إلى تقسيم وتجزئة جديدين وأبديين.

عندما بدأ الإسلام بالدعوة من الرسول الكريم (ص) جوبه بالرفض الشديد والتنديد من قبل قومه قبيلة قريش، والحديث هنا سيكون في الإطار القومي والسياسي فقط. وقبل كل شيء يجب أن نذكر أن الإسلام هو آخر دين سماوي بعد اليهودية والمسيحية.

لقد كان الإسلام ديناً شاملاً لكل نواحي الحياة الاجتماعية ومكملاً للأديان السابقة له فكل نبي ورسول كان يأتي ليضيف أو يعدل شيئاً لم يكن موجوداً قبله، وهذا شيء طبيعي لأن الحياة تتطور يوماً بعد يوم وفي كل عصر كانت تظهر أمور لم تكن موجودة في العصور السابقة ولهذا فقد أتى الإسلام شاملاً ومكملاً لكل الأديان ومقدماً أمورا وتعاليم جديدة لتواكب مسيرة التطور البشري. وبذلك لم يكن الإسلام ديناً فقط بل علماً قائماً بحد ذاته، وبمعنى أعم وأشمل حضارة قائمة.

إذاً جاء الإسلام بالرسول الكريم محمد (ص) ، الذي بعد أن استتب له الأمر في الجزيرة العربية، قام بتوحيد القبائل العربية تحت راية الإسلام، وهذا عمل جبار لا يصنعه إلا شخص خارق، ومن أهم

الأسباب التي ساعدت الرسول الكريم على توحيد القبائل العربية هو نجاحه في المعارك التي خاضها ضده معارضيه من المشركين، وبالذات في مكة من بني قومه قريش. حيث أن قريش كانت أقوى القبائل اقتصادياً ، بل إنها كانت تعيش في وسط حضاري مدني وهو المدينة، أي أنها كانت أكثر القبائل تحضراً وتمدناً. لأن مكة كانت مركز تجاري هام وملتقى القوافل التجارية التي تمر في منطقة الجزيرة العربية كلها، والرسول الكريم هو نفسه ابن مكة وابن قريش نفسها، ولذلك فإن أول من اصطدم به كان قبيلة قريش في مكة التي عاش وترعرع فيها.

وهنا ومنذ فترة ظهور الدعوة الإسلامية بشكل عام، والهجرة إلى المدينة المنورة (يثرب) بشكل خاص، بدأت الغزوات والحروب القبلية العصبية بين العرب تتوقف، لتحل محلها غزوات وحروب جديدة منظمة تختلف عنها بالأهداف وبالمضمون. وهذه الحروب كانت أيضاً عربية – عربية، وكانت أول الحروب الدينية التي يخوضها العرب، وهذه الحروب أدت إلى إخضاع شبه الجزيرة العربية للإسلام[1]، واتحاد كافة القبائل العربية على يد الرسول الكريم الذي توجه إلى البلدان المجاورة وقام الخلفاء الراشدون ومن تلاهم من بعده بفتحها .

لقد توحد العرب ولكن بشكل تلقائي، فوحدتهم هذه لم يكن من إيمانهم بها بل فرضت عليهم فرضاً، وبقوة السلاح وقوة الله التي تمثلت بالإسلام الذي اهتدوا إليه إذاً لا بد من الوحدة الشاملة، وبالفعل تمت الوحدة بكل معاييرها ومعانيها. ولكن هل توحد العرب فعلاً، وهل نسوا خلافاتهم الماضية ونزاعاتهم، هل أصبحوا قادرين على متابعة مسيرة القومية العربية، والتي جسدها الإسلام حين قال لهم "كنتم خير أمة أخرجت للناس". طبعاً الجواب هو لا، لأن هذه التغييرات التي حصلت للعرب عن طريق الإسلام، كانت صدمة لهم فحاولوا بشتى الوسائل أن يعيدوا الماضي، وقد عادوا بشكل أو بآخر،

---

(١) المصادر السابقة .

لأنه عند اقتلاع هذه العادات والمساوئ، بقيت بعض البذور السيئة التي عادت للنمو من جديد وبشكل أقوى مما كانت عليه.

في الحقيقة أن الوقائع التاريخية التي ظهرت في تلك الفترة تشهد على ذلك، حيث أن هذه الوقائع والأحداث كانت على جانب كبير من الخطورة، و تلك الأحداث ليست ظاهرة بشكل واضح، أو على الأقل بعض منها، وتحتاج إلى تفكير وتدقيق وتحليل لكي يمكن الوصول إليها، وبعضها الآخر واضح ويدل على كيفية السلوك والتصرف العربي، الذي سيعكس التصرف العربي الحالي، لأن التصرف العربي الحالي والوضع العربي الراهن هما أسوأ ما مر به التاريخ العربي على الإطلاق، وهو من نتائج هذه الأحداث والوقائع التي سنتحدث عنها، وهذه الوقائع هي الخلافات التي حصلت بين المسلمين منذ وفاة الرسول (ص) وأهم تلك الخلافات

١-الاختلاف على الإسلام:

إن الإسلام هو دين التوحيد بشقية الروحي والاجتماعي ، فقد توحد العرب في شبه الجزيرة العربية في عهد الرسول تحت راية الإسلام، وأعلنوا ولاءهم له، ولكن بعد وفاة الرسول مباشرة ارتد قسم من القبائل العربية عن الدين الإسلامي (مع التفريق بين المرتدين عن الإسلام وبين الذين تريثوا حتى معرفة الخليفة الجديد) مما يعني أن الإسلام لم يدخل إلى قلوبهم بشكل قوي وإنما تظاهروا به أو ربما اعتقدوا أموراً أخرى وذلك لحداثة وجود الإسلام فهم لا زالوا متعودين على حياة الجاهلية، وقد أصبحوا في حالة من الإدمان على هذا الأمر فلذلك اتخذوا وفاة الرسول ذريعة للعودة إلى حياتهم في الماضية، وإلى بعض عاداتهم التي حرمها الإسلام ومنعها. وعلى الأرجح هم لم يرتدوا عن دين الإسلام لعدم إيمانهم بالله واعتقادهم بوجوده، بقدر ما كانوا يحنون إلى عاداتهم المذكورة. وقد تجلت القومية الإسلامية في ذلك الوقت برد الخليفة أبي بكر الصديق (رض) الحاسم والسريع على

هؤلاء المرتدين وبادر إلى قتالهم فوراً .

ولكن المفاجأة كانت أن هؤلاء المرتدين كانوا قد شكلوا جيشاً وعدة وأصبحوا من القوة بمكان، وحاربوا جيش الخليفة أبي بكر ، ودارت بين الطرفين معارك كثيرة وصعبة، وصلت في بعض الأحيان إلى مراحل حرجة جداً، كادت الكفة فيها أن تميل لصالح المرتدين، لولا أن يتمكن المسلمون في نهاية الأمر، من أن يهزموا جيش المرتدين. والسؤال هنا كيف استطاع هؤلاء المرتدون أن يشكلوا جيشاً قوياً بهذه السرعة ويجمعوا السلاح ويقاتلوا المسلمين ويقاوموهم مقاومة عنيفة ؟؟ . كيف استطاعوا أن يكونوا بهذه الجاهزية والتنظيم خلال تلك الفترة القصيرة ؟؟ . كيف استطاعوا أن ينشروا تعاليم دينهم الجديد أيضاً بهذه السرعة ويصلوا إلى هذه القوة، حيث أنهم بالإضافة إلى ارتدادهم فقد شكلوا ديناً خاصاً بهم ونبياً اسمه مسيلمة. حتى قيل أنه لو تأخر أبو بكر في قتالهم لكان الإسلام قد تغير نهائياً.

الجواب هو أن هذه الحركة التي قام بها المرتدون ليست منذ وفاة الرسول (ص) بل تمتد جذورها إلى حياته، حتى وكأنه يبدو أن التخطيط لهذه الحركة قائم منذ عهد الرسول (ص) وبشكل سري. لأن هذه الحركة عبارة عن انقلاب على الإسلام، وليس انقلاباً عادياً بل انقلاباً عسكرياً، قام بعد وفاة الرسول (ص) مباشرة وبقوة هائلة وجيش منظم.

في الواقع إذاً نظرنا إلى ظروف وملابسات قيام هذه الحركة، لرأينا أنه من الطبيعي في مثل هذه الظروف أن تكون لهذه الحركة جذور عميقة، وأن الذين دبروا لها هم مسلمون وذلك على اعتبار أن الإسلام قد انتشر تماماً في شبه الجزيرة العربية ولم يبق سوى عدد من اليهود أو النصارى، وهؤلاء كانوا قلة فضلاً عن ذلك أنهم لم يعودوا يشكلون هذه القوة الاقتصادية أو السيطرة الفعلية في المجتمع العربي الإسلامي، فهذه الأسباب إذن لا تؤهلهم بالطبع لقيادة وتدبير حركة قوية خطيرة كهذه الحركة،

وتجهيز جيش كبير وقوي ، وهذا ما يستبعد فكرة احتمال أن يكونوا وراء قيام هذه الردة، ولكن لا يستبعد أن يكونوا قد حرضوا أو ساهموا فيها بعد قيامها.

يبقى هناك احتمال آخر قبل أن تتوجه إصبع الاتهام إلى العرب المسلمين، وهو احتمال أن تكون جهة خارجية وراء ظاهرة الردة وهي التي دبرت لها، والمقصود بالجهة الخارجية، جهة أجنبية، كالفرس أو الروم مثلاً لأن هاتين الدولتين كانتا تحكمان البلاد العربية، وتسيطران عليها، وبالتالي فقد يكون هناك احتمال قائم من وقوفهما وراء تلك الحركة للقضاء على هذا الدين الجديد الذي يهددها، والذي أفضى فيما بعد إلى إزالة ملكهما نهائياً.

ولكن هذا الاحتمال يبقى في وارد الظن وعدم الصحة لأن التاريخ لا يدل على أن هذه الحركة كانت مؤامرة خارجية، ولو فرضنا جدلاً أنها كانت فعلاً كذلك، فلا بد لها أن تأخذ فترة زمنية لحدوثها، ونحن نعرف أن حركة الردة قد قامت بعد وفاة الرسول(ص) مباشرة، كما أن الجهة التي كانت وراءها كانت ستمدها بالعون مادياً وعسكرياً، وهذا ما لم يحصل نهائياً، وعلى الأقل إذا كانت هناك جهة ما فإنها ستكشف عن نفسها بحكم الظروف، وبطريقة أو بأخرى، وهذا أيضاً ما لم يحصل.

هذا من ناحية، أما من ناحية أخرى، فإن الإسلام آنذاك لم يأخذ طابعاً سياسياً معارضاً، بل انه كان عبارة عن دين سماوي لم ينتشر آنذاك خارج الجزيرة، وحتى لو انتشر، فإنه لا يشكل خطراً على تلك الدول من منظورها هي وخاصة في بدايته، لأنه دعوة دينية كما قلنا وليست سياسية، كما أن المسلمين وقتها لم يصلوا إلى حد التهديد للفرس أو الروم.

إذاً هذه الحركة ليست من صنع الأقليات الدينية العربية وليست من تدبير حركة خارجية. إذاً لا يبقى سوى العرب المسلمين أنفسهم، وفي الواقع هناك الكثير من الأسباب التي تدفع إلى الاعتقاد بذلك أولها هو هذه القوة الرهيبة التي ظهر بها المرتدون، وثانياً أن كلمة مرتدين تعني القوم الذين كانوا

مسلمين ثم ارتدوا عن الإسلام، وهؤلاء المسلمون الذين قاموا بتلك الحركة هم الذين لم يدخل الإسلام إلى قلوبهم، ومنهم المنافقون المستترون بالإسلام.

٢-الاختلاف على الخلافة:

قلنا في بداية حديثنا عن الوقائع العربية التي فرقت العرب وكانت السبب في ما هم عليه الآن أن العرب كانوا يحنون إلى عاداتهم القديمة قبل الإسلام، وإحدى هذه العادات هي النزاع والاختلاف. ونحن الآن في حديثنا عن الاختلاف على الخلافة نقف أمام موضوع خطير لا يقل خطورة عن حركة الردة نفسها، وفي الحقيقة أن الاختلاف على زعامة المسلمين والذي حصل مباشرة بعد وفاة الرسول كان له أثر أيضاً في الخلافات الدموية التي جرت في فترة خلافة الإمام علي بن أبي طالب، والسبب أيضاً في تلك الفتن التي حصلت في تلك الفترة والتي كانت السبب المباشر في ضياع الإسلام والعرب نهائياً وإلى الأبد. فكيف حصل هذا الخلاف. وما هي أسبابه ومكوناته ؟؟ .

في الواقع أنه كان أيضاً لهذا الخلاف جذور قبل وفاة الرسول (ص) وأيضاً كانت له أقنيته مثل الردة تماماً، و من المؤكد أن الناس كانوا يتساءلون ماذا سيحدث بعد وفاة الرسول (ص)، ومن سيأتي بعده وهذا السؤال الذي كان يطرحه الناس فيما بينهم ، كانت تطرحه أيضاً الطبقة الإسلامية . فبعد وفاة الرسول تنادى الناس فيما بينهم لتعيين خليفة للإسلام، وبدأت المرحلة الأولى من الخلاف العربي، هذا الخلاف الذي كان مخفياً في عهد الرسول، بدأت بوادره تظهر بعد وفاته، فكان الخلاف على زعامة المسلمين. والحقيقة أن هذا النزاع في تلك الفترة، كان البداية للنزاعات المقبلة، ومع أنه قد حسم بسرعة، لكن آثاره بقيت كامنة في النفوس، والخلاف وقع حول أفضلية الخلافة وشخصية الخليفة الذي سيخلف الرسول (ص) هل هو من الأنصار أم من قريش، ثم كان الخلاف في قريش نفسها أبي

بكر الصديق (رض) ، والإمام علي بن أبي طالب (ع). فكان أن تمت مبايعة أبي بكر في ما عرف باجتماع السقيفة.

إن حسم الخلاف بهذه السرعة دون إرضاء جميع الفرقاء والزعماء، قد سبب توتراً كبيراً بين القيادات الإسلامية أو الشخصيات الإسلامية، ونزاعاً كامناً، وهذا ما انعكس بشكل غير مباشر على باقي فئات الشعب، حيث أن كل زعيم إسلامي كان له جماعات من أنصاره وأقربائه، وبالتالي تسرب الخلاف إلى صفوف المجتمع الإسلامي، وبقي مخفياً في نفوس المسلمين حتى ظهر مدوياً كالبركان في انفجار عنيف، عند استلام الإمام علي زمام الخلافة. فبعد استلام أبو بكر الخلافة خفت حدة الخلاف تماماً وبالذات بعد مبايعة الإمام علي له بالخلافة [1]، واستمر هكذا في خلافة عمر بن الخطاب (رض)، ثم بدأ يظهر بشكل علني في خلافة عثمان[2] ، وبدأت الأوضاع بالتوتر، وظهرت المشاحنات والخلافات، وأخذ زمام السلطة يفلت من يد عثمان (رض) في الوقت الذي تزايدت فيه حدة الخلاف بين الرعية وعثمان حتى أودي بحياة عثمان نفسه، وتمت مبايعة الإمام علي (ع) بالخلافة، وعندها كان الوضع قد انفجر تماماً وأصبح من الصعب التحكم به، وهنا يمكن أن نعد هذه المرحلة بداية الانهيار العربي، حيث أنه ولأول مرة انقسم العرب على بعضهم البعض وأصبحوا تابعين لأشخاص معينين.

وقد ابتدأت الحروب أول ما ابتدأت بخروج عائشة زوج الرسول (ص) على الإمام علي وهذا ما شجع معاوية بن أبي سفيان على التمرد هو الآخر أيضاً وخروجه على الإمام علي[3]، وكانت بداية الحروب العربية، الحروب التي مزقت كيان الأمة العربية الموحد، إلى شطرين متنازعين، لقد بدأت المأساة العربية من هنا،من هنا تورط العرب في أكبر قضية أودت بهم إلى الدمار، ولو كان تأثير القومية العربية

---

[1] أدباء العرب ج١ ــ تاريخ الإسلام ج١ــ الإمامة والسياسة ــ أحداث التاريخ الإسلامي .تاريخ الدول العربية .

[2] نفس المصادر السابقة .

[3] المصادر السابقة .

عليهم قوياً بما فيه الكفاية، لما حدثت هذه المعارك.واتسعت دائرة الانقسامات، فانشق عن جيش الإمام علي مجموعة سميت بالخوارج وأخذت تتصرف على هواها، وأخذ يظهر إلى جانب الانقسام السياسي انقسام ديني، وهنا تم الجمع بين الدين والسياسة، فقبل هذه الفترة لم يكن للسياسة هذا الوجود الفعلي، وهي وإن كانت موجودة فإنها كانت خاضعة للدين الإسلامي بشكل مطلق، وتستقي قواعدها منه، ولكن منذ وصول الأمويين إلى الحكم، بدأ الدين يخضع للسياسة وبدأت جميع الأعمال تصدر باسم الدين سواء من الأمويين أو من غيرهم، وفي الحقيقة يمكننا أن نعتبر هذه الفترة هي فترة بداية ظهور الطائفية في الإسلام، خاصة بعد مقتل الحسين بن علي بن أبي طالب في ثورته ضد يزيد بن معاوية ، وهنا بدأت المشكلة العربية تأخذ أبعادها النهائية وتتبلور في أعماق الشخصية العربية.

لقد أفرز الناس إلى طوائف دينية، أي أنه هنا ظهرت ولأول مرة تعاليم إسلامية، مختلفة، لا بل متناقضة مع بعضها البعض في الأصول والأحكام والقواعد.

كانت هذه الفترة المهد لظهور الأئمة من الفريقين وبدأ كل طرف يضع تعاليم خاصة به ويقول إنها الصواب، ويضم ويشكل أناساً وجماعات خاصة به وما نراه اليوم من انتماء كل فرد إلى مذهب معين، ليس إلا نتيجة لهذه الظاهرة التي بدأت في تلك الفترة وامتداداً لها. وهذه الظاهرة نفسها كانت كفيلة بتمزيق الإسلام وتشتيت المسلمين لأنها ليست إلا عبارة عن تعليم إسلامية متناقضة ومتعارضة وطبيعي إذن أن يتفرق المسلمون فزعماء الفرق الدينية عندما رأوا هذه الفوضى والفتنة والصراع ، ولا يوجد من يراقب، وعندما أخذوا الضوء الأخضر من الحكام والولاة لإنتاج تعاليم جديدة حفاظاً على الحكم والسلطة، أخذوا ينادون بتعاليمهم ومذاهبهم ويدعون الناس لها[1]. وبالمقابل ظهرت دعاوى مضادة لهم من فرق أخرى أيضاً وبنفس الأسلوب، واختلط الحابل بالنابل، وبدأت الشريعة الإسلامية واحدة تأخذ طريق الغموض،وتبتعد عن ذاكرة المسلم العربي لتحل محلها تعاليم مذهب جديد محصور فقط في فئة

---

[1] المصادر السابقة .

من الناس. ولنا أن نقول هنا أن هذه الظاهرة لم تكن لتجرؤ على الظهور في عهد الرسول (ص) أو الخلفاء الراشدين .

٣- ظهور الأحزاب والحركات السياسية:

إن الحروب التي حصلت بين الإمام علي وبين كل من معاوية وعائشة والخوارج كان لها إلى جانب الطابع الديني طابع سياسي وكما أن الطابع الديني قد أسفر عن ظهور المذاهب والفرق الإسلامية المتعددة، فإن الطابع السياسي أيضاً قد أدى هو الأخر بدوره إلى ظهور الأحزاب السياسية والثورات على الحكم الأموي. إن الحكم الأموي قد أمسك بزمام الأمور، وقام الأمويون بفتوحات واسعة. ولكنهم كانوا كمن يقف على بركان يقذف الحمم، فقد فعل النزاع السياسي على الخلافة أيام الإمام علي فعله في تقسيم الناس إلى مجموعات سياسية متناحرة وكما قلنا فإن الدين قد اختلط مع السياسة فهؤلاء الذين شكلوا التيارات والفرق الدينية . وهم أيضاً قد شكلوا الأحزاب الجماعات السياسية، ورجل الدين هذا الذي كان يخطب في المسجد بتعاليم دينه ، كان هو نفسه في بعض الأحيان رجل السياسة الذي كان يضع الخطط ويوجه الثورات والأحزاب، والثورات المضادة والحركات السياسية.

وهكذا وكما انقسمت الشريعة الإسلامية الواحدة إلى مذاهب وطوائف، انقسم الكيان العربي السياسي الواحد إلى سياسات متعددة متعارضة أيضاً وأخذت هذه المذاهب والأحزاب تنهش في جسد الأمة العربية الفتية، وتتجاذبها بقوة وعنف . و بدأت الثورات والحروب الأهلية ضد الأمويين تنشب في كل مكان، حتى أنهكت الجيش العربي وزجت به في متاهات ومعارك داخلية. وقد قاوم الأمويون تلك الحركات بقوة وأخمدوا الثورات، واستطاعوا أن يحافظوا على وحدة الأمة العربية سياسياً ، ولكنهم كانوا دائماً مشغولين بالثورات، فكان الخليفة الأموي دائماً في حروب مع معارضيه في الوقت الذي تحصل فيه الفتوحات العربية. إن الأمويين استطاعوا أن يحافظوا على كيان الأمة العربية متيناً قوياً،

ولكنهم لم ينجحوا في التخلص من الشرخ الذي دب في كيانها والذي صنعوه بأيديهم عند استلامهم الخلافة، وهذا الشرخ الذي كان ينمو ويكبر يوماً بعد يوم وتطورت المأساة وأخذت في الاتساع فكانت أن توقفت الفتوحات العربية وجاء العباسيون ليحكموا البلاد مرحلة وليبدءووا مرحلة إبادة جديدة ضد الأمويين الذي كانوا قد فعلوا نفس الشيء مع معارضيهم . وقد جاءت هذه المرحلة لتكون مرحلة امتداد للحروب والثورات السابقة، وأيضاً بدأ العنصر الأجنبي يدخل في كيان الأمة العربية ويتغلغل فيها. أتى العنصر الأجنبي ليدخل بكل قوة وليأخذ بالثأر وقد نجح في ذلك ، وبدأ الانهيار، بدأت الأمة العربية الواحدة تتداعى تحت الضربات المتوالية . لم تستطع هذه الأمة الصمود تحت هذه الأحداث المريرة والمتلاحقة والضربات الموجعة التي كانت يكيلها الحكام وبعض رجال الدين بدون رحمة وحس قومي وشعور بالمسؤولية حتى جاء العنصر الأجنبي الذي تتغلغل في السلطة والجيش ليكون الضربة القاضية للأمة العربية، فسقطت هذه الأمة على حلبة التاريخ وبعد عدة جولات عنيفة وهي في أوج عطائها، ومن دفع أو سيدفع ثمن هذا كله ؟؟ . إنه الشعب العربي الطبقة المسحوقة تحت ظلم الحكام ونزواتهم وطيشهم تحت تعصب بعض رجال الدين وفتنهم .

إن العرب لم يحترموا قوميتهم ودينهم لم يحترموا أمتهم وحضارتهم، فحصدوا النتائج سريعاً، وخلال فترة زمنية قصيرة، فالرسول الكريم عندما وضع الأساس للمجتمع العربي الواحد والدين الإسلامي الواحد، سار عليه في البداية أكثر العرب، وبقي البعض الآخر الذين لم ينظروا إلى البعيد، فجّروا بذلك معهم كل العرب أو معظمهم في ما بعد.

إن العرب بشكل عام لم يعوا العروبة القومية ولم يستوعبوها. وإنما جعلوها فيما بعد معادية للإسلام، بينما الإسلام هو دين غير منافٍ للعروبة بل على العكس هو دين جاء من صميم العروبة، كما تقول الآية الكريمة (إنا أنزلناه قرآناً عربياً) ولذلك لم يدركوا عواقب تصرفاتهم الوخيمة التي قد تنتج عن هذه التصرفات، ولم يدركوا مغبة ما يمكن أن يحدث إذاً استمروا في ذلك.

إن هذا الانحطاط الذي وصلت إليه الأمة العربية كان النتيجة لتلك الخلافات التي حصلت. ولكن مع كل هذا، فإنه لا بد لنا من القول إن كل هذه التفسخات التي حدثت للأمة العربية وكل تلك الثورات وعمليات الإبادة التي رافقتها، في تاريخ صدر الإسلام والعصر الأموي والعباسي، لم تمنعها من المضي والاستمرار ولكنها كما ذكرنا كانت المدخل أو الممر إلى طور الانقسام والتشرذم النهائي.

ولذلك وقياساً للوضع العربي الحالي يمكننا أن نصف الوضع العربي في تلك الفترة (صدر الإسلام) بأنه كان عصر ازدهار وتقدم وحضارة لأنه كان يمثل مجتمعاً راقياً متطوراً عن بقية المجتمعات، ونستطيع أن نميزه بما يلي:

– العرب في تلك المرحلة لم يهددهم خطر خارجي، ولم يقسموا دينياُ وسياسياً بالمعنى الكامل والشامل كما هو الآن ولم يكونوا محكومين من الغير بل كانوا هم الحاكمين .

– لم تقتطع أية رقعة من أرض الأمة العربية أو تغتصب أو تستعمر ولم تجرؤ أية دولة أجنبية على المطالبة أو ضم ولو شبر واحد من الأرض العربية..

– لم يتعرض الخليفة العربي أو يفرض عليه أية ضغوط أو معاهدات خارجية سواء أكانت سياسية أم اقتصادية .

– العرب في تلك الفترة كانوا سلطة واحدة، دولة واحدة،جيشاً واحداً، وشعباً واحداً، وباختصار كانوا إمبراطورية.

– المحاولات الانفصالية عن الأرض العربية كانت تقمع بشكل حاسم وسريع، ولم تكن الأمة العربية مقسمة إلى دول وإمارات بل كانت لها سلطة مركزية واحدة.

– التدخل الأجنبي والحملات الأجنبية العسكرية على الأرض العربية كانت تنكسر فور دخولها الأرض العربية وتتمزق إلى أشلاء.

إذاً الزمن العربي في ذلك الوقت، وبالرغم من السلبيات والشروخ المتغلغلة في جسد الأمة العربية، كان هو الزمن العربي القومي المسيطر وصاحب القرار وماسك زمام الأمور بقوة وحزم، منذ بدايات الإسلام وحتى بداية عصر الانحطاط.

إن هذه الخلافات الثلاثة التي ذكرناها سابقاً، كانت هي السبب الرئيسي والمباشر للتمزق العربي، وهي نتيجة للدور السيئ الذي كانت تلعبه كل من السلطة السياسية والدينية في بعض المراحل و الأحيان ونحن هنا عندما نقول السلطة السياسية والسلطة الدينية، فهذا لايعني مطلقاً أنهما منفصلتان بل هما كانتا مندمجتين في سلطة واحدة وهذا الدور السيئ لكلا السلطتين هو نتيجة لقلة الوعي العربي والسيكولوجية العربية التي تكلمنا عنها من قبل.

ولكن لماذا حصلت هذه الخلافات وما هي أسبابها . الجواب مرة أخرى هو انعدام الوعي القومي العربي، وعدم التحمس للعروبة والوطن، بل على العكس كان التحمس فقط إلى مذهب معين والتعصب له، وهذا ما يفسر دخول العنصر الأجنبي بكل سهولة إلى السلطة والتحكم بزمام الأمور من جديد. هذا العنصر الدخيل هو أول استعمار في التاريخ العربي الإسلامي. وهنا يعرف العرب العبودية بعدما كانوا أسياداً، وسيذوقون طعم القهر الذي أرادوه هم لأنفسهم. فهم الذين جلبوا الأجانب وزرعوهم في الجيش العربي .لقد بدأت الثروة والعز والسلطان والحرية والسيادة تبتعد عن العرب وتتلاشى أمام ناظرهم. بدأ الفانوس السحري الذي يعتمد عليه العرب يفقد قوته السحرية. فبعد هذه الخلافات الدامية التي خلفها العرب بخلافاتهم وتعصبهم، كان من الطبيعي أن تظهر ثمار وبوادر هذه الخلافات خاصة بعد أن كانت هذه الأخيرة قد استفحلت ونمت بشكل خطير .فلقد وجهت التيارات الدينية المختلفة والتي نشأت بعد العصر الراشدي ضربة قاصمة للدين الإسلامي، خاصة وإنها كانت عبارة عن تيارات ووجهات نظر متناقضة، وطالما أن كل رجل دين وكل مفكر ثائر يستطيع أن ينشئ

حزباً خاصا به أو حركة أو مدرسة لها آراؤها ونظرياتها وعلومها الخاصة فذلك يعني أنه على الإسلام السلام .هذا يؤلف مذهباً من هنا وذاك ينشئ حزباً منه هناك والآخر يعتقد بوجوب كذا وكذا ثم يأتي آخر ليناقض كل تلك الآراء والأفكار. أي كل يغني على ليلاه .

وأخذ كل واحد يجذب الأمة العربية من جهة، هذا من الشمال وذاك من الجنوب والآخر من الشرق والرابع من الغرب، حتى تمزقت الأمة بين أيديهم وسقطوا جميعهم على الأرض. كل واحد كان يبتدع من عقله تعاليم ونظريات جديدة وكأن الأمر لعبة حتى السياسيين كانوا يشاركون في هذه اللعبة ولماذا.لكي يحافظ رجل الدين على مكانته ورجل السياسة على منصبه. فكان الخليفة العربي أو الوالي في مراحل معينة ، كلما اعترضته مشكلة أو ظاهرة أو عارضته جماعة ما، وصعب عليه حلها أو التخلص منها كان وبكل بساطة يطلب إلى رجل الدين أن يفتي له بفتوى تجيز له التصرف على هواه. وربما أحياناً كان يصل الأمر إلى ابتداع حديث نبوي شريف عن الرسول الكريم[1]، يختم بأنه حديث صحيح عن الصحابي فلان عن الرسول (ص) أنه قال كذا وكذا. وكل ذلك من أجل مشكلة صغيرة لا يكلف فيها هذا الحاكم نفسه النظر بأمورها ومعالجتها بالطرق السليمة وذلك بدل من تحريف الإسلام وزجه في متاهات سياسية. من هنا دخلت السياسة في الإسلام وأخضعته لها بينما في عصر الرسول (ص) والخلفاء الراشدين كان العكس كانت السياسة هي الخاضعة للإسلام.إن هذه المسائل الجوهرية والهامة هي التي تحدد عليها مصير الإسلام والعرب.

إن الفرق بين إخضاع السياسة للإسلام، وإخضاع الإسلام للسياسة أمر مختلف تماماً، وهو كالفرق بين السالب والموجب لان الشريعة الإسلامية هي غير السياسة الإسلامية، ومن هنا ومن هذا المنطلق حكم العرب على أنفسهم، وبقرار منهم وتنفيذ منهم.

---

[1] تاريخ الإسلام ج١ ، ص(٥٠٢) ــ دراسات في الفكر والتاريخ الإسلامي ص(٩٥) – محنة ثقافة مزورة ص ٦٦ .

كل هذه الوقائع المذكورة وكل هذه الأمور كان لا بد أن يكون لها ثمن وطبعاً سيكون الثمن غالياً جداً، لا بد من أن يكون لها في النهاية نتيجة. وهكذا بدأت مرحلة الانحطاط العربي، وبدأ عصر الظلام والتراجع العربي. لقد انتهت الأمة العربية هنا بعدما وصل الأجانب إلى السلطة العربية.ونحن هنا لن نشرح التاريخ مرة ثانية فهذا ليس من موضوع الكتاب، ولكن سنمر باختصار على أهم الأحداث التي حصلت في عصر الظلام ونعلق عليها من الناحية القومية فقط.

إن أول حدث تمثل فيه الانحطاط هو السيطرة الأجنبية ولكن وكما كان للخلافات العربية جذور وأسباب، أيضاً كان لتلك السيطرة الأجنبية جذور وأسباب، وسنرى أن العرب هم أيضاً كانوا سبباً للتدخل الأجنبي، مثلما كانوا السبب في تلك الخلافات التي حصلت بينهم.

وتعود الجذور الأولى للتدخل الأجنبي إلى ثلاث مراحل. المرحلة الأولى عند بداية العصر العباسي واستلام العباسين زمام السلطة، وهذه المرحلة تمثل البدايات الأولى للتدخل الأجنبي. أما المرحلة الثانية فبدأت عند استلام المأمون للسلطة وانتصاره على أخيه الأمين، وتمثل هذه المرحلة مرحلة ازدياد قوة التدخل الأجنبي في الشؤون العربية، والانتقال إلى مرحلة التحكم. أما المرحلة الثالثة فتبدأ فعلياً في خلافة المعتصم وهي مرحلة التحكم والقوة وسنعود الآن إلى شرح هذه المراحل الثلاث بشيء من الاختصار والتفصيل بنفس الوقت.

المرحلة الأولى :

بدأت المرحلة الأولى عند ظهور الدعوة العباسية، حيث أن هذه الدعوة كانت نتيجة للثورات التي كانت تقوم ضد الحكم الأموي. وقد بدأت الدعوة العباسية بالظهور في خلافة عمر بن عبد العزيز سنة

/٧٢٠/[1]. فقد أخذ محمد بن علي بن عبد الله بن العباس يؤلف الجماعات السرية وينشر دعوته بين الناس بواسطة رسله الذين كان يبثهم في أنحاء البلاد وهؤلاء كانت مهمتهم نشر تلك الدعوة ومحاولة جمع أكبر عدد ممكن من الناس. ولكن هذه الدعوة بعضها كانت في خراسان، وبلاد فارس، ومعلوم أن تلك البلاد كانت بلاداً أعجمية، كلها موالي وأهل الذمة، وهم إسلاميون من أصل غير عربي، كانوا يتميزون بتبرمهم من العرب بشكل عام ومن بني أمية بشكل خاص كونهم علوا من شأن العرب على غيرهم ، و ميزوهم عنهم . وتجاوب الناس هناك مع هذه الدعوة بشكل كبير فبايعوا أبي العباس وعندما قويت هذه الدعوة والتف حولها عدد كبير من الناس، قام أبو العباس بتسيير جيش كبير بقيادة أبي مسلم الخرساني لقتال مروان بن محمد الخليفة الأموي. وجيش أبي مسلم كانت عساكره كلها مؤلفة من نسبة لا بأس فيها من غير العرب ، ولذلك فعندما بدأت المعارك بين الطرفين، كانت في الظاهر بين العباسين والأمويين، ولكنها كانت بشكل غير مباشر بين الأعاجم والعرب ولذلك، وبعد انتصار العباسين أخذ نمط الحياة الاجتماعية العربية يتحول من شكل إلى شكل أخر مختلف تماماً. فقد تمت المساواة بين الموالي والعرب ، و التي خففت من حدة التوتر ، و أنصفت الموالي ، تلك المساواة التي كانت معدومة في زمن الأمويين، وأصبحت الدولة العباسية العربية، دولة ممزوجة بالعناصر الأجنبية ، و لكن هنا أخذ الأجانب يديرون شؤون الدولة إلى جانب العرب و بشكل أكثر من ذي قبل أخذ العصر العباسي الأول الطابع الشعوبي. ولكن ومع هذا بقيت السلطة والقرارات بيد العباسيين، وبقي الخلفاء العباسيون يحملون الدم العربي الصافي، ولم يتورعوا عن قمع كل استطالة من الأعاجم أو ظاهرة خطرة منهم، حيث كانوا شديدي الحرص على الدولة العربية الواحدة، ولا يقبلون أبداً بفكرة تجزئتها أو السيطرة عليها أو على قسم منها من جانب الأجنبي. وكانوا إلى جانب تساهلهم وتسامحهم، صارمين يقتلون كل أعجمي تسول له نفسه التطاول وتشكيل خطر على ملكهم، كما فعل أبو جعفر الخليفة

---

(١) تاريخ الخلفاء ــ تاريخ الإسلام ج١ .

العباسي بأبي مسلم الخرساني، حين اشتد خطره . وبالإضافة إلى ذلك كان الخلفاء العباسيون لا يسمحون بالحرية السياسية والنشاط السياسي.

إذاً امتازت هذه المرحلة بالنفوذ الأجنبي والسيطرة الأجنبية، ولكن ضمن حدود الفكر والعلم والأدب فقط، وما عدا ذلك فهو ممنوع .

المرحلة الثانية:

هذه المرحلة ابتدأت في عهد المأمون بن هارون الرشيد. وحيث أن الخلفاء العباسين مثلهم مثل غيرهم قد انصرفوا أيضاً إلى حياة اللهو واللذة وبالغوا فيها، وبالإضافة إلى هذا فالخلفاء كانوا يقتنون الجواري الأعجميات و يتزوجون بهن، وكان من نتيجة ذلك أنهم كانوا يرزقون بأولاد مهجنين، من الجنس العربي والأجنبي، وهذا أدى إلى خلفاء وأمراء عرب لا يتمتعون بدم عربي صافٍ وأمهاتهم أعجميات .

فهارون الرشيد كانت له جواري عديدة بالإضافة إلى زوجته العربية فرزق من العربية الأمين، ورزق من أخرى فارسية، رزق منها المأمون، ونشأ بين الولدين تنافس وبغض منذ الصغر. ولما مات هارون الرشيد أعطى للأمين الرقعة العربية وللمأمون الرقعة الفارسية. وبدأت الضغائن والدسائس بين الحاكمين وأخذ الفرس يساندون المأمون لان أمه فارسية والعرب يساندون الأمين لان أمه عربية، ونشبت الحرب في النهاية بين الأخوين وكان جيش المأمون جله من العناصر الفارسية، وجيش الأمين من العناصر العربية، ولذلك عادت الحرب هذه المرة بين الفرس والعرب ولكن بشكل أقوى وأعنف. ولما انتصر المأمون

وقُتِل الأمين تعاظمت قوة الفرس ، وذلك نتيجة لاعتماد المأمون عليهم، فقويت شوكتهم وازدادوا قوة ونفوذا، ودخلوا السلطة والجيش وتسلموا المناصب العالية لأول مرة[1].

وبالمقابل نقم العرب على المأمون لمقتل أخيه الأمين وأبوا أن ينضموا إلى جيش يقودهم فيه الأجانب. وكانت هذه العملية بمثابة الضربة للوجود العربي السياسي وللقوة العربية، وهنا بدأ العنصر الأجنبي بالتحكم تدريجياً بمقاليد الحكم إلى أن جاءت المرحلة الثالثة من خلافة المعتصم.

المرحلة الثالثة:

وتبدأ هذه المرحلة من فترة خلافة المعتصم، حيث استفحل النفوذ الأجنبي بشكل كبير ووصل إلى حد تهديد السلطة الحاكمة، فقد كانت أم المعتصم تركية، ولذلك فقد أخذ يقرب الأتراك ويعلي من شأنهم، وأخذ يقتني العبيد منهم والخدم ويوليهم الوظائف العالية، فعين منهم القواد والوزراء [2].

وقد تمادى المعتصم في تقوية شوكة الأتراك، فكان يتوجهم عند مغادرة الأتراك العاصمة ، وبدأ نفوذ الأتراك يتزايد وأخذوا يتحكمون بالبلاد ويتآمرون على الخلفاء العباسيين أنفسهم، ومما شجع القيام على ذلك بالإضافة إلى انسحاب العنصر العربي من المشاركة الفعلية في السلطة، هو الثورات والفتن التي قامت في العصر العباسي أيضاً، حيث أنه ومنذ استلام الخلفاء العباسيين للسلطة قامت ضدهم الثورات أيضاً وحيكت ضدهم المؤامرات، ففي عهد أبي جعفر المنصور قامت ثورات الشيعة، وثورة أبي مسلم الخرساني وثورة محمد الملقب بالنفس الذكية. فالفرس الذين ساعدوا العباسيين في القضاء على الأمويين كانوا يعتزون بقوميتهم وكذلك كان الأتراك، فمتى كانت تسنح لهم الفرصة ويشتد عودهم كانوا يحاولون العودة إلى قومياتهم. فأبو مسلم الخرساني وهو الذي لعب دوراً كبيراً في مساعدة العباسيين

---

[1] أحداث التاريخ الإسلامي – تاريخ الدول العربية – تاريخ الإسلام .

[2] سوسيولوجيا الفكر الإسلامي – الوثائق السياسية للعصر العباسي .

للوصول إلى السلطة، أخذ يتجاهلهم وينفرد عنهم بعد توليه لخرا سان وازداد خطره كثيراً، مما حمل الخليفة العباسي أبا جعفر المنصور على استدعائه وقتله. وكانت كل الحركات والثورات التي كانت تنشب ضد العباسيين كانت ترافقها معارك وحروب تنهك الجيش العربي بالدرجة الأولى .

وفي عهد هارون الرشيد أيضاً ظهرت حركة البرامكة، وثورة عبد الله بن الحسين عم المنصور، التي ظهرت في عهد المنصور، والثورات التي قامت في أرمينية وأذربيجان، وفي إفريقية والمغرب، وكلها كانت تستلزم معارك ضاربة للقضاء عليها .

وفي عهد المأمون قامت أيضاً الثورة في خرسان، وتم استقلال بلاد اليمن فعلياً عن الخلافة العباسية، بقيادة محمد الزيادي إلا أنها اسمياً بقيت تابعة للدولة العباسية. ولما قامت الثورة في خرا سان ، أرسل إليها المأمون طاهر بن الحسين، الذي بعد أن قضى على الثورة وأصبح والياً على خراسان رفع الخطبة في المساجد عن المأمون، وفيما بعد تمكن خلفائه من الانفصال عن الدولة العباسية وإنشاء الدولة الطاهرية[1] .

وقبل وفاة المأمون أوصى بالخلافة لأخيه المعتصم وهو كما ذكرنا من أم تركية وفي عهد المعتصم أيضاً قامت الثورات الشيعية ضد الحكم العباسي، كما قامت أيضاً حركة الزط، وحركة القائد العربي عجيف بن عنبسة، وبابك الخرمي، والأفشين والمازيار[2]، وقبل أن نعود لخلافة المتوكل وهي التي شهدت السيطرة النهائية للأتراك لا بد من تسجيل الملاحظات التالية:

ـ سعي الشعوب الإسلامية الغير عربية للانفصال عن الدولة العربية بالرغم من كونها شعوب إسلامية مثل العرب، والعودة إلى قوميتها الأصلية وتراثها وحضارتها السابقة مع احتفاظها بالدين الإسلامي، أي أنها

---

[1] أحداث التاريخ الإسلامي ، ج ١ .

[2] المصدر السابق .

وبشكل غير مباشر قد فصلت الدين عن السياسة والسلطة. بينما نرى أن العرب فيما بعد سيقبلون بحكم الأجنبي عليهم في ظل الدين الإسلامي. وهذه القضية بالذات جعلتهم يدفعون الثمن غالياً .

ـ كل الشخصيات الأجنبية التي كانت في السلطة العباسية كانت تتمرد على الحكم فور سنوح الفرصة لذلك.

ـ محاربة الخلفاء العباسيين والذين هم من أمهات أجنبيات لكل ظاهرة أو حركة عربية، تحاول تقوية النفوذ العربي أو الرجوع السلطة العربية.

ـ تسليم هؤلاء الخلفاء أنفسهم السلطة عند وفاتهم إلى أخوتهم من الذين هم من نفس جنسهم، أي من أمهات أجنبيات ، كما أوصى المأمون بالخلافة لأخيه المعتصم والذي هو من أم تركية.

بعد وفاة المعتصم تولى الخلافة بعده ابنه الواثق، الذي زاد من اعتماده على الأتراك بشكل كبير فولاهم المقاطعات والمناصب الرفيعة والحساسة في الجيش والسلطة، ولما توفي قام الأتراك بتعيين أخيه المتوكل ، فوصلوا بذلك من القوة إلى درجة تعيين الخلفاء. ولما حاول المتوكل الحد من نفوذهم قاموا بقتله وتعيين ابنه المنتصر مكانه، و وصلوا إلى درجة من السيطرة على أمور الدولة بأن أخذوا يتحكمون بالبلاد بشكل مباشر فأصبح بيت المال بأيديهم وأصبح الجيش والسلطة تحت إمرتهم، ولم يكتفوا بذلك بل أخذوا يتآمرون على الخلفاء العباسيين، فقتلوا المستعين والمعتز والمهتدي وفقأوا أعين المتقي، وقد تزامن مع نفوذ الأتراك نفوذ الخدم حيث كان الخلفاء العباسيون يتركون أولادهم يربون مع الخدم، وهؤلاء الخدم كانوا في الغالب من أجناس غير عربية فلذلك وعندما كان ولاة العهد يتسلمون السلطة كانوا يعتمدون على الخدم أيضاً في تثبيت حكمهم، فكان هؤلاء الخدم يقبضون على زمام الأمور والسلطة فإذاً حدث خلاف بينهم وبين الخليفة كانوا لا يترددون في قتله . وبهذا أصبحت هذه الأمة الحزينة ضحية تصرفات الحكام وأداة العجم يتصرفون بها على هواهم أما الشعب العربي

الواسع فقد انصرف عن حكامه الذين اعتمدوا على الأجانب فنفروا عنهم وابتعدوا عن موالاتهم وتركوهم يتصرفون على هواهم.

البويهيون وما بعدهم :

بعد المرحلة الثالثة والأخيرة من مراحل التغلغل الأجنبي في الأمة العربية وصل العرب إلى وضع أصبح فيه الأتراك والفرس هم الحاكمين الفعليين للسلطة في البلاد العربية وأضحت الخلافة العباسية والخلفاء العباسيون مجرد شكل فارغ ومعنى اسمي فقط.وفي تلك الفترة جاء البويهيون وهم قبيلة من بني فارس وقاموا بعملية عسكرية دخلوا خلالها بغداد واستولوا على السلطة هناك بشكل رسمي وذلك عندما لقب زعيمهم أحمد بن بويه نفسه بأمير الأمراء، وقام بنفسه بتولي أمور البلاد[1]. وهنا وفي هذه المرحلة تشرذمت الأمة العربية وانقسمت إلى دويلات وممالك مذهبية، وكانت بداية الانحطاط العربي الكبير. ويمكننا أن نقول هنا أن العصر العباسي قد انتهى تماماً، حيث لم يبق للعباسيين شيء سوى التوقيع والحريم، خاصة بعد انفصال الولايات عنهم ، والذي كان بحد ذاته جريمة كبرى، وللأسف فإن هذه المرحلة كانت بمثابة الثمن الذي سيدفعه العرب جزاء ما اقترفت أيديهم بحق أمتهم ودينهم، وفعلاً بدأ الحساب، وأخذت الحالة السياسية بالتدهور، واضطرب الأمن في كافة المناطق والولايات العربية، وتحول العرب إلى موال لدى الأجانب تماماً مثلما كان الموالي من قبل لدى العرب.وأخذت الثورات تعم البلاد ضد الأجنبي، ولكنها كانت تقمع بقسوة وعنف، فقامت لذلك مجازر عنيفة بحق العرب، وأخذت بغداد تتخرب تماماً من الناحية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وبدأت تعود من جديد المعارك العربية الداخلية، حيث دخل الفاطميون مصر عام /٩٦٩/م .وقسم من سوريا عام /٩٧٣/، وبدأ الاستعمار الخارجي لأول مرة من جانب البيزنطيين، الذين احتلوا جزيرة كريت ثم قبرص فحلب

[1] تاريخ الخلفاء – تاريخ الإسلام ص /١٩٢/ .

فإنطاكية عام /٩٦٩/ ولم يتوقفوا إلا بعد أن ضمنوا السيطرة على طرق التجارة العربية[1] ، وخرج البحر الأبيض المتوسط من تحت السيطرة العربية، وذهب عنه لقب البحيرة العربية، ثم عاد البيزنطيون فاحتلوا بلاد الشام عام /٩٧٥/، وأتى بعدهم السلاجقة واحتلوا بلاد الشام وأزالوا الروم عنها، وتقدموا حتى فلسطين وبدأت عملية جديدة في التاريخ العربي الحزين وهي استقدام المماليك الأجانب من آسيا ليتولوا قيادة العرب، وإلى جانب هذا كله بدأت الحملات الصليبية على الوطن العربي، لتضرب الدين الإسلامي وتسلخ الأرض العربية عن هويتها الإسلامية.

لقد أخذ العرب يذوقون طعم القهر و الاضطهاد على يد الغرباء. وللأسف فإن الصليبين مع قدومهم للمنطقة العربية الإسلامية، واستعمارهم لفلسطين ومع خطرهم الشديد على القومية العربية الإسلامية، فإن المسلمين العرب كانوا في أوج صراعهم وتذابحهم مع بعضهم البعض، ويكيدون لبعضهم الكره والضغائن، في الوقت الذي كان فيه الصليبيون ينشؤون الدولة المسيحية في فلسطين، والأجانب من سلاجقة ومماليك وأتراك وفرس يبسطون سلطتهم على باقي الأجزاء الأخرى من الأمة العربية. لقد عادت الجاهلية مرة أخرى .

ومنذ استيلاء الأعاجم على السلطة في بغداد لم ير العرب الحرية نهائياً، ولن يروها بعد الآن وحتى هذا القرن، وحتى إشعار آخر. ولم تنته المصائب عند هذا الحد، بل إن كل هذه المآسي التي حصلت كانت عبارة عن عملية تهيئة لمآسي وفظائع أكبر للأمة العربية.

لقد قدمت جحافل أجنبية من آسيا الوسطى بجيوشٍ جرارة كالجراد وأخذت تلتهم كل شيء أمامها. قبائل متعطشة للدم اجتاحت البلاد العربية، فكانت مأساة كبيرة وجرحاً عميقاً في حضارة هذه الأمة

---

[1] تاريخ الوقائع و الأفكار الاقتصادية .

وثقافتها، لقد اجتاح المغول بغداد وأحرقوا مكاتبها ومدارسها ورموا بكتبها في نهر دجلة، وقتلوا تقريباً جميع العرب، حتى أصبح نهر دجلة يعرف بنهر الحبر والدم[1] .

وفي الحقيقة يمكن اعتبار اجتياح المغول للأرض العربية من أعظم الحوادث والنكبات في تاريخ أمتنا الأسود، فقد اجتاح المغول الأراضي العربية على حدود الأراضي الفارسية وتابعوا تقدمهم بسهولة كبيرة وبدون مقاومة تذكر، وكانت جميع المدن والبلدات والحصون تسقط في أيديهم بسرعة وكلها كانت تتعرض للتدمير والحرق وكان المغول يتلفون كل ما يصادفونه من نبات أو زرع، حتى وصلوا إلى مدينة بغداد فحاصروها في البداية ثم بعد ذلك اقتحموها، وأعملوا بأهلها السيف، وقتلوا كل من رأوه أمامهم سواء أقدم لهم الطاعة أم لم يقدم، وأقدم هولاكو الذي كان قائد الحملة المغولية آنذاك على قتل الخليفة العباسي وجميع أتباعه وأهله، ولم ينج من أهل بغداد إلا الذين هربوا إلى الأغوار والأنفاق تحت الأرض. ومن كثرة ما قتل من العرب من سكان بغداد، اضطر هولاكو نفسه إلى مغادرتها بسبب تلوث وتعفن هوائها من رائحة الجثث والدماء.

وبعد احتلال بغداد أرسلت جميع الأموال والثروات والخزائن من قبل المغول إلى مملكتهم. ثم بدأ المغول بعد ذلك في التوسع في الأراضي العربية وأخذوا يحتاجون البلاد والممالك العربية، وكلها كانت تخر معلنة الطاعة لتلقي نفس المصير الأسود الذي لقيته بغداد. و بسط المغول سلطتهم على أرض تشمل بلاد الشام كلها والعراق وحتى مشارف مصر. ولقي العرب من الذل والمهانة والقتل على يد المغول ما لم يلقه أحد.

---

[1] تاريخ الشعوب الإسلامية - تاريخ الإسلام ج ٤ .

لقد ذهب الإنسان العربي المخلص لأمته ووطنه، الإنسان العنيد الذي لا يقف في وجهه شيء، هذا الذي كان يسير تحت دين واحد وعقيدة واحدة ومبدأ واحد وشريعة واحدة، قد غاب عن الأنظار واختفى تماماً.

لنر ما جاء في إحدى الرسائل التي وجهها هولاكو إلى ملك مصر آنذاك، حيث قال فيها " باسم الله باسط الأرض والسماء، نعلم الملك (الملك المصري) الذي هو من جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا إلى هذا الإقليم (الأرض العربية) ينعمون بأنعامه ويقتلون من كان سلطانه بأن دعائكم علينا لا يسمع. فأنتم أكلتم الحرام وخنتم العهود والأيمان، ونشأ فيكم الفساد والعصيان ولا تعفون عن الكلام"[1].

وفي رسالته إلى الخليفة المستعصم قال هولاكو له "لقد فتنك حب الجاه والمال والعجب والغرور بالدولة الفانية، بحيث أنه لم يعد يؤثر فيك نصح الناصحين بالعدل فلا تسمع نصح المشفقين، ولقد انحرفت عن طريق أبائك وأجدادك وعليك أن تكون مستعداً للحرب"[2] .

هكذا كان أولئك الحكام في نظر قبائل المغول والتتار. حتى قبائل المغول البدائية القادمة من آخر آسيا ومن أبعد المناطق كانت تعرف فسادهم وتصرفاتهم . و العملية هنا ليست تعصباً للمغول ، أو دفاعاً عنهم ، بقدر ما هي عملية إبراز لأولئك الحكام الذين فعلوا بأمتهم ما فعلوه .هكذا كانت السلطة السياسية للعرب ، أما السلطة الدينية ، فهي كانت أيضاً على درجة مماثلة لدرجة السلطة السياسية .

وقد تمثلت هذه السلطة آنذاك بالزعامات الدينية ومن كافة الطوائف والمذاهب بلا استثناء ،الذين كانوا يدعون السلام وحب الله وهم الذين ضربوا الإسلام ووحدة الإسلام وهيجوا المسلمين ضد بعضهم البعض . وكما لعب بعض رجال الدين في العصر الأموي والعباسي دوراً سيئاً، سيلعبون هنا أيضاً دوراً أسوأ بكثير .وطبعاً كان هناك رجال دين ومن مختلف الفئات نبذوا هذه المظاهر كلها واصطدموا

---

[1] تاريخ الإسلام ج ٤ .

[2] المصدر السابق ص١٩٤ .

مع الحكام و الولاة وعلى مختلف العصور ، الأموية منها و العباسية و ما تلاها . لقد كانت غيرتهم على الإسلام وحبهم له تدفعهم لمحاولة لم الشمل العربي من جديد ولكن بدون جدوى ، وقد حاول أصحاب المذاهب الأربعة والأئمة من أهل البيت تصحيح الوضع العربي القائم آنذاك واصطدموا مع الحكام و الولاة من أجل ذلك ، ولكن الطبقة الحاكمة والمسيطرة آنذاك من الأجانب والمماليك ، يدعمها بعض رجال الدين المغمورين كانت تسعى لتعميق الخلاف وتوسيع الفرقة بين أفراد الشعب العربي ليسهل عليها الحكم .

لقد كرس هؤلاء التجزئة الإسلامية وعمقوها ورسخوها في أذهان الشعب العربي ليحولوه إلى فئات عربي متنازعة متعصبة تكن الحقد والكره لبعضها البعض . ويمكن القول أن جميع المعارك السياسية وجميع الثورات والخلافات بين فئات الشعب العربي ومذاهبه وفرقة كانت بسبب هؤلاء ، فهم قد لعبوا دوراً كبيراً في تهيج الجمهور العربي على بعضه وزرع الحقد والضغينة بين أفراده ، وتجلى ذلك فيما تجلى بإصدار الفتاوى التي تكفر الفئات الأخرى ، فكل شيخ أو زعيم دين لفئة أو طائفة ما يعتبر أن الفرق الأخرى هي كافرة ، وإن جزاءَها النار ، وأن دمهم حلال ولا يجوز إقامة علاقات معها والجهاد ضدها حق وواجب .

ومن الطبيعي هنا أن تؤدي هذه الأمور كلها إلى ضرب الوحدة الإسلامية بين العرب ، وحتى الوحدة السياسية، وذلك على اعتبار أن الإسلام قد أصبح خاضعاً للسياسة ، وخاصة إذاً اعتبرنا أن الطبقة الشعبية العربية كانت تطيع تلك الزعامات طاعة عمياء ،ولذلك حرص هؤلاء على قطع كل دابر للقومية العربية في عقل الإنسان العربي ، وإبعاده عن الوطنية وحب الأرض والأمة ، وربطوا كل تفكيره وتصرفاته بالدين والطائفة ، وسنرى أن هذه الأمور قد وصلت أوجها في الثلث الأخير من العصر العباسي مروراً بفترة المغول والتتار إلى العهد العثماني حيث وصلت إلى الذروة.

باختصار لقد تماشت التجزئة السياسية العربية مع التجزئة الإسلامية العربية ، ومن خلال التدقيق في الحوادث والأحداث التي حصلت منذ استلام الأمويين السلطة وحتى هذا اليوم ، نرى أن التجزئة السياسية، و التجزئة الدينية للعرب ، قد تكاملتا مع بعضهما البعض ، وتقاطعتا في قواسم مشتركة كثيرة ، وكأن الأمر مراد له أن يتجزأ العرب في كل شيء ،وأن لا تبقى لهم رابطة واحدة فيما بينهم.

والشيء الملاحظ في تلك الفترة هو كثرة المستعمرين للأرض الغربية وتواليهم عليها بشكل متواصل ومن كل الجهات وكأن هناك شيئاً ما يدفعهم لذلك، والشيء الآخر الذي يمكن ملاحظته أيضا هو أن المستعمرين كلهم تقريباً كانوا من المسلمين وحكمهم للغرب كله كان تحت ستار الدين ، أي كأنهم يعنون بذلك أن العرب لا يمكنهم التعامل مع الدين الإسلامي بشكل صحيح ، ولا يمكنهم تبنيه والحفاظ عليه ، خاصة إذاً أدركنا أن الفترة التي استعمرت الشعوب الأجنبية الإسلامية فيها العرب ، كانت أكثر من الفترة التي حكم فيها العرب في أراضي تلك الشعوب بثلاثة أضعاف تقريباً العرب الذين هم من أرضهم أتى الإسلام ،وبلغتهم نزل القرآن الكريم ، ومنهم اختار الله سبحانه وتعالى نبيه محمد (ص) ، وهم الذين فتحوا البلدان المجاورة لهم ونشروا بين شعوبها الدين الإسلامي الحنيف ، والذين من المفترض بعد كل هذه الميزات والمؤهلات التي توافرت لهم ، أن يقودوا تلك البلدان على الأقل روحياً ودينياً ، وأن يكونوا القدوة الدينية والروحية .لم يستطيعوا أن يستمروا في القيادة طويلاً فسرعان ما انقلبت عليهم تلك الشعوب واستعمرتهم حتى باسم دينهم الذي جاء من أرضهم ، وأصبحت هي القدوة الروحية لهم وهي المرجع السياسي والديني للعرب .

وكما أن العرب لم ينتبهوا إلى فرقتهم هذه وتجزئتهم ، فإنهم بنفس الوقت لم يلاحظوا جيرانهم من الشعوب الأخرى التي فتحوا بلدانها، حيث أن هذه الشعوب كانت تحمل في أعماقها توجساً دفيناً من أولئك العرب الذين كانوا بنظرهم تابعين، فأصبحوا الآن يتحكمون بهم ويستعبدونهم، ويهيمنون على بلدانهم ومصيرهم ويصنفونهم على أنهم الموالي والعبيد ويتمتعون بنسائهم، فمن الطبيعي عندما يرى

الفارسي أو التركي أو غيرهما من الشعوب الأخرى الأجنبية ذلك العربي، الذي كان في يوم من الأيام تابعاً لهم، قد أصبح الآن يتمتع بنسائهم، ويأبى هو تزويجهم بناته، من الطبيعي أن يحقدوا عليه ويتمنوا إسقاطه وتدميره بأي وسيلة كانت، والانقضاض عليه عندما تسنح الفرصة لذلك. وهذا ما حصل فعلاً، ولولا الأخطاء الجسيمة التي وقع بها الإنسان العربي، لأمكن تفادي تلك الواقعة. لولا جهل الإنسان العربي بقوميته وعروبته، ولولا عدم احترامه وحبه للوطن، لكان من الصعب على العنصر الأجنبي أن يتسرب إلى جسد الأمة العربية.

ولكن هذا النهوض العربي الذي بدأ في عهد الرسول (ص)، واستمر في عهد الخلفاء الراشدين، والعهد العباسي، هذه النهوض لم تكن دولة فارس وإمبراطورية روما تحسبان له حساب ، ولم تكن تلك الشعوب تصدق أن الإسلام فجأة يقلب العرب المشتتين المستعمرَين إلى أمة قوية واحدة متماسكة، تكتسح كل ما تراه أمامها.

لقد كانت صدمة مباغتة لكل الشعوب، حتى للعرب الذين لم يكونوا يتوقعون في يوم من الأيام أن يصلوا إلى ما وصلوا إليه. ولذلك وبعد كل تلك الحوادث أيقنت تلك الشعوب أن خطأها هو استهتارها بالعرب ولذلك فإن تغلغلها في كيان الأمة العربية، ربما لم يكن من وليد المصادفة، بل يمكن أن يكون مقصوداً. لأنه كان من المستحيل على تلك الشعوب أن تقاوم العرب وتردهم إلى وضعهم السابق بالحرب، فكان لا بد من التسرب أولاً وقد حسب الأعاجم حسابهم مسبقاً بأن الضربة القاضية التي ستوجه للعرب ستكون دائمة بحيث لا تقوم لهم قائمة بعد الآن.

ولهذا يمكن تفسير أنه ومنذ تلك الفترة والعرب مستعمرون إلى الآن ولكن لماذا ؟ الجواب يمكن أن يكون في الدين الإسلامي نفسه. فالعرب لم يعرفوا قوتهم ومجدهم، ولم يصلوا إلى عزهم وعظمتهم إلا بالإسلام، ومن خلال الإسلام، ولذلك فهم مدينون له بحضارتهم ومجدهم الذي وصلوا إليه، فهو الذي

وحدهم وعلمهم وثقفهم وأخرج منهم المبدعين والعلماء، في كل مراحل عصر الازدهار والنهضة. فالقرآن الكريم، بحد ذاته، هو مرجع إسلامي شامل.وبالقرآن الكريم، يمكن حل جميع المشاكل الاجتماعية والإنسانية، وتفادي كل الأمور التي تشكل عامل تفرقة وخلاف.

ولكن كيف عرفت تلك الدول أن الإسلام هو سبب قوة العرب وهو سبب استعمار العرب لأراضيها وحكم شعوبها، فاتخذت منه موقفاً عدائياً بشكل عام، وللعرب بشكل خاص، وبالذات تلك الدول التي هي بعيدة نوعاً ما عن الأراضي العربية والتي لها ديانات غير الديانة الإسلامية كالرومان والصليبين وحتى الفرس والأتراك ؟؟ . إن الجواب أيضاً هو أنه يمكن القول أنه في عهد الرسول الكريم (ص)، وحتى في عهد الخلفاء الراشدين لم يكن الإسلام قد انتشر خارج الجزيرة العربية بما فيه الكفاية، ولذلك فقد ظل مجهولاً بعض الشيء عند عامة الشعوب المجاورة، هذا من ناحية، أما من الناحية الأخرى فإن الإسلام في تلك الفترة لم يقترن بالعنف و لم يكن دين فتوحات ، لأن الفتوحات الإسلامية لم تكن قد بدأت بعد أو كانت في أول بداياتها .

وإلى جانب كل هذه الأمور فإن الإسلام لم يكن قد ارتبط مع السياسة هذا الارتباط الكامل بل كان هناك نوع من الروحية. ولكن استلام الأمويين للسلطة جعل الوضع مختلفاً تماماً، فقد بدأت الفتوحات الإسلامية خارج الجزيرة العربية، وامتد الإسلام إلى الشعوب المجاورة على شكل غزوات وحروب اتخذت الطابع الديني السياسي، وكان الإسلام قد بدأ آنذاك بالاندماج مع السياسة واكتساب الطابع السياسي، فدخل إلى الشعوب المجاورة عن طريق الحرب والدم. كما أن تلك الفترة قد شهدت أيضاً الانقسام الديني الذي رافقه الكثير من الدماء بين العرب أنفسهم، ولذلك كان الإسلام مرتبطاً في ذهن تلك الشعوب بالسيف والدم والنار والفرقة والانقسام، وهذا كله قد أعطى تلك الصفة لدى هذه الشعوب وجعلها تبادر إلى محاربته بكل الطرق والوسائل.

لقد آمنت الشعوب الأجنبية بفكرة لجم العرب وتمزيقهم إلى الأبد. وهذا ما يفسر أنه ما إن يخرج العرب من استعمار حتى يقعوا في يغيره، ولذلك فما خرج المغول وابتعدوا حتى دخل العثمانيون في أسوأ وأطول حملة استعمارية في تاريخ العرب.

المصيبة تزداد، والمأساة تكبر، والفظاعة تهوّل، ولا شيء يوقف الكارثة. إن الأمة العربية قد أصبحت عبارة عن ذبيحة، ومستعمروها هم الجزارون، وكما يقطع الجزار ذبيحته إلى قطع مختلفة ليوزعها على الزبائن فعل هؤلاء نفس الشيء، فقطعوا هذه الأمة إلى عدة قطع ووزعوها على بعضهم البعض، كل يأخذ حصته، وكل ذلك بمباركة وسكوت وعجز من العرب، بل وكل ذلك جر الويلات والمآسي على العرب.لقد جاءت قبيلة تركية من أواسط آسيا لتكون امتداداً للمأساة العربية، ولتشكل أسوأ فترة عرفها العرب، وأطول فترة عاشوها تحت الاحتلال. وشكلت هذه القبيلة وهي قبيلة آل عثمان ما عرف بالعهد العثماني في التاريخ العربي.ويمكن القول أن الاحتلال العثماني للوطن العربي، والذي دام أربعمائة سنة كان بمثابة الضربة القاضية وليست النهائية للأمة العربية، حيث أن هذا الاحتلال كان مختلفاً عن غيره من الاحتلالات السابقة، وهذه الضربة القاضية الجديدة، لم تكن كسابقاتها فهي استهدفت بالدرجة الأولى القومية العربية بكل عناصرها ومقوماتها، والتي هي اللغة والتاريخ والتراث والحضارة، واستهدفت العلم. ولكن الشيء الأخطر من هذا كله، هو أنه بدخول المستعمر العثماني، جرد العرب من الحياة السياسية والدينية اللتين أصبحتا حكراً على العثمانيين، وجرد العرب أيضاً من حق تقرير مصيرهم وسياستهم. بعد كل هذه النكبات التي حصلت للأمة العربية جاء العثمانيون من أواسط آسيا، فتقدموا واحتلوا بلاد الشام والجزيرة العربية ومصر وكل البلاد العربية ما عدا المغرب الأقصى واليمن والقسم المتاخم له من صحراء الجزيرة العربية وذلك نظراً لبعد هذه المناطق عن مركز الإمبراطورية العثمانية من جهة، ووعورة تضاريس هذه البلاد من جهة أخرى. وكما فعل المغول والتتار ببغداد ودمشق عند دخولهم الأرض العربية من قتل وذبح وإبادة، فعل العثمانيون نفس الشيء، ومنذ دخولهم عملوا على نشر التخلف والتجزئة وكان دخولهم باسم الدين الإسلامي.ولما وصل العثمانيون إلى حدود سورية،

انبرى لهم والي مصر آنذاك قانصوه الغوري، الذي جمع جيشاً تحت قيادته، والتقى الجيشان في موقع يسمى مرج دابق، وأسفرت المعركة عن هزيمة العرب أمام العثمانيين، ودخل العثمانيون الأرض العربية[1].

وتقول الوقائع التاريخية، إن قانصوه الغوري قد بعث برسائل إلى زعماء المناطق المجاورة لإرسال جيوش وقوات للمساعدة في الدفاع عن الأرض العربية. ولكن وكما تخاذل العرب أمام بعضهم البعض وتآمروا على أنفسهم عند مجيء هولاكو وتيمورلنك، تخاذلوا هنا أيضاً وتأمروا ضد بعضهم البعض أمام العثمانيين، فحصلت خيانات ومؤامرات كثيرة كانت نتيجتها هزيمة العرب أمام العثمانيين[2] . كل هذا والعرب ساكتون والشعب العربي بأكمله ساكت صامت، لا يتكلم. لقد دخل العثمانيون الأرض العربية، ولم تعترضهم مقاومة تذكر فكانت المدن العربية تسقط الواحدة تلو الأخرى، وكأن ليس هناك حرب ولا قتال، فكان أن ابتلع العثمانيون الأرض العربية بمعظمها.وتبقى سهولة دخول العثمانيين إلى الأرض العربية، واقتحامها مثار الدهشة وبالأخص التجاوب العربي مع الغزاة العثمانيين، وتحليله لهم الأرض العربية والدين الإسلامي. ولماذا ؟.

التفسير الوحيد هو الاختلاف الطائفي والمذهبي بين العرب المسلمين، إنه التصارع بين الطوائف والفرق الإسلامية، مع العلم أن المغول والعثمانيين، هم شعوب أجنبية بالنسبة للعرب، وغريبة عن الأرض العربية،وعن القومية العربية، ولا علاقة لها بالعرب لا من ناحية القرابة، ولا الدم ولا التاريخ. إنهم شعوب أتت واحتلت الأرض العربية وسفكت دماء أهلها وسكانها العرب، وأجهزت على آخر ما تبقى لديهم من الأمة القومية والحضارة.

وخلال الأربعة قرون التي قبع فيها العثمانيون في الأرض العربية، عرف العرب أشد أنواع القهر و

---

[1] تاريخ المشرق العربي .

[2] المصدر السابق .

الإذلال، وعاشوا في مستنقع من الجهل والتخلف والظلام، حتى انه إذاً نظرنا تاريخيا إلى الفترة التي استعمرنا فيها العثمانيون، فإننا لا نرى أي حدث تاريخي، أو نهضة أو تغيير، فالأربعة قرون تلك هي عبارة عن مجرد فتره زمنية متجانسة في الموضوع والمضمون والأحداث، وبالتالي شكلت فتره تاريخية واحده ومتشابهة.

لقد حاول العثمانيون أن يحتلوا أوروبة في تلك الفترة، بعد أن دمروا القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية الرومانية الشرقية. وظلوا فتره طويلة يحاولون الدخول إلى أوروبة. ولكن أوروبة التي كانت تحت سلطة الكنيسة الواحدة، كانت متماسكة ومتراصة، فاستطاعت أن تصد العثمانيين.

وفي كل مرة كان فيها العثمانيون يحاولون التقدم باتجاه أوروبة كانوا يصطدمون بجبهة من الجيوش تتشكل على امتداد أوروبة كلها[1]. كل أوروبة كانت تستنفذ ضد العثمانيين، أوروبة الموحدة دينيا كانت كلها تحت لواء كنيسة واحدة وقرار واحد وسلطه واحدة ، وبذلك استطاعت أن تهزم العثمانيين، وأن تسير بعدها في طريق الحضارة والتقدم، ولو أن العثمانيين قيض لهم دخول أوروبة، واحتلالها، لما كانت الثورة الصناعية قد قامت، وما كانت أوروبة قد عرفت طريق العلم والحضارة والتقدم، ولبقيت إلى الآن أمة بربرية متخلفة. ولكن الأمور اقتضت بان يبتلي العرب بهذه المصيبة فقط دون سواهم.

وباحتلال العثمانيين للأرض العربية ، عزل العرب عن العالم الخارجي عزلة تامة وبدؤوا مرحلة أخرى من التخلف والتفكك. ولكن هذه المرة كان الظلام سرمديا والليل طويل، وكانت الضربة هذه المرة ضربة شاملة لكل الوطن العربي على خلاف الضربات السابقة التي كانت قصيرة نسبيا، ومقتصرة على بقعة محددة، وكانت تتمثل بغزوات عابرة تنتهي عندما يحاربها العرب.

---

[1] المصدر السابق – تاريخ الدولة العثمانية .

إن الاحتلال العثماني للوطن العربي كان خلافا لما سبقه يستهدف ليس فقط الأرض، بل اللغة والتراث والمصير، احتلال لا تنفع معه لا الثورات ولا الحروب والضرر الذي لحق بالأمة العربية من جراء الاحتلال العثماني فادح جدا، وقد طال معظم نواحي وضع الإنسان العربي ككل. ويمكن إجمال ذلك بعدة نواحي[1].

من الناحية السياسية:

فقد العرب زمام السيطرة على السلطة ومقاليد الحكم، كما فقدوا القدرة على اتخاذ أي قرار سياسي أو التأثير فيه، فيما يتعلق بمصيرهم ومستقبلهم، وانتقلت السلطة بذلك من أيديهم إلى العثمانيين. وإذا كانت السلطة في الماضي تنتقل بالقوة من أيدي العرب إلى الأجانب، فإنها الآن قد انتقلت بشكل رسمي وشرعي، فقد تسلم السلطان سليم الأول مفاتيح الكعبة، و أطلق عليه لقب الخليفة أمير المؤمنين، أي أن هذا السلطان قد أصبح خليفة محمد رسول الله[2] ، وسيصبح جميع أولاده من بعده خلفاء لمحمد، لقد جرد العرب من حقهم في تقرير مصيرهم وإدارة أنفسهم، وأصبحوا كالموالي وأهل الذمة في أرضهم، ومواطنين من الدرجة الثانية أو الثالثة، وأصبحت أرضهم ولاية تابعه للعثمانيين وملكاً لهم.

وفي الواقع إن انتقال السلطة والحكم إلى العثمانيين بهذه الشرعية، وهذا القبول العربي، هو الذي جرد العرب من كامل حقوقهم السياسية، وجعلهم محكومين وتابعين إلى العثمانيين. لأنه من الطبيعي أن الشريعة العثمانية وخلافة آل عثمان لمحمد (ص)، ستنفي الشريعة العربية، وخلافة بني يعرب لمحمد (ص)، لأنه لا يجوز أن يكون لمحمد (ص) خليفتان في آن واحد.

الناحية الاقتصادية:

---

(1) المصادر السابقة .

(2) المصادر السابقة .

حصلت مجاعات كثيرة وفقر كبير، وقل إنتاج الأراضي الزراعية بسبب بوار معظمها. فالعثمانيون كانوا قد احتلوا قسما كبيراً من الأراضي العربية ووزعوه على قوادهم ومعاونيهم ووجهائهم، الذين تحولوا إلى إقطاعيين يستعبدون العرب في أرضهم، فلم يهتموا بالزراعة بقدر اهتمامهم بتملك الأراضي، وتسلطهم قهرهم للعرب، وهذا ما أدى إلى هجرة المزارعين الأراضي[1] .كما أن التجارة قد قلت كثيراً وفقدت مركزها وقوتها، وانقطعت المبادلات التجارية مع الخارج، وانعدمت الحركة التجارية بشكل مطلق تقريباً، وذلك لعجز البضائع العربية (التي كانت في أواخر عهدها) عن منافسة البضائع الأجنبية التي كانت قد بدأت تظهر في بداية عهد الثورة الصناعية. ومن جهة أخرى فان العثمانيين قد عملوا على القضاء على الصناعة والتجارة وكل أشكال الإنتاج، واستقدامهم الصناع والمهنيين العرب من كافة الأصقاع والإنحاء، كونهم كانوا لا يملكون أي مظهر من مظاهر الصناعة والإنتاج. وبالتالي تعطلت المشاغل والمعامل، وانقرضت الحرف اليدوية والمهارات الصناعية، ولم يعد هناك أي إنتاج لأي نوع من الصناعات.

ولقد أثر هذا الأمر تأثيراً كبيراً على الصناعة والتجارة، وأصبح هناك نوع من الركود والخمول، ولهذا فقد انتشر الفقر والبطالة بشكل كبير، وأصبح البؤس من سمات الإنسان العربي.كل هذا في الوقت الذي بدأت أوروبة قيامها بالثورة الصناعية، ودخول عصر الاختراع والابتكار والتقدم. ولم يمكن العثمانيون العرب من الاختلاط بالحضارة الغربية، بل أقاموا جداراً كبيراً من العزلة بين العرب وبين الأمم والشعوب الأخرى. وهذا السبب هو العامل الأساسي في التخلف العربي الحالي عن الشعوب والدول المتقدمة، لأنه وفي ذلك الوقت أيضا شهدت أوروبة بالإضافة إلى الثورة الصناعية، ثوره دينيه أطاحت بنظام الكنيسة الحاكمة في روما وذلك على يد المصلح مارتن لوثر، وتم فصل الكنيسة عن نظام السلطة والدولة، أي بمعنى أصح تم فصل الدين عن السياسة بشكل رسمي.

---

[1] سوسيولوجيا الفكر الإسلامي .

ولو قيض للعرب في ذلك الوقت أن يحتكوا بأوروبة لربما اثر ذلك على عقلية الإنسان العربي، وغير بعض الشيء من تلك الأفكار الهدامة التي لا تزال تؤثر في تفكير وتصرف الإنسان العربي.

الناحية الاجتماعية :

انتشرت الأمراض والأوبئة بشكل كبير ومستفحل، وهلك معظم الناس بسببها.فمثلاً في القاهرة انخفض عدد السكان إلى النصف بسبب الوباء والمرض، وكان بعض الأوبئة يستمر لفترات طويلة تمتد إلى عشرين عاماً، وكل ذلك يعود بالدرجة الأولى إلى الجهل والتخلف.[1]وقد ترافق مع انتشار الأمراض والأوبئة، انتشار الفساد الإداري بشكل كبير، وقل الأمن وكثرت الجرائم والسرقات بشكل كبير جداً.واشتدت الطائفية الدينية، وقوي عودها بشكل كبير، وبمباركة العثمانيين لدرجة وصل فيها الصراع والتعصب الطائفي إلى أعلى مراحله عبر التاريخ الإسلامي العربي . وكل ذلك بمباركة من العثمانيين الذين عملوا على ضرب الوحدة الإسلامية بين العرب وإثارة النعرات الطائفية .

الناحية الثقافية :

عمَّ الجهل والتخلف في سائر الوطن العربي ، وارتفعت نسبة الأمية حتى وصلت في بعض الأحيان ، وبعض المناطق إلى نسبة /١٠٠ ٪/، وتوقف الاجتهاد وطلب العلم، وانكفأ الناس عن العلم، وانعزلوا تماماً عن العالم الخارجي، حتى أن العثمانيين بالإضافة إلى عزلهم العرب عن العالم الخارجي، فقد عزلوا حتى داخليا كل إقليم عربي عن الآخر. وأكثر من تأثر بمجيء العثمانيين،، هو اللغة العربية والحضارة العربية، حيث كان العثمانيون يقمعون أي ظاهرة من مظاهر العم والثقافة والتعليم، وبالإضافة إلى ذلك فقد عمد العثمانيون إلى جلب شعوب أجنبية معهم ونشروها بالأقاليم زيادة على جيوشهم،

وهذا ما ساهم بانتشار اللهجة العامية والمحلية. وباختصار شديد . . . لقد قضى العثمانيون على الحضارة العربية وأجهزوا عليها تماماً.

وأمام هذه الأحداث الأليمة والفظائع الكبيرة التي لحقت بالأمة العربية دون انقطاع نحا الإنسان العربي إلى العزلة والزهد والتصوف، وأخذ يستغفر ربه، ونحا البعض الأخر إلى العبث والخمر للخروج من هذا الواقع الأليم.

من جديد رجع الظلام إلى الأمة العربية، وأخذ العرب يعيشون فترة من العزلة لا يعرفون شيئاً عما يدور في العالم الخارجي، ويعانون في أثنائها من القهر والذل ما لم يعانيه أي شعب آخر. وقد عمل العثمانيون في تلك الفترة على تقوية نفوذ بعض رجال الدين والإقطاعيين من المتعصبين والرجعيين، فكانوا يولونهم مناصب عالية، ويعطون أزلامهم الرجعيين المتآمرين الأراضي والإقطاعيات. وكان هؤلاء أداة طيعة في يد الحكم العثماني، إذ أخذوا يستغلون سذاجة الشعب العربي، والطبقة الفقيرة، وينشرون تعاليمهم ومبادئهم المضللة، والمعادية للقومية العربية، والتي لا تخدم سوى المستعمر وأصلاً بعد أن أحرق المغول كل المخطوطات والكتب العربية وكل ما يمت إلى التراث والتاريخ العربي بصلة، ضاعت الكثير من المعلومات عن الفترات السابقة والتراث الذي ظهر بها. وكل ذلك بمباركة وجهود من أولئك الرجعيين والمتآمرين العرب، المنضوين تحت لواء المحتل العثماني، والذين لعبوا الدور السيئ في ذلك.

إن الشعب العربي كان يقف موقف الصامت المتفرج وكأنه مخدر أو سكران، بل لقد لعب الشعب العربي دوراً سيئاً هو الآخر، وذلك نتيجة لسكوته وانقياده وراء تلك الفئة الرجعية المضللة كما تنقاد الشاة للراعي. وبعد كل ذلك وبعد كل ما فعله العثمانيون بنا نعتبرهم أخوة دين وإيمان، بعد ما عاثوا في أرضنا فساداً ونهبوا خيراتها. أصلاً إن هذا الحكم الذي دام أربعة قرون كاف ليمحي كل أثر لحكم أموي أو عباسي، ولكل حضارة أو فكر أو ظاهرة علمية عربية.

قد يقال أن هناك ثورات عربية حدثت ضد الاحتلال العثماني، لكن هذه الثورات كانت قليلة، وكانت ذات نطاق ضيق وفي مناطق محدودة، بالإضافة إلى أن الشعب العربي الذي كان واقعاً تحت نير الجهل والتخلف، كان ضد تلك الثورات.

وقد امتد نزاع العرب وصراعهم فيما بينهم، إلى خارج الأرض العربية ليصل حتى إلى الأندلس.

ونحن تعمدنا أن نفرد فصلاً خاصاً للتاريخ العربي في الأندلس نظرة لكون أحداثها مفصولة من الناحية الاجتماعية والسياسية عن الأحداث العربية في العهدين الأموي والعباسي.

العرب والأندلس

لقد كان فتح الأندلس (إسبانيا الحالية)، مفخرة في تاريخ العرب، وموضع اعتزازهم، وهو نقطة هامة في التاريخ العربي يجب الوقوف عندها والتمعن بها طويلاً لأنها تحمل معاني كثيرة للحضارة العربية في تلك الفترة.

إن العرب اليوم ينظرون إلى الفترة التي عاشوا فيها في الأندلس فترة هناء ورخاء، وأنها دليل على قوتهم ومجدهم، وإنها كانت أيام حضارة وتقدم، ويعتبرون تاريخهم في الأندلس بأنه نقطة إيجابية في التاريخ العربي وأنهم قاموا بنشر الحضارة والرقي فيها.

ولكن كان هناك جانب أخر من هذا التاريخ وهذا الجانب هو الذي كان السبب في إخراجهم من الأندلس. هذا الجانب الذي كان صورة مطابقة عن الخلافات والصراعات الدائرة بين العرب في الأرض العربية خلال حكم الأمويين والعباسيين، والتي أودت بهم إلى الضياع.

من المعروف لدى الناس في التاريخ، أن العرب فتحوا الأندلس بقيادة موسى بن نصير عامل الخليفة الأموي في المغرب، الذي وجه طارق بن زياد إليها، فعبر البحر ودخل إليها ودارت معركة بينه وبين جيش الإسبان ، فكان النصر حليف العرب، ثم فتح العرب بلاد الأندلس كلها ونشروا فيها الحضارة والعلم والنور حتى غدر بهم الأعداء وأخرجوهم منها. هذا هو الشيء المعروف والظاهر بشكل العام، صحيح أن العرب قد نشروا في البداية العلم والحضارة العربية في الأندلس،ولكن في الواقع، وبالإضافة إلى ذلك فإن الأندلس أيضاً كانت مأساة من مآسي التاريخ العربي، وإلى جانب النقطة المضيئة، كان هناك أيضاً نقطة سوداء، وصورة حية على الواقع العربي الدموي.

والقضية تبدأ منذ أيام العصر الأموي [1]، في فترة حكم الوليد بن عبد الملك بن مروان ، وكان عامله على المغرب موسى بن نصير. وكانت الأندلس في هذه الفترة ممزقة وفي حال متردية، حيث ينتشر البؤس في كل مكان، والخلافات بين الأمراء الأسبان كانت على أشدها، وكان أحدهم ويدعى ليليان أميراً على إحدى المقاطعات الأسبانية وقد بلغ من شدة نقمته على الملك الأسباني لذريق واختلافه معه أن أخذ يرسل الرسائل إلى موسى بن نصير يستنجد به و يحرضه على غزو إسبانيا للإطاحة بالملك لذريق، واصفاً له مزايا البلاد وغناها. فكان هذا بمثابة عرض مغرٍ لموسى، مما حدا به أن يبعث أحد قواده ويدعى طارق بن زياد على رأس جيش لغزو الأندلس فأبحر طارق بجيشه وعبر الأندلس والتقى مع ملك الأسبان لذريق في معركة فاصلة تم النصر فيها للعرب. وبعد المعركة أرسل موسى إلى طارق لكي يتوقف عن الفتوحات ريثما يصل هو، ولكن طارق لم يتمثل للأوامر، وتابع التقدم للحصول على المزيد من الغنائم ومعه قائد أخر هو مغيث الرومي الذي أسر فيما بعد أثناء تقدمه أمير قرطبة التابع للذريق.

ولما التقى موسى بطارق ومغيث فيما بعد أمر بجلدهما بالسوط عقاباً على عصيانهما له، ثم رضي عنهما بعد ذلك وتابع الثلاثة معاً تقدمهم في البلاد.ثم جاء أمر الخليفة الوليد إليهم للرجوع إلى الشام مع الغنائم، فركبوا السفينة إلى الشام، وفي البحر أخذ موسى الغنائم وقتل أمير قرطبة الذي أسره مغيث، فما وصلوا إلى الشام توفي الوليد وخلفه على العرش أخوه سليمان الذي كان لا يود موسى.

وعندما دخلوا على الخليفة أخذوا يتهمون بعضهم البعض بعد أن استحكمت الكراهية فيما بينهم، فعزل

---

[1] أدباء العرب – نفح الطيب ج٢ – الكامل في التاريخ ج٥ – العرب في إسبانيا – تاريخ الإسلام ص/٢٢٩/ - تاريخ الشعوب الإسلامية – تاريخ المسلمين في الأندلس – التاريخ الأندلسي .

الخليفة موسى ونفاه، كما عزل طارق ومغيث أيضاً. وكان موسى قد ولى ابنه عبد العزيز من بعده ، ولكن الخليفة الأموي سليمان بعث إليه من قتله، فتولى مكانه أيوب بن حبيب اللخمي، وهو ابن أخت موسى، ولكنه عزل هو الأخر من قبل الخليفة سليمان فتولى مكانه الحر بن عبد الرحمن الثقفي . ثم تابع العرب أعمال الفتح والتقدم، ففتحوا برشلونة وقشتالة، وتقدموا نحو شواطئ فرنسة ووسطها، ففتحوا مدينة تور إحدى أكبر المدن المنيعة.

وكان القواد العرب قبل كل معركة يبذلون جهوداً كبيرة للجمع بين القبائل العربية المتناحرة والتي كان يتشكل منها الجيش العربي، خاصة بعد أن كثرت الغنائم.ولهذا فلما وصل الجيش العربي بعد اجتياح جنوبي فرنسا إلى مدينة تور، وكان تحت قيادة عبد الرحمن الغافقي، التقى العرب مع الفرنجة في سهل بواتيه، وخاضوا أهم معركة منذ دخولهم الأندلس، لأنها كانت معركة فاصلة ستحدد نتائجها مسار الفتوحات العربية في أوروبا.

لقد خسر العرب هذه المعركة وانهزموا فيها، وقتل الكثير منهم بحيث سميت هذه المعركة فيما بعد بمعركة بلاط الشهداء. وكل ذلك بسبب التناقضات الأساسية نفسها التي كانت بينهم. وطبيعي أمام تلك الحالة أن ينقسم الجيش العربي إلى طوائف وفئات وقبائل .

ولم يكن مقتل عبد الرحمن الغافقي إلا نتيجة لتلك الخلافات والنزاعات.فعندما وصل جيشه إلى منطقة بواتيه دب الخلاف بين القواد والجند على اقتسام الغنائم من جهة، وبينهم وبين القائد عبد الرحمن من جهة أخرى، هذا بالإضافة إلى العقيدة المخلخلة والخلافات في صفوف الجيش العربي.

وقد حشد الفرنجة في هذه المعركة تحت قيادة الفرنسي شارل مارتل، كل جيوشهم التي جاءت من كل المناطق، لأن هذه المعركة كانت بالنسبة لهم آخر معركة سيتقرر مصيرهم بها.ولهذا فعندما بدأت المعركة بين الطرفين، ثبت الجيش الإسلامي أول الأمر ثم ما لبث تفكك وانهار وتشتت أفراده في كل مكان. وحاول القائد عبد الرحمن الغافقي أن يعيد لم الشمل، فأخذ يصيح بالجنود للثبات والبقاء

ويحضهم على متابعة القتال، ولكنه أصيب بسهم في صدره فسقط عن جواده و مات في المعركة. وإذاً نظرنا في الكتب التاريخية المتحدثة عن هذه المعركة، لرأينا أن السبب الأول في انكسار العرب وخسارتهم، هو هذا الانقسام المروع الذي كانوا فيه، وعدم التماسك فأصبح جيشهم بذلك عبارة عن فرق حربية مختلفة متنازعة ومهيجة ضد بعضها البعض، حتى قيل أنه لولا شخصية القائد عبد الرحمن وحزمه وحنكته لا نقض الجيش العربي على نفسه وفتك أفراده ببعضهم البعض.

وبعد هذه المعركة حدث فراغ كبير وصراع وفتنة عظيمين بين العرب في الأندلس، فتشكلت الأحزاب والأسر وتوافدت القبائل العربية على الأندلس، وكان لا بد لهذه القبائل من أن تحمل معها خلافاتها وصراعاتها وكانت القبائل العربية كثيرة ومتنوعة، فقد جاء المضريون وبنو ربيعه وبنو هاشم ومخزوم وبنو قيس وتميم وتغلب، واستوطنوا في الأندلس مما أثار سخط البربر فثاروا على العرب واحتدمت المعارك بينهم في إفريقية و الأندلس التي كان واليها عبد الملك بن قطن، فطلب العون من أحد أمراء العرب في سبته واسمه ابن بشر القشيري فجاء هذا الأخير بجيشه وقضى على ثورة البرابرة ولكنه لم يلبث أن قتل والي الأندلس لأنه لم يعامله كما يجب وتولى زمام الأمور مكانه، فغضب منه العرب الأندلسيون لأنه قتل واليهم فثاروا عليه وقتلوه ، وجاء بعده رجل يدعى ثعلبة بن سلامة وكان من القبائل اليمانية، فثار عليه الفهريون ومالوا عنه، مما أدى إلى نشوب الخلاف والفتنة بين القبائل العدنانية والقحطانية، فقام حنظلة بن صفوان والي إفريقية بعزل ثعلبة وجعل حسام بن ضرار مكانه، فكان هذا الأخير أيضاً رجلاً متعصباً فثار عليه العدنانيون والقيسيون، وكادت الحرب أن تقع، حتى تم خلع السيد حسام، وأخذت الأندلس بعد ذلك تغرق في فراغ وفوضى كبيرين ، وتخلخل النظام بها، وأخذ الأمراء والجند يحركونها كما يشاءوون، وتم تقسيمها بين القبائل العربية، واتفقوا على أن تحكم كل سنة قبيلة، فبدءووا بالقبائل المضرية، الذين عينوا يوسف الفهري.

ولما انقضت السنة، جاء دور اليمانيين، فجاؤوا ليتسلموا السلطة فكان أن غدر بهم يوسف الفهري وأعمل السيف في رقابهم، فثارت الحرب بين القبائل العربية وعمت الفوضى في الأندلس، حتى جاء عبد الرحمن الداخل وأقام دولته الجديدة. وعبد الرحمن هذا هو من الأمويين الذين نجوا من سيوف بني العباس، واسمه عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان. فعندما بدأ العباسيون يفتكون ببني أمية تمكن عبد الرحمن من الهروب والتخفي حتى بلغ المغرب، ومنها انتقل إلى الأندلس، وهناك استطاع بمساعدة الأمويين الموجودين هناك والبربر أن ينشئ الدولة الأموية فيها ويزيل الممالك السابقة، حيث فتك بيوسف الفهري وغيره من الأمراء المعارضين، وحكم الأندلس فترة لا بأس بها، وكانت فترة حكمه وحكم أولاده وأحفاده من بعده فترة استقرار وهدوء نسبيين.

واستمر أحفاده من بعده بالحكم حتى جاء أحدهم واسمه هشام بن الحكم على السلطة، فأخذ يستبد بشؤون الدولة هو ووزيره محمد بن أبي عامر الذي ما لبث أن قوي عوده، فأزاح هشام بن الحكم بشكل صوري واستلم هو مكانه، وبدأ بسلسلة من العمليات، فمحا الخلافة من الأمويين وأمر بالدعاء له على المساجد والمنابر، ولقب نفسه بالمنصور، وأخذ يبطش بالمعارضين لحكمه ويفتك بهم، فرماه الناس بالزندقة.وبعد موته تولى ابنه عبد الملك من بعده، وكان مثلاً سيئاً على الطائفية والقبلية. وبعد موته جاء أخوه عبد الرحمن الذي أراد أن يكون خليفة كالأمويين، فلقب نفسه الناصر لدين الله، وطلب من هشام بن الحكم أن يترك له الخلافة ففعل هشام ذلك وترك الخلافة، فكان أن نقم عليه الأمويون (على هشام)، فقاموا بخلعه وتعيين ابنه محمد الذي لقب نفسه بالمهدي ، بدلاً منه، فقام محمد بقتل الناصر وتسلم هو زمام الحكم. ولكن البربر تآمروا عليه وبايعوا سليمان بن الحكم الذي لقب نفسه بالمستعين. ونشبت الفتنة بين الاثنين، وأخذت المعارك تدور بينهما، فمرة ينتصر هذا ومرة ذاك، وكان المهدي يعتمد على ملك الفرنجة فيمده هذا بالجيش اللازم.

ومن هنا ولأول مرة، ومنذ أن بدأ العرب يعتمدون على الفرنجة ضد بعضهم البعض أخذ الخط البياني لوجود العرب في الأندلس بالانعطاف نحو الأسفل.

واستمرت المعارك بين المهدي والمستعين، فسفكت دماء عربية كثيرة، وخربت المدن وهدمت القصور، حتى تمكن المستعين من التغلب على المهدي. ثم جاء بعد ذلك رجل من المغرب يدعى علي الإدريسي، و بايعه البربر، فقام بقتل المستعين ولقب نفسه بالناصر، فثار عليه بنو أمية و قتلوه وعينوا واحداً منهم عنه، فقام الإدريسيون وثاروا عليهم وقتلوا ملكهم، وتوالت الثورات وتوالى معها الخراب أكثر فأكثر.هنا بدأ الفرنجة يشعرون بضعف العرب وتمزقهم فأخذوا يستعدون للأمر جيداً وكما ذكرنا فإن هذه الفترة كانت هي التي بدأ مسار الوجود العربي في الأندلس بالانعطاف فيها، كانت هي في الواقع فترة بداية النهاية.بعد ذلك عين الأمويون رجلاً منهم اسمه هشام بن محمد، فلقب نفسه بالمعتضد بالله، ففتك بالإدريسيين واستلم زمام الأمور، ولكن الجند خلعوه، وحاولوا قتله، فهرب وبدأت الحروب الأهلية بين القبائل العربية ولكن بشكل عنيف هذه المرة. ونتج عن ذلك أن انقسمت الأندلس إلى ممالك ودول عديدة اشتهر ملوكها باسم ملوك الطوائف، فكان منهم بنو العباد وبنو عامر وبنو الأفطس وبنو جهور، وأخذ ملوك الطوائف يتآمرون على بعضهم البعض، ويزيلون الضعيف فيهم، فنشبت الحرب بين بني عباد وبني الأفطس ثم بين بني جهور، وكان الضعيف يستنجد بالإفرنجة الذين كانوا يغتنمون هذه الفرصة ويهاجمون الأندلس ويخربون المدن العربية، وكانت هذه هي المرحلة الثانية من الخطر الإفرنجي، والتي تمثلت بالحرب.

وواصل الفرنجة تقدمهم حتى وصلوا إلى حدود دولة بني عباد وكان يحكمها المعتمد بن عباد، فاستغاث هذا الأخير بيوسف بن تاشفين حاكم المغرب وقتها وهو من دولة المرابطين التي حكمت المغرب،وكان نشوؤها على يد أحد الفقهاء من شيوخ المغرب وكان قد جمع عدداً كبيراً من الرجال

وأمرهم بأن تجعل كل جماعة منهم قبيلتها تتبعه، ففتكوا ببعضهم البعض، و هاجموا عشائرهم حتى أجبروها على اتباع تعاليم الشيخ، ومن هنا نشأت دولة المرابطين.

إذاً وبعد أن استغاث المعتمد بن عباد بيوسف بن تاشفين أبحر هذا الأخير إلى الأندلس ودافع عن المعتمد وهزم الفرنجة ثم عاد إلى موطنه وهو يحلم بالأندلس. ولكن الفرنجة عادوا مرة أخرى للهجوم على المعتمد ابن عباد الذي عاد هو الأخر للاستغاثة بيوسف بن تاشفين، فأبحر يوسف هذه المرة وفي ذهنه الاستيلاء على الأندلس، فطرد الفرنجة ولكنه بقي في الأندلس وطلب من المعتمد أن يسلمه السلطة، فرفض المعتمد، ونشب بين الاثنين قتالاً ضارياً عنيفاً، إلى أن انتصر يوسف واقتيد المعتمد أسيراً، واستلم المرابطون دولة الأندلس .

ثم مات يوسف بن تاشفين،فاستلم ابنه علي مكانه ، وكان متعصباً طائفياً كغيره ممن سبقه، فسيطر عليه رجال الدين وجعلوه دمية لهم، فكان عهده رمزاً للفتن الطائفية والنزاعات الدينية.

في هذه الفترة ظهر في المغرب متدين أخر وهو الشيخ محمد بن تومرت الذي أخذ يدعو الناس إلى أفكاره آرائه، وكان هذا الشيخ قد ذهب إلى بغداد وأخذ الفقه عن أهلها وشيوخها، فلما عاد إلى المغرب بدأ بدعوة الناس إليه ولعقيدته، فلقبه الناس بالمهدي واستطاع أن يضم إليه عدداً لا باس به من الناس، وأخذ ينشر دعوته في المغرب.

ولما قوي عوده ولاقت دعوته رواجاً، دعا أتباعه إلى قتال المرابطين وأطلق فتوى أباح لهم فيها دماء المرابطين ودماء كل المعارضين له. فأخذ أتباعه يهاجمون المرابطين في المغرب والأندلس وكل من لم يلتزم بدعوة الشيخ تومرت، فسفكوا دماء كثيرة وقتلوا خلقاً كثيراً وقاموا بتخريب المدن ونشر الفساد والفوضى، فأصبح القتل شائعاً بين الناس، وكثرت السرقات وقل الأمن وانتشرت الأمراض وكان الناس يقتلون بالجملة، حتى انتصر الشيخ تومورت في دعوته إلى الحق والاعتصام بالله ونبذ القتال.

ثم توفي الشيخ تومورت فخلفه أحد أصحابه وأسمه عبد المؤمن الذي أكمل التوغل في الأندلس وأعمل السيف في رقاب كل من لم يلتحق بدعوته، فأباد الكثير وكلهم من العرب ولقب نفسه بأمير المؤمنين، وبعد موته خلفه أبنه أبو يعقوب ولقب نفسه بالمنصور ومشى على خطا والده في الهداية وسفك دماء الناس. وهنا انتهت المرحلة الثانية من الخطر الإفرنجي وبدأت المرحلة الثالثة والأخيرة وهي طرد العرب نهائياً من الأندلس.

ففي فترة أبي يعقوب ظهر أحدهم وهو أمير بطليوس وأسمه محمد بن هود الذي بدأ يحارب دولة أبي يعقوب، وأخذ يبسط سلطته تدريجياً على الأندلس.ولكن زعيم إحدى القبائل العربية وهو محمد بن نصر، وقبيلته هي قبيلة بني الأحمر، كان قد استقدم الفرنجة وعقد معهم اتفاقاً لمساعدته، فزحفوا على الأندلس بعد أن تأكدوا من التمزق العربي التلقائي، وأخذوا يهاجمون المدن والولايات يخربون كل ما يصادفونه أمامهم، فدحروا العرب أمامهم وقتلوا منهم ما استطاعوا. وبدأت المدن العربية تسقط الواحدة تلو الأخرى حتى وصل الإفرنجة إلى عاصمة الأندلس العربية وهي قرطبة فاحتلوا وطردوا جميع العرب منها.ولم يبق للعرب سوى غرناطة، فتولاها زعيم بني الأحمر كمكافأة له على مساعدة الإفرنجة.

وبعد موته تولى ابنه السلطان أبو الحسن الملك، فنازعه عليه أخوه الأصغر عبد الله، وقامت الفتنة والنزاع بين الاثنين، حتى خضع الأحمر الصغير للأحمر الكبير، الذي كان له زوجتان، إحداهما مسلمة وتدعى عائشة والثانية نصرانية أسلمت فيما بعد وأسمها ثريا. وثريا هذه كانت أقرب إلى قلب زوجها من عائشة التي سرعان ما دبت نار الغيرة في قلبها، فهربت من القصر مع أولادها إلى مدينة مجاورة، وأخذت تحرض الناس على الفتنة بين الابن وأبيه، وبدأت المعارك بينهما، وأخذت الدماء تسفك في كل مكان وبشكل مروع إلى أن انتصر الولد على أبيه، فخرج يريد محاربة الفرنجة معتقداً نفسه سلطان زمانه، ولكن هيهات، لقد كان الفرنجة متحدين أقوياء، بينما العرب قد أبادتهم المعارك الأهلية وحمامات الدم التي نصبوها لبعضهم البعض. وسرعان ما ألقي القبض على أبي عبد الله، وسيق إلى

سجون الإفرنجة، فجاء عمه واستلم مكانه ليحارب الإفرنجة هو الآخر.ولكن الفرنجة الذين كانوا قد عرفوا العرب على حقيقتهم، وعرفوا كيفية تعاملهم مع بعضهم البعض، قاموا بكل بساطة بإطلاق ابن أخيه الأسير وقالوا له اذهب يا غلام وخذ ملكك من عمك.

فذهب هذا لا يلوي على شيء وجمع الأنصار وهاجم دولة عمه ملك الزمان. فنشبت الحرب بينهما، وعادت الدماء العربية من جديد لتسفك. حينذاك بدأ الفرنجة العمل بشكل جدي، وعرفوا أن اللحظة الحاسمة قد حانت، فأطبقوا على غرناطة، آخر مدينة عربية وطلبوا من الزعيم الأحمر تسليمها لهم والخروج منها فوراً مع جميع العرب، فسلمها هذا لهم بكل هدوء، وخرج منها مع جماعته. ولما ابتعد عنها، نظر إليها نظرة أخيرة ثم أجهش بالبكاء، فقالت له أمه عائشة "ابك كالنساء ملكاً لم تحافظ عليه كالرجال". وكأن الأم في قولها هذا حريصة كل الحرص على الوحدة العربية وعلى القومية العربية، وهي التي حرضت الابن على أبيه وأشعلت نار الحرب بينهما.

ثم توالى طرد الفرنجة للعرب من الأندلس حتى أخرجوهم كلهم منها بتاريخ /١٤٩٣/م.وهكذا انتهت مأساة الأندلس الحزينة، وأسدل الستار على ثمانية قرون من القتل والخلع والإبادة وسفك الدماء والطائفية، إلى جانب ثمانية قرون من الحضارة والثقافة والعلم.

إن القارئ المتبصر، يستطيع ومن خلال قراءته تاريخ الأندلس،أن يرى كيف كان الدين يخضع للسياسة، وكيف أن الدعوات الدينية في تلك المرحلة كانت تلعب الدور الرئيسي في نشوء الدول والممالك، كدولة المرابطين ودولة الموحدين.وهذه الظاهرة ما هي إلا امتداد للظواهر والحالات التي حدثت في المجتمع العربي. فهذه الممالك والإمارات القائمة على الأساس الديني في بداية نشوئها كعامل من عوامل ومقومات وجودها، كانت بعد فترة وجيزة تتجه إلى العمل السياسي، وتخضع الدين للسياسة وتربطه.فمثلاً يأتي أحد الشيوخ الذين يؤسسون الدول والممالك. وهذا الشيخ في الغالب يكون في البداية غير معروف، ولا أحد يعرف من أين أتى. ويبدأ بجمع الأتباع من حوله، باسم

الدين والتقنية والإيمان، وهو لا يجمع المثقفين والواعيين بل ينشد ضالته في المنبوذين والفقراء والمحرومين في المجتمع[1] . و هؤلاء في الغالب أميون سذّج ، فيباشر على الفور بعملية غسل دماغ لهم تتضمن آراءه وميوله، ثم لا يلبث أن ينتشر أتباعه ويتزايدوا، خاصة وان الوضع العربي في تلك الفترة لم يكن مستقرا، والثورات الطائفية والدينية كانت في أوجها، كما أن الإنسان العربي في تلك المناطق البعيدة النائية، لم يكن لديه هذا التبلور الكافي للعقيدة الدينية.

وبعد أن يصل هذا الزاهد إلى مرحلة متقدمة من جمع الأتباع، وبعد أن يزداد أنصاره وتقوى شوكته، يبدأ تدريجياً بخلط السياسة مع الدين، ولكن بشكل مموه، ويقوم بإطلاق فتاوى دينية تحريضية تخدم أغراضاً سياسية معينة، ولكنها صعبة الإدراك على الأتباع.

والحكام والولاة كانوا يتبعون نفس لطريق أيضاً، فكانوا يوهمون الناس أنهم هم القادرون على حمايتهم وأنهم هم الذين يتبعون دين الله والحق. وعندما كان الخليفة أو الأمير يستلم الحكم سواء عن طريق أسباب طبيعية أو غير طبيعية، كان أول شيء يفعله، هو إظهار هالة خادعة حول نفسه ليوهم الناس بأنه الرجل القوي الأمين المتمثل لأمر الله والمعتصم بالله والمعتمد على الله والمعتضد بالله والمستكفي والقادر والمقتدر والمستعين والمستطيل والمربع، إلى ما هنالك من ألقاب دينية تخدم أغراضاً سياسية بحتة.ولو نظرنا قليلا، وتبصرنا هنيهة، لوجدنا أن الحقيقة هي غير ذلك، وأن جميع هذه الألقاب لا تحمل معناها الصحيح بل العكس تماماً . و كل هذا باسم الدين وكل تلك المآسي والمصائب والمجازر المرعبة التي تقشعر لها الأبدان، والتي يقف لها شعر الرأس والتي أضاعت الأمة العربية والشعب العربي، كلها كانت باسم الله والدين.

هذا هو بشكل مجمل ومختصر تاريخ العرب القديم، ومنه نستطيع أن ندرك بأن السبب الرئيسي لانحطاط العرب وهيمنة الشعوب الأخرى عليهم واستعمارهم، هو تلك الخلافات والنزاعات السياسية

---

[1] دراسات في الفكر الإسلامي ، فصل الإيديولوجية .

التي حصلت فيما بينهم، وسبب طول الفترة التي قضاها العرب في الأندلس يمكن أن نعزوها ليس إلى قوة العرب وتماسكهم، بل إلى الضعف والتخلف الذين كانت ترزح تحتها أوربة. لأن أوربة خلال فترة القرون الوسطى وما قبلها كانت في حالة من الجمود والانقسام والانحطاط، وهذا ما جعلها ضعيفة غير قادرة على عمل أي شيء من شأنه أن يغير مجرى الأحداث التاريخية.

ولكن ومنذ أن أخذت أوروبة تتخلص من حالة الجمود تلك، حتى بدأ مسار الأحداث التاريخية بالتغيير، والسبب الرئيسي هنا، يكمن في ظهور القومية عند الشعوب والأمم، وإدراك هذه الشعوب والأمم لقوميتها.ومن هنا يكمن تفسير الخط البياني لصعود الأمم وانحدارها، لحريتها وعبوديتها.من هنا يمكن تفسير خروج العرب من الأندلس، وتفسير سيطرة الأجانب على الأمة العربية وما تلا ذلك من أحداث. وهذا ما سنتطرق له فيما بعد.لقد كانت فترة التاريخ العربي القديم بما تضمنتها من أحداث ووقائع العامل الأول والرئيسي لما وصل إليه العرب في العهد الحديث.

ومن خلال ما تقدم نستطيع أن نحدد ملامح التاريخ العربي القديم هذا بما يلي:

أولاً : مر هذا التاريخ بفترتين رئيسيتين، الأولى فترة قصيرة خاطفة، وهي فترة الرخاء والتقدم والوحدة، وقد امتدت من عصر الخلفاء الراشدين وحتى منتصف العصر العباسي أو عهد المعتصم. وهذه الفترة لم تكن فترة ذهبية للعرب إلا بالقوة وتحت وطأة السيف باستثناء فترة الرسول (ص) والخلفاء الراشدين. وقد كانت هذه الفترة مليئة بالثورات الدينية والخلافات الطائفية. أي أن الفترة الذهبية تلك لم تكن من الذهب الخالص.

الفترة الثانية : هي فترة الانحطاط والتردي. وهذه الفترة تمتد عملياً من ولاية المعتصم إلى نهاية الاحتلال العثماني. ولكن بذورها تعود إلى أواخر العصر الراشدي، أي أنها كانت موجودة إلى جانب الفترة الذهبية، ولكن حزم الأمويين والعباسيين قد خفف منها كثيراً، وإن لم يستطع إلغائها نهائياً.

ثانياً: يتميز هذا التاريخ بأن أحداثه جميعها كانت تتمحور حول الدين، أي أن الدين كان السبب الرئيسي فيها. فقيام دولة بني أمية كانت بسبب الدين، والثورات والحروب في عهد بني أمية كانت كلها ثورات دينية، وقيام دولة العباسيين كان بسبب الدين والغزو الأجنبي الخارجي كان بسبب الدين، وجميع الأحداث في الأندلس كانت ذات طابع ديني، ليس هذا فقط بل حتى أن جميع الأحداث السياسية كانت لها واجهة دينية تغطيها.وهذا الاقتباس الديني كان يتم في أية مناسبة ولأي غرض. أي أن الدين كان يخضع للسياسة بشكل مباشر .

ثالثاَ : يتميز هذا التاريخ أيضاً بأن جميع الأحداث والوقائع التي جرت فيه، كانت من صنع العرب أنفسهم، ولا دخل لغيرهم فيها، حتى الأحداث التي لم تكن ذات طابع عربي، كالغزوات التي تعرضت لها الأمة العربية، كانت أسبابها عربية ، سواء بشكل مباشر أم غير مباشر.ولهذا فإن ما حصل للعرب هو من العرب، والعرب هم الذين كانوا السبب في جلب المصائب لأنفسهم، وهذا ما يلاحظ جلياً من الأحداث التاريخية التي حصلت في تلك الفترة.

رابعاً : من صفات هذا التاريخ أيضاً، انتقاء صفة القومية العربية لدى الإنسان العربي وعدم شعوره بها، وبالحس القومي وبالرابطة القومية التي تجمع العرب فيما بينهم، ويتجلى ذلك أيضاً من خلال الأحداث التاريخية نفسها المذكورة سابقاً، والتي جرت في تلك الفترة.

هذه الأسباب كلها أدت إلى الخراب. ويكفي واحد منها أن يكون موجوداً في أمة ما، حتى يدمر كيانها ويقضي على مكونات وجودها، ويقوضها من أساسها فكيف إذاً اجتمعت كل هذه الأسباب في تلك الأمة، لا شك أن انهيارها سيكون أسرع من التصور.

فالخلاف الديني والطائفي، وعملية ربط الدين مع السياسة، هو أكبر عامل لتخلف الأمة أو المجتمع، وهو وحده كفيل بتدمير كل ما هو حضاري فيها. فنحن نرى أن أوروبة التي هي الآن متقدمة وحضارية بكل ما في الكلمة من معنى، كانت في العصور الوسطى وما قبلها عبارة عن مجتمعات متخلفة لأنها كانت خاضعة لحكم ديني بحت خاضع للسياسة، حيث كانت الكنيسة هي نفسها التي تقوم بالدور السياسي، وكانت سلطتها هي السلطة العليا التي تحكم أوروبة، في هذه الفترة لم يكن أي شيء يوجد، يدل على الحضارة والعلم بل كان الظلام والجهل هما المسيطرين على الإنسان الأوروبي. لقد كان المجتمع الأوروبي عبارة عن قبائل ومجتمعات متخلفة ومقسمة دينياً ولا تعرف شيئاً سوى الغزو والقتال، تعيش في ظل المجتمع الإقطاعي تحت سيطرة سلطة الكنيسة في روما. كل هذا عندما كانت أوروبة ذات طابع ديني.وأوربة لم تتقدم وتتجه في طريق العلم والتحضر، إلا عندما قامت بالإصلاح الديني وفصلت الدين عن السياسة وأقامت الثورة الصناعية على المجتمع الإقطاعي، حينذاك بدأت النهضة الأوروبية والحضارة الغربية التي سادت العالم إلى الآن.

قد يقال أن تقدم الغرب ما هو إلا نتيجة اطلاعه واحتكاكه مع الحضارة العربية أثناء الغزوات الصليبية للوطن العربي وأثناء الاحتكاك بين أوروبة والعالم العربي في فترة العصور الوسطى، وفي فترة وجود العرب في الأندلس.

هذا الكلام صحيح ولكن بشكل جزئي. صحيح أن الغرب قد استفاد من الحضارة العربية والعلوم العربية، من رياضيات وطب وفلسفة وفلك وغيرها، وهذه العلوم التي نقلها الغرب إليه قد ساعدت على النهضة الأوروبية، وكانت عاملاً من عوامل التطور والتغيير في تاريخ أوروبة ومسار تقدمها.

ولكن التغيير لم يكن ليتم لولا الإصلاح الديني الذي قام في أوروبة وتجلى في عملية فصل سلطات الكنيسة في روما عن سلطات الدولة، أي فصل الدين عن السياسة أي بمعنى أدق وأوضح، أن هذه العلوم العربية التي أخذتها أوروبة عن العرب لم تكن لتؤدي دورها لو أن أوروبة بقيت تحت سلطة

الكنيسة[1] وهذا أمر طبيعي. ونستدل على ذلك من أمرين، الأول وهو أن العرب كانوا هم أولى من الغرب في التقدم والحضارة، أي المفترض أنهم هم الذين يجب أن يستمروا في طريق التقدم والازدهار، بدلاً من الغرب لأنهم كانوا هم مصدر العلم الذي اعتمد الغرب عليه لإنشاء حضارته وذلك بناء على تلك المقولة.

الأمر الثاني هو احتكاك العالم العربي المتخلف بالعالم الغربي المتقدم، أثناء الاستعمار الأوروبي الذي بدأ بحملة نابليون على مصر فيما بعد. ففي تلك الفترة كان العالم العربي في حالة من التخلف والجمود الكبيرين ويعيش في ظلام دامس، وفي ظل نظام ديني قائم برمته على الدين، تحت حكم السلطان العثماني، فجاءت الحملة الفرنسية وأزاحت هذا النظام وأشعلت الأضواء في ذلك الظلام، بالرغم من كونها استعمار، فتدفقت العلوم والمعارف والأفكار الجديدة على العالم العربي الذي عرف ولأول مرة الحضارة الغربية فحصلت النهضة من جراء هذا الاستعمار وبعد ذلك عن طريق محمد علي باشا. ولكن هذه النهضة أخفقت، ورجع العالم العربي مرة أخرى إلى العصور الماضية فلماذا ؟.

لماذا عندما احتكت أوروبة المتخلفة بالعالم العربي المتقدم أثناء الحروب الصليبية وأثناء الوجود العربي في الأندلس، فتقدمت بعد ذلك وتطورت، ولماذا عندما احتك العالم العربي المتخلف بأوروبا المتقدمة أثناء الحملات الاستعمارية الأوروبية في القرن الثامن عشر بقي على ما هو عليه ؟ .

لو أن التقدم هو في الاحتكاك بحضارة الغير لكان العرب الآن من الدول المتقدمة ما دام قد احتكوا بحضارة الغرب أثناء استعمارهم للوطن العربي وما بعد. إذاً السبب ليس كذلك. السبب هو أن العالم العربي لم يقم بالإصلاح الديني وبقي الدين مرتبطاً بالسياسة حتى يومنا هذا. وبقيت تلك الخلافات والطائفية هنا يكمن سر تخلفنا حتى الآن، وطالما نحن باقون على هذه الحالة فكل احتكاكات الأمم الأخرى معنا لن تجدي نفعاً.

---

[1] تاريخ الوقائع و الأفكار الاقتصادية .

باختصار هذا هو التاريخ العربي القديم، ومن خلال ما تقدم يمكن ملاحظة كيف كان وضع العرب، وكيفية حصول الأحداث التاريخية على أرضهم.

العرب حديثاً

إن التاريخ العربي الحديث يبدأ عملياً منذ القرن الثامن عشر، وبالتحديد منذ بداية الاستعمار الأوروبي للوطن العربي والذي بدأ بالحملة الفرنسية على مصر بقيادة نابليون بونابرت. فأوروبة التي كانت فيما مضى تعيش عصر الظلام والركود، قد بدأت تتحول من عصر الإقطاع إلى عصر الصناعة والاختراع، وكان بالدرجة الأولى بسبب العلاقات الاقتصادية الجديدة والتي أتت برأس المال كمفهوم اقتصادي جديد، وألغت الزراعة كاقتصاد وطني[1] .

أوروبة التي قدر لها أن تفلت من العثمانيين، بدأت في القرن السادس عشر بتغيرات اجتاحتها، تجلت بثورات عامة قامت بها البرجوازية الصناعية التي كانت من الطبقة الوسطى، ضد الإقطاع الزراعي وسلطة الكنيسة الدينية. لقد كان القرن السادس عشر فترة تحول بالنسبة لأوروبة، وفترة تحول أيضاً بالنسبة للوطن العربي. ففي الوقت الذي رأت فيه أوروبة نور الثورة الصناعية، ابتلى العرب بأكبر مصيبة ألمت بهم وهي الاحتلال العثماني للوطن العربي والذي دام أربعة قرون.

بدأت التغييرات في أوروبا بالدين، فدور الكنيسة المتمثل بالوصاية والسلطة قد ألغي، وانتقل من الدور الأول إلى الدور الثاني في الحياة الاجتماعية للأنسان الأوروبي، وهذا لإلغاء ما كان ليتم لولا القوة والثورات الفكرية والاجتماعية التي قام بها مفكرون دينيون كمارتن لوثر، واعتبروا فيها أن سلطة الكنيسة في روما تعيق التقدم ويجب فصلها عن الأمور السياسية نهائياً. ومن هنا بدأت النهضة الأوروبية بالاختراعات والإنجازات، ومع تراكم رأس المال وظهور النظام الرأسمالي بشكله النهائي كنظام

---

[1] تاريخ الوقائع و الأفكار الاقتصادية

اقتصادي يعتمد الصناعة كاقتصاد وطني بالدرجة الأولى. كان لا بد من إيجاد سوق للتصريف ومواد أولية، وهذا الذي أدى إلى بداية نشوء الاستعمار الأوروبي للوطن العربي.

وطبعاً إن الاحتلال الأوروبي ليس جديداً على الأمة العربية، فقد سبق لأوروبة أن احتلت الوطن العربي أو أجزاء منه أيام الغزو الصليبي.أما الآن فقد تدخلت أوروبة من جديد وبقوة أكثر وأحدث من ذي قبل ، وأول من بدأ الاستعمار الأوروبي للأرض العربية كما ذكرنا هي فرنسة التي احتلت مصر عام /١٧٩٨/ أي في منتصف فترة الاحتلال العثماني.

لقد كان الاحتلال الفرنسي على شكل حملة بحرية بقيادة نابليون بونابرت، تقدمت فاحتلت ميناء أبي قير المصري[١] . وكان يحكم مصر في تلك الفترة المماليك التابعون للعثمانيين. فنشبت معركة قصيرة خاطفة بين الفرنسيين والمماليك، نتج عنها هزيمة المماليك ذوي الأسلحة البدائية، وهروبهم من وجه الفرنسيين.أما الدولة العثمانية الحامية والوصية على العرب وعلى الدين الإسلامي، فلم تنبس بشفة ولزمت الصمت.

إنهم لم يحاربوا الفرنسيين ولم يكلفوا أنفسهم عناء الجدال معهم، بل سلموهم مصر وهربوا مع مماليكهم، وكأن الأمر لا يعنيهم. طبعاً هم تضايقوا من هذا الغريب الذي جاء ليعكر لهم صفوة حكمهم ولكن كما يقال (ما باليد حيلة)، لقد كانت الحملة الفرنسية على مصر بمثابة نقطة تحول في التاريخ العربي، فلقد بدأ العرب يحسون بأنهم ليسوا وحدهم في هذا العالم، وبأن هناك قوى أخرى غير القوة العثمانية تحكم العالم من حولهم. فقد كانت الحملة الفرنسية أول اتصال للمجتمع العربي المتخلف مع الحضارة الأوروبية المتقدمة، فالفرنسيون جلبوا معهم الأفكار العلمية والثورية، (وكانوا قد قاموا بالثورة ضد النظام الملكي لديهم وأسقطوه ليقيموا فيما بعد النظام الجمهوري)، كما جلب الفرنسيون معهم أيضاً المطابع والمكاتب والكتب العلمية، وعدداً من العلماء والمثقفين، وقاموا بإنشاء المدارس دور

---

[١] تاريخ المشرق العربي .

العلم، وبعد فترة وجيزة قاموا بإصدار الصحف، وشهدت هذه الفترة أيضاً نتيجة لذلك تطور علوم الرياضيات والطب والموسيقى. وقد أتاح هذا الشيء لسكان مصر أن ينتبهوا إلى واقعهم الذي هم فيه[1] .

بعد ذلك توجه نابليون إلى فلسطين وبلاد الشام، وأخذ يفتح المدن، وقد استعصت عليه بعضها كمدينة عكا. و دام حكم الفرنسيين لمصر خمس سنوات ولما خرجوا منها أتى بعدهم محمد علي باشا الذي كان في الأصل في فرقة البانية أرسلها العثمانيون لقتال الفرنسيين. وعندما تسلم قيادة هذه الفرقة بعد مقتل قائدها، عمل على تقوية نفوذه حيث كان الفرنسيون قد خرجوا من مصر من تلقاء أنفسهم ورغبتهم، وليس نتيجة ضغط أو قوة. وأدى هذا إلى استلام محمد علي السلطة في مصر، ويمكن القول أن ظاهرة محمد علي في مصر كانت عاملاً هاماً من عوامل التفتح في مصر، وأول مسمار يدق في نعش وجود سيطرة الدولة العثمانية على الوطن العربي، حيث أخذ محمد علي باشا يعمل على تقوية دولته، فقام بتأسيس جيش قوي مدرب على فنون القتال الحديثة، كما عمل على تصفية المماليك حيث أوقع بهم في مجزرة كبيرة. وبدأ بإرسال البعثات إلى أوروبة، كما قام بإنشاء عدد كبير من المدارس والمصانع، وعمل على استقدام العلماء والخبراء الأجانب إلى مصر.لقد كانت هذه الفترة الشمعة الصغيرة التي تضيء في فراغ مظلم. ويتميز التاريخ العربي الحديث بحدوث تغيرات جذرية، قوية وسريعة في الحياة العربية والوضع العربي بالنسبة للماضي، سواء على الصعيد الاجتماعي أو السياسي أو الثقافي والحضاري أو حتى القومي. وهذه التغيرات الديناميكية كانت من القوة بحيث أنها غيرت معالم التاريخ العربي القديم بشكل كبير وأفرزت بدلاً منها معالم أخرى جديدة لم تكن معروفة في حياة العرب من قبل ولم يسمعوا بها أو يتخيلوها، بل حتى لم يكن لها وجود في قاموسهم.

---

[1] المصدر السابق .

إن الفترة القديمة تميزت بالسكون والظلام والتقوقع . لكن الفترة الحديثة تميزت بالحركة والثورة والانفتاح . وأهم عامل من العوامل التي شكلت التاريخ العربي الحديث أو كانت محور الأحداث فيه هو الاستعمار الأوروبي، الذي يختلف كل الاختلاف عن إخوانه السابقين. أما الميزات الجديدة التي اكتسى بها التاريخ العربي الحديث، فقد تمثلت أولاً بما يعرف بالنهضة العربية أو الإصلاح، وقد كان عناصرها بالدرجة الأولى هم من المفكرين العرب الذين احتكوا بالحضارة الأوروبية.

والميزة الثانية للتاريخ الحديث هي ظهور أنظمة سياسية عربية جديدة تختلف تمام الاختلاف عن سابقتها، وأهم من هذه كله ظهرت هناك الحدود السياسية ولأول مرة في التاريخ العربي وظهرت معها الجنسيات العربية الرسمية.

في الماضي كان هناك إمارات عربية منفصلة سياسياً عن بعضها، وبالتالي لها حدود فيما بينها، ولكن هذه الحدود كانت حدوداً طبيعية وهمية أي لم تكن حدوداً فيما بينها، ولكن هذه الحدود كانت حدوداً وجوازات سفر.وظهرت أيضاً الجنسيات العربية السياسية إلى جانب الجنسيات الدينية التي كانت في التاريخ السابق، فظهرت الجنسية المصرية والسورية والجزائرية إلى ما هنالك من سائر الجنسيات العربية. أما الميزة الثالثة فهي ظهور القومية العربية ولأول مرة بالمعنى الحقيقي المجرد من أية معاني أخرى وأدى هذا إلى ظهور الأحزاب القومية العربية، وظهور نوع من الوعي القومي العربي، وفكرة الدعوة إلى الوحدة العربية وإعادة بناء الأمة العربية الواحدة.

إن التاريخ العربي الحديث قد يبدو للوهلة أنه أفضل من القديم، أو أن تلك التغيرات الجذرية التاريخية التي حصلت للعرب قد ساهمت في تحسين الوضع العربي، ودفع الحياة العربية ومعيشة الإنسان العربي نحو وضع أفضل لكن نستطيع القول، إن شيئاً من هذا لم يحدث، إن العرب بشكل عام ومنذ ظهورهم وبدايتهم عبر الأزمنة السحيقة الغابرة وحتى الآن، لم تحصل لهم تبدلات جذرية سوى مرتين، المرة الأولى عندما جاءهم الإسلام فغير طبيعة حياتهم، والمرة الثانية عندما جاءتهم الثورة

الصناعية الأوروبية مع الاستعمار الأوروبي، بكافة نواحيها السياسية والاجتماعية والدينية، فعدلت مرة أخرى في حياتهم.إذن فالحياة العربية التاريخية تغيرت أو تعدلت مرتين فقط. ولكن في كلا التغيرين حافظ العرب على سيئاتهم، بل وطوروها وعدلوها بما يتلاءم مع تلك التغيرات.

فعندما جاءتهم الحضارة الأوروبية وجلبت لهم منجزات الثورة الصناعية من علم وتقدم وحضارة، والتي كان من شأنها أن تجعلهم يعون هذا الواقع الذي كانوا فيه، طوروها هي الأخرى أيضاً بما ينسجم وتصرفاتهم، فاستخدموا منجزات العلم أسوأ استخدام وضد بعضهم البعض، وبما يخدم ضعفهم ويشجع غيرهم عليهم، فأضافوا إلى الجنسيات الدينية الجنسيات السياسية.

وكما أن التاريخ العربي القديم مر بفترة ذهبية مخلوطة بالتوترات والمشاكل الداخلية والتي لم تكن ظاهرة للعيان بهذا الشكل الواضح، فإن التاريخ العربي الحديث أيضاً ابتدأ بفترة ذهبية مشابهة لأختها الأولى من حيث الشكل والمضمون، فكانت هي الأخرى ملغومة بالأخطاء القاتلة. تماماً كما سار العرب في الفترة الأولى ساروا كذلك في الفترة الحديثة.

وفي الواقع وبدون مبالغة يمكن أن نشير إلى أن العرب لو استغلوا تلك الفترتين لكان وضعهم غير ما هو عليه الآن، لأن هذا ما يسمى بفترة التحول أو المفترق والخيار، حيث يكون مفترق الطرق، وما يسمى أيضاً بالسلاح ذي الحدين. هنا في هذه الفترة الحديثة مرت تقريباً نفس الفرصة الذهبية على العرب ولكنهم أخطؤوها مرة ثانية، وهذه الفترة أو الفرصة الذهبية كانت على شكل الانفتاح أو ما يسمى بالنهضة العربية.

وبعد أن حصل هذا الاحتكاك المفاجئ للعرب مع الحضارة الغربية، وبعد ظهور تلك التغييرات الداخلية للوطن العربي، بدأت تظهر ردات فعل تجلت بالحركات الدينية المناهضة لمظاهر التخلف، والحركات السياسية المناهضة للاستعمار العثماني، خاصة وبعد أن تعرضت المنطقة العربية كلها للاستعمار الأوروبي، حيث احتلت فرنسة الجزائر وتونس وسورية، واحتلت بريطانيا مصر والأردن واليمن والعراق، وإضافة

إلى الحركات الدينية، فقد برز أيضاً مفكرون ومصلحون دينيون حاولوا طرح أفكار دينية جديدة تتلاءم مع الحالة الراهنة، وأبرز هؤلاء المفكرين وغيرهم الشيخ جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبدو في مصر والشيخ طاهر الجزائري في سورية وغيرهم، وجميعهم حاولوا طرح أفكار دينية جديدة، الغاية منها التجديد في الفقه الإسلامي وصقل الأفكار والتعاليم الإسلامية لتواكب العصر الجديد.وإلى جانب المصلحين الدينين كان هناك أيضاً مفكرون وسياسيون، أي كان هناك نهضة قومية.

قلنا إن القومية العربية لم تكن معروفة للإنسان العربي في الفترات السابقة، ولكنها لم تكن غير موجودة، أنها كانت موجودة ولكن بشكل باطني غير ظاهر موجودة بالا شعور. وعندما أتت الأفكار العلمية الحديثة، ظهرت القومية آنئذ وبشكل واضح وجلي. وبشكل عام فإن القومية بمعناها العلمي الصريح، لم تظهر عند الشعوب والمجتمعات البشرية إلا في منتصف القرن السادس عشر، وفي أوروبة حين تشكلت الدول الأوروبية على أنقاض الكنيسة والانقطاع الزراعي، حيث بدأت النظريات القومية بالظهور.

وبطبيعة الحال فقد اصطدم كل من المصلحين الدينيين والسياسيين بالحكومة العثمانية، وشيئاً فشيئاً وأمام تلك التغيرات والأفكار العلمية الوافدة، بدأت من جديد عملية فرز اجتماعية وسياسية في الوطن العربي، وظهر العثمانيون أمام العرب، أناساً غرباءً ضعافاً، لا يهمهم العرب ولا المصلحة العربية، بقدر ما يهمهم الحكم والسلطة، وبدا أن جميع المشاكل والمصائب هي بسببهم. وهذا الشعور ظهر بعد أن رأى العرب كيف أن الدول الأوروبية تضع يدها على الأراضي العربية، وكيف أن العثمانيين لا يجرؤون حتى على الكلام، بالإضافة إلى الدول الأوروبية الاستعمارية قد جرأت العرب على الثورة ضد العثمانيين، ونتيجة لكل تلك الأمور ظهرت الجمعيات السرية كجمعية النهضة العربية التي ظهرت في دمشق، وجمعية المنتدى الأدبي في الأستانة، والجمعية القحطانية والجمعية العربية الفتاة.

ولكن وكما يقال فإن لكل شيء ثمناً، والعرب دفعوا ثمن الحضارة التي وفدت إليهم من أوروبة التي عادت لتستعمرهم من جديد عن طريق الانتداب والوصاية. وكما انفرز العرب بعد الإسلام إلى مجموعات سياسية ودينية متناحرة، انفرزوا هنا أيضاً إلى مجموعات دينية وسياسية، كما ظهرت أيضاً اتجاهات دينية وسياسية امتد بعضها إلى الآن. وظهور الاتجاهات السياسية والدينية أو الدينية السياسية، كان نتيجة هذا الانفتاح الذي جلبه الاستعمار الأوروبي للوطن العربي. وكما ذكرنا فإن تبلور الفكر السياسي العربي الحديث ارتبط بالقومية العربية بمعناها الشامل، وبتحديث الوضع العربي. كما ارتبط الفكر الديني بالسياسة العربية الحديثة والقديمة وبالمتغيرات الحاصلة آنذاك. و الاتجاهات الرئيسية التي ظهرت بعد هذه الفترة هي الاتجاهات الدينية بشقيها المعتدل والمتطرف، والمسيّس والغير مسيّس، وبالغالب كان معظمها مسّيساً.والاتجاهات السياسية بشقيها القومي والرجعي والمعتدل والعفوي.وتجدر الإشارة هنا إلى أن الاتجاهات الدينية والسياسية لم تكن مفصولة عن بعضها في بعض الأحيان. وبكل بساطة فإن معظم هذه الاتجاهات كانت هي التطوير الذي ابتدعه العرب لسلبياتهم في الفترة الماضية لكي تتلاءم والتغيير الحاصل الآن، فقط باستثناء الاتجاهات السياسية القومية والقومية العفوية والاتجاهات الدينية المعتدلة. وهذا ما يلاحظ جلياً في الوقت الراهن من خلال تصارع تلك الاتجاهات في ما بينها تماماً كما في الماضي، وكما لعبت الاتجاهات القديمة الدور الرئيسي في تدمير الأمة العربية، ستلعب تلك الاتجاهات الجديدة دوراً أكبر وستكون خير خلف لخير سلف.

إن الجدلية التاريخية للوطن العربي يمكن أن يستشف من خلالها كيفية مسيرة العرب التاريخية سواء في الماضي أو الحاضر وربما في المستقبل أيضاً. ومن خلال هذه الجدلية والتي هي أيضاً عبارة رؤيا تاريخية للأحداث العربية، يلاحظ أنه بعد كل تغيير جذري من تلك التغييرات التي ألمت بالعرب خلال تاريخهم كان العرب يعيشون حالة مأساوية، أي ينتقلون إلى وضع سيء، ليس لأن طبيعة تلك التغيرات سيئة بل لأنهم هم من أخطأ التعامل معها ، ومعروف أن تلك التغييرات هي إيجابية، فبعد الإسلام وهو التغيير الإيجابي الأول، انقسم العرب مباشرة وتذابحوا فيما بينهم، وبعد الاحتكاك الأوروبي – العربي،

وانفتاح العرب على الحضارة الأوروبية، اختلف العرب فيما بينهم، وطور العرب سلبياتهم بما يتماشى مع ذلك، وهذا ما يلاحظ جلياً بعد النهضة العربية والتخلص من الاحتلال العثماني .

لقد تركز الانحطاط العربي والجانب السلبي في التاريخ العربي بناحتين رئيسيتين هما الدين والسياسة، أي أن تاريخ العرب كله كان مرتبطاً بهذين المفهومين، والتاريخ العربي الحديث، والأحداث العربية، والوضع العربي الحالي، كل ذلك مرتبط أيضاً بهذين المفهومين، ولذلك سنقسم عند بحثنا الوضع العربي الحديث، مواضيع البحث إلى قسمين، قسم السياسة وقسم الدين .

ويتطرق القسم الأول إلى علاقة العرب بالسياسة الحديثة ومدى تأثيرها بهم وتأثرهم بها، وعلاقتها بوضعهم الحالي وعلاقتها بالدين. أما القسم الثاني فيبحث بعلاقة العرب بالإسلام وكيفية تعاملهم معه ومدى علاقة الإسلام بوضعهم الحالي وبالسياسة.في الحقيقة إن كلا المفهومين خلال التاريخ العربي السالف، كانا مرتبطين تمام الارتباط ببعضهما، ولا يزالان حتى الآن مرتبطين، ونحن عندما نقسمهما إلى بحثين فذلك أولاً لأن كل منهما كان له دوراً مختلفاً عن الأخر في حياة الإنسان العربي. وثانياً لأن هذين المفهومين هما مختلفان أصلاً عن بعضهما البعض منطقياً وعملياً، ولا يخضعان لقواسم مشتركة فيما بينهما.

العرب والسياسة

بعد الاحتلال الأوروبي الشامل والرسمي للأرض العربية، الذي أتى أثر اتفاقية "سايكس بيكو" بين إنكلترا وفرنسة، وذلك بعد الثورة العربية الكبرى. بدأت فترة سياسية جديدة في الوطن العربي. وبطبيعة الحال لم تكن تلك الفترة السياسية الجديدة مواتية للعرب من الناحية القومية والوطنية، أما من الناحية الأخرى المعاكسة، فقد كانت ملائمة ومناسبة جداً لهم، فقد انتقل العرب من استعمار إلى استعمار، انتقلوا من الاستعمار البدائي المتخلف إلى الاستعمار المتقدم والمتطور، وشهدت الفترة منذ منتصف القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، سقوط الأمة العربية بجميع أقطارها الواحد تلو الآخر بيد الاستعمار الأوروبي .

ومع تبلور مفهوم السياسة في القرن الماضي والحاضر تبلورت الأخطاء السياسية للعرب وتماشت مع التطور السياسي بشكل عام ، وتراكمت تلك الأخطاء الفادحة وتكاثرت بالرغم من جميع الأخطار والنتائج التي جاءت عنها. فمع تخلص العرب من الاستعمار العثماني الأسود وما رافقه من تدهور وانحطاط وتخلف في الوطن العربي ككل، وقع العرب قبضة استعمار آخر ذكي متطور وقوي ، يملك أشياء لا يملكها العرب ولا حتى الاستعمار العثماني. وبعد الاحتكاك العربي بأوروبة والاطلاع على الثقافة والتراث الأوروبي عن طريق البعثات العلمية، ظهرت فكرة القومية العربية والوحدة العربية بشكلها المجرد الواضح بعدما كانت غير واضحة المعالم في الماضي، وكان العرب لا يدركون معنى القومية، بل يحسون بها إحساساً غير ملموس. كانوا يرونها خيالا لا يستطيعون تميزه، شيئاً غير معروف، ثم اختفى هذا الخيال بعد مجيء العثمانيين.

إن ظهور القومية العربة بمعناها المجرد ليس سبباً كافياً لتحويل المسار العربي وتصحيح الانحرافات والأخطاء، ولكن ومع هذا بدأ الشعور القومي يفعل فعله، وبدأت تظهر بوادر قومية تنادي بالتخلص من ربقة الاستعمار العثماني، وكانت هذه أول بداية قومية للعرب، وكما ذكرنا تجلت هذه الظاهرة فيما تجلت بالجمعيات السياسية التي أخذت تندد بالاستعمار العثماني وتطالب بانفصال وتحرير الأراضي العربية من ربقة السيطرة العثمانية، ولأول مرة أخذت هذه الجمعيات تطرح القضية العربية بشكل قومي وجدي وتنبه إلى الأخطار المحدقة بالعرب وتدعوا إلى اليقظة العربية[1] ، حيث يقول الشاعر إبراهيم اليازجي وهو أحد أعضاء الجمعية العلمية السورية التي كانت إحدى تلك الجمعيات السياسية:

تنبهوا واستفيقوا أيها العرب فقد طمى الخطب حتى غاصت الركب

كم تظلمون ولستم تشتكون وكم تغضبون ولا يبدو لكم غضب

فيما لقومي وما قومي سوى عرب ولن يضيع فيهم ذلك النسب .

من هذه الأبيات نلاحظ مدى تطور الوعي القومي العربي آنذاك، ومدى تسارع تطور هذا الوعي، ونلاحظ أيضاً أنه في هذه الفترة كانت هناك دعوات قومية تدعو العرب باسمهم وتنبههم إلى المخاطر المحيطة بهم وتبين وضعهم المهين أمام العثمانيين.

وتوالى ظهور الجمعيات العربية القومية، فكان منها جمعية المنتدى الأدبي والجمعية القحطانية والجمعية العربية الفتاة، وبدأت هذه الجمعيات تعمل على إسقاط الحكومة والسلطة العثمانية، سواء بشكل علني أو سري ، و تسارعت الأحداث بعد ذلك وازدادت الدعوة القومية، وعقدت المؤتمرات السياسية التي تطالب بالانفصال عن الدولة العثمانية حيث أخذت فكرة القومية العربية تأخذ طابعاً ثورياً، ومع ازدياد الوعي السياسي وازدياد الدعوة للانفصال، ازداد العثمانيون عنفاً وقساوة وأخذوا

[1] تاريخ المشرق العربي ، الفصل الثامن .

يبطشون بالقوميين العرب، وأقدموا على إعدام مجموعة من المناضلين القوميين عام /١٩١٦/ ، مما أدى إلى قيام الثورة العربية الكبرى، وقامت الجيوش العربية بمساندة الغرب، بإسقاط الحكم العثماني على الأمة العربية، ونزع نير قدر له أن يرزح فوق رقاب العرب أربعمائة سنة. وبلغت القومية في تلك الفترة أوجها، ويكفينا أن نقرأ تلك الأبيات للشاعر فؤاد الخطيب لنعرف مقدار الوعي السياسي العربي حيث يقول واصفاً ثورة العرب الكبرى على العثمانيين :

الله أكبر تلك أمة يعرب نفرت من الأغوار والأنجاد

ومشت تدك البغي مشية واثق بالله والتاريخ والأجداد

والحقيقة يمكن القول أن أفضل فترة قومية في تلك المرحلة كانت هي هذه الفترة التي قامت بها الثورة الكبرى. ولكن هذا الوعي القومي الوليد، كان يتوسع بشكل عمودي وليس أفقي، أي أنه لم يكن وعياً شاملاً لكل أبناء الوطن العربي، بل كان مقتصراً على فئة معينة هي فئة المثقفين والوطنيين وبعض رجال الدين.

بدأت الثورة العربية في الحجاز، وشملت كل الهلال الخصيب، وقد تزعم أحد الوجهاء في الحجاز، وهو الشريف حسين، وهو من الأسرة الهاشمية في الحجاز، قيادة الحركة التي قامت بالثورة ضد العثمانيين[1] . ولم يكن الشريف حسين ليفلح في قيادة الثورة والانتصار على العثمانيين لولا مساعدة الإنكليز والفرنسيين له (وبالذات الإنكليز). وبعد الانتصار تطلع الشريف حسين إلى دولة عربية تحت زعامته، ولكنه اصطدم هذه المرة بحلفائه الغربيين، فالإنكليز والفرنسيون كانت لهم مصالح في البلاد العربية، وهم لم يساعدوا العرب ضد العثمانيين إكراماً لعروبتهم فقط، بل كانوا يريدون أكثر من هذا بكثير. وأمام هذا الواقع المفروض لم يستطع الشريف حسين أن يقف في وجه حلفائه الأوروبيين،

[1] الثورة العربية – الصراع على سورية .

فاضطر إلى اللجوء إلى حل بديل، وهو اقتسام النفوذ بينه وبين الحلفاء، وتم وضع مخطط يحكم فيه أولاده الحسين وهم علي وعبد الله وفيصل على الترتيب كلا من الحجاز والعراق وسورية[1] .

وبعد الانتصار على العثمانيين أعلن فيصل نفسه ملكاً سورية، واستلم الشريف حسين زمام الحكم في الحجاز وولي عهده أصبح ابنه علي، وتأجل استلام عبد الله للعراق بسبب بعض الخلافات مع الإنكليز، ولكن الاستعمار الأوروبي الذي كان قد احتل بلاد المغرب العربي ومصر، كان ينظر أيضاً إلى بلاد الشام والعراق، ولذلك فقد عقدت كل من فرنسا وإنكلترا اتفاقية " سايكس بيكو" لاقتسام باقي الأرض العربية حيث نصت هذه الاتفاقية على احتلال فرنسة لسورية، وبريطانيا لفلسطين و العراق، على أن تقام في هذه البلدان حكومات عربية تابعة لهم .

وقد اتخذ الاستعمار الأوروبي شكل الوصاية أو الانتداب ، وذلك بما معناه على حد زعم الدول الأوروبية، أن الأمة العربية التي خرجت من ربقة السيطرة للاحتلال العثماني، هي بحاجة لدول أخرى تساعدها وتأخذ بيدها للنهوض بها من أثار التخلف التي تركها الاستعمار العثماني.وللأسف كان هذا الكلام صحيحاً فقط من الناحية النظرية، أما من الناحية العملية فإنه كان مختلطاً مع الأوروبية للبلاد العربية المتخلفة.وفي /٢٤/ تموز عام /١٩٢٠/ وجه الجنرال الفرنسي غورو إنذاراً إلى الملك فيصل بترك الحكم في سورية، أعقبه احتلال الفرنسي لسوريا ومغادرة الملك فيصل لها، وذلك بعد معركة مع الجيش الفرنسي في ميسلون بقيادة يوسف العظمة الذي استشهد أثناء المعركة .

وبدعم من بريطانية توج الملك فيصل ملكاً على العراق مما أثار غضب الأمير عبد الله، فأخذ يعمل لاستعادة عرشه، ولهذا فقد قام بجمع عدد من أتباعه وحاول الزحف على سورية لمحاربة الفرنسيين، وبموافقة بريطانية تم إعطاؤه قسماً من الحجاز يمتد من نهر الأردن[2] .

---

[1] المصادر السابقة .

[2] المصادر السابقة .

وكانت موافقة بريطانية على إعطاء الأمير عبد الله بعض الأراضي، ضمن شروط وهي أن يعترف الأمير عبد الله بالانتداب الفرنسي والإنكليزي ويتخلى عن محاربة الفرنسيين أي أن يرضخ للأمر الواقع.وقد قبل الأمير عبد الله بهذه الشروط. ولكن مع هذا ظل ناقماً على أخيه فيصل الذي اعتلى عرش العراق بدلاً منه ويحاول استعادة عرش سورية والعراق. ولهذا بدأت المشاحنات والصراع على السلطة ينمو داخل الأسرة الهاشمية التي أخذت تفقد الزعامة القومية، وخاصة بعد أن ظهرت قضية جديدة ولأول مرة في تاريخ العرب كله، وهي قضية إقامة وطن قومي لليهود، وهذا بدوره أدى إلى أن تظهر حركات في نفس تلك المنطقة، تناهض الأسرة الهاشمية، كحركة ابن سعود واسمه عبد العزيز آل سعود الذي أسس المملكة العربية السعودية ووحد كافة القبائل المتنازعة في شبه الجزيرة العربية تحت سيطرته[1] . وانقسم بعد ذلك الوطن العربي إلى عدة كيانات سياسية بفعل اتفاقية "سايكس بيكو" وأصبح لكل كيان أو دولة حدود سياسية وحكومة خاصة بها. ففي سورية أصبح الفرنسيون هم المسيطرين عن طريق المندوب السامي، وكان من أهم أثار هذه السيطرة سلخ لبنان عن سوريا واعتباره دولة خاصة منفصلة، وكذلك العراق والأردن.

وأخذت تيارات المعارضة العربية تكبر أمام الملك فيصل وعبد الله، ونتج عن ذلك ثورات عديدة، كثورة رشيد عالي الكيلاني في العراق، وضم الملك عبد العزيز آل سعود الحجاز. واشتد العداء للهاشميين في العراق بعد ثورة رشيد عالي الكيلاني، وبعد وفاة الملك فيصل تم تعيين الأمير عبد الله بن علي ملك على العرش، وعندما تم طرده من قبل رجال الثورة عاد إلى العراق مدعوماً بحراب الإنكليز ،وقضيً على الثورة العراقية التي حازت على الدعم الشعبي والوطني في كل من العراق وسورية .

---

[1] المصادر السابقة – الدولة العربية الكبرى ص/٣٤٤/ - الخليج العربي .

واشتد التآمر على القضية العربية خاصة بعد بروز قضية فلسطين التي قدر لها أن تشغل بال العرب إلى اليوم وتكلفهم حروباً ودماء كثيرة، هذه القضية التي أخذت أبعادها تتسع يوماً بعد يوم، ووقف الحكام العرب آنذاك موقف المتخاذل منها. وإننا نستطيع القول أن أهم حدث سياسي تاريخي للعرب في القرن العشرين هو القضية الفلسطينية. وهذه القضية كانت بمثابة المحك أو الكاشف للزعماء العرب، منذ نشوئها وحتى الآن. وقد انتشرت أحداث القرن العشرين على كافة المناطق في الوطن العربي، وكانت منطقة الهلال الخصيب ومصر والسعودية من أكثر المناطق استقطاباً للأحداث السياسية العربية قياساً إلى المناطق العربية. ودول هذه المنطقة كانت تشهد مشاحنات وصراعات سياسية ودينية فيما بينها للسيطرة على العالم العربي، وأمام هذا الواقع تتكشف الصورة الحقيقية التي تبين الوضع العربي في بداية تلك الفترة.

الأمة العربية ممزقة إلى كيانات أو دول سياسية معظمها محتلة من قبل الاستعمار الأوروبي، المغرب تحتله فرنسا وليبيا تحتلها إيطاليا ومصر والسودان والأردن والعراق تحتلها إنكلترا وسورية تحتلها فرنسا، والحكام العرب في صراع ونزاع دائم.

إن الملك عبد الله الذي كانت له تطلعات في سورية والعراق وفي السعودية، أخذ يسعى إلى فرض سيطرته على تلك الدول في الوقت الذي كان له فيه علامات مع الإنكليز الذين جلبوا اليهود إلى فلسطين عن طريق وعد بلفور المعروف، وكان له نظرة بحق اليهود بإقامة وطن لهم حتى قبل أن يسيطروا هم بشكل كامل على فلسطين، وهذا ما أثار عداء كل من سورية ومصر والسعودية له[1] ، وبالذات سورية والسعودية لأن مصر كانت آنذاك خاضعة لسيطرة الإنكليز وحكم الملك فاروق، ومن هنا بدأت الخلافات، وكانت الجذور الأولى للمشاكل العربية في هذا القرن.

---

[1] الصراع على سورية .

في الماضي كانت الأحداث العربية كلها مرتبطة بحدث واحد لأنها كانت تصيب الأمة العربية بدون استثناء، فالاستعمار كان واحداً، وكان يشمل معظم المناطق العربية. أما الآن فالوضع أصبح مختلفاً عما كان عليه في الماضي، فالمستعمرون متعددون، فهناك إنكلترا وهناك فرنسا وهناك إيطالية، وكل دولة تحتل قسماً معيناً، وتجعل من هذا القسم دولة تابعة لها. ولذلك فالأحداث كانت متعددة في كل دول عربية على حدة، ولم يعد هناك حادث واحد، بل عدة حوادث مختلفة، وهذا ما حدا بالقضية العربية أو المشاكل العربية أن تكون هنا معقدة جداً ومتداخلة ومتشابكة بشكل يصعب فيه حتى تفسيره، فكيف إيجاد حل لها.

وفي أي مجتمع من المجتمعات أو بلد ما، عندما يكون هذا البلد خاضعاً للاحتلال فإن الوطنية والخيانة هنا ستكون دلالة لها معنى، فمنذ أن دخل الاستعمار الأوروبي الأرض العربية، حصلت عملية فرز للوطنية والخيانة، وبدأت وملامح الوطنية تظهر وملامح الخيانة والتآمر أيضاً، وبدأت عدة تيارات تشد أطراف الوطن العربي، فهناك الحكام ومعظمهم بشكل أو بأخر خاضع للاستعمار، وهناك بعض القوميين العفويين، وباقي أفراد وفئات الشعب. ومنذ دخول الاستعمار الأوروبي الأرض العربية، بدأت الثورات تقوم ضده في كل مكان، ولكن جميع هذه الثورات كانت تقمع بالحديد والنار، والحقيقة إن الجانب القومي أو الوطني والذي كانت تمثله فئة القوميين ومجمل فئات الشعب والأحزاب الوطنية القومية والتي تشكلت حديثاً، إذا ما قيس هذا الجانب القومي بالجانب الرجعي العميل والذي تمثل بالفئات السياسية العميلة ومجمل فئات الشعب، لوجدنا أن الجانب الرجعي يمثل الأغلبية الساحقة ويفوق على الجانب القومي من حيث الكم والعدد، وهذا ما سيظهر من خلال استعراض تاريخ تلك المرحلة منذ نشوئها وحتى الآن.وقد يلاحظ القارئ أنه قد تم تصنيف فئات الشعب العربي ضمن تيار القوميين، وضمن تيار الرجعيين في آن واحد وهذا صحيح، والتفسير لذلك أن الشعب العربي كان يفتقر إلى القومية ولا يعرف معناها، ولهذا فعندما كانت الأحزاب الوطنية تقوم بالثورات كان الشعب العربي يتجمع حولها بدون أن يعرف ما يفعل، وهذا ما سيظهر بوقت لا حق .

إذاً بعد أن أخرج الفرنسيون فيصل من سورية، اتجه هذا بقبول من بريطانيا إلى العراق الذي كان مقرراً أن يعتلي عرشه الأمير عبد الله، والذي ما لبث أن ثار غضبه لأنه فقد عرشه ولكنه أعطي عرش الأردن من قبل بريطانية التي عينت الملك فؤاد على عرش مصر، بينما في سورية وليبيا والمغرب والجزائر فضلت كل من فرنسا وإيطاليا حكم حصصهم من الأرض العربية مباشرة وعن طريق المندوب السامي أو القائد العسكري .

أما في شبه الجزيرة العربية، فقد كانت هناك قبائل عربية صعبة المراس، والانقياد و بها نوع من الأنفة والكبرياء، وهذه القبائل ظلت تمتنع على المستعمرين منذ القدم، ولهذا بقيت تلك المنطقة بعيدة نوعاً ما عن السيطرة الفعلية للحلفاء الأوروبيين بشكل كامل، فابن سعود والملك عبد العزيز لم يستجد أو يستعط أحد بل كون دولته لوحده واستطاع الانتصار على الهاشميين الذين كانوا في حرب معه[1] ، مما اضطر البريطانيون في نهاية الأمر للقبول بالأمر الواقع والابتعاد عنه بعدما فشلوا في محارته وإحباطه وإن كانوا قد أقاموا قوات برية لهم في تلك المناطق، وسيقدر لأبناء آل سعود فيما بعد أن يكون لهم دوراً مهماً ورئيسياً في القضايا العربية. أما فلسطين فقد كان لها وضع خاص، فقد بدأ اليهود من كافة أنحاء العالم يتوافدون إليها، وتحت إشراف بريطانيين الذين أعطوا اليهود وعد بلفور المتضمن منح فلسطين وطناً لهم .

وهكذا بدأت فصول وأحداث المرحلة العربية الحديثة أو إذاً صح التعبير وجاز أن نسميها مرحلة " سايكس- بيكو". أحداثها تبدأ من عام /١٩١٧/ م وحتى الحرب العالمية الثانية وفصولها أو أحداثها، تقسيم البلاد العربية واستعمارها، أما أشخاصها أو الممثلون فيها فهم بحسب تصنيف المخرج أو كاتب السيناريو: الاستعمار الأوروبي ويمثل دور الأبوين الحنونين، والرجعيون العرب ويمثلون الابن المطيع

---

[1] الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية ص/١٠٩/ – ابن سعود – تاريخ العربية السعودية .

والقوميون العرب يمثلون الابن العاق، والشعب العربي العربي يمثل الأبن المعقد المشلول الذي يأتيه غذائه وطعامه، أما اليهود فهم المولود الجديد والابن الرضيع الذي يجب أن يكتسب محبة العائلة كلها. هذه هي عائلة الزوجين سايكس – بيكو، فالابن الأكبر المطيع لوالديه هو الذي يجب دعمه، أما الأبن العاق فيجب تربيته وتأديبه حتى يهتدي إلى الطريق القويم، وهناك الابن المشلول الراقد على السرير بدون حراك فهذا واجب إطعامه فقط ولا يجب إشراكه بأي عمل أو تكليفه بأي مهام لأنه عاجز وغير قادر على العمل، وهناك الابن المولود حديثاً، فهذا باعتباره صغيراً يجب على كل أفراد العائلة الحنو والعطف عليه، فهو صغير يحمل براءة الأطفال.

وأما هذه الوقائع وتلك الصور، بدأ الصراع العربي بشكل عنيف وبدأت الأحلاف والأحزاب بالتشكل، ومع مرور الزمن كبرت عائلة سايكس – بيكو، وكبر أولادها، وأصبحوا فتياناً فرجالاً فحافظوا على أدوارهم، ولما أصبح الزوجان سايكس و بيكو هرمين، ثم توفاهما الله بعد عمر مديد قضاياه بالصلاح والتقوى وتربية الأولاد تربية صالحة، تكفل بالأولاد عمهم سام الذي كان يحب الولد الصغير محبة عظيمة.وكانت علاقات عبد الله المتزايدة مع البريطانيين قد بدأت تأخذ منحى خطيراً جداً، خاصة بعد تزايد عدد اليهود بشكل كبير، وكان تساهل عبد الله أمام هذه القضية ذا أثر كبير جداً، وربما يكون السبب في مقتله عام /١٩٥١/[1] . وأمام هذه الوقائع الراهنة، كانت القومية العربية قد نمت شيئاً فشيئاً، ولكنها ظلت ضعيفة أمام هذا التآمر الحاصل الذي كان يمارسه الرجعيون العرب. وقد أصبح الوضع السياسي العربي معقداً جداً ومتشابكاً بشكل كبير وأصبح هناك أكثر من طرف وأكثر من قضية، وهذه الأطراف والقضايا منها ما كان متصلاً ومنها ما كان منفصلاً، ولهذا فقد ضاعت القومية العربية بين هذه الصراعات.

---

[1] الصراع على سورية .

وقد تميزت القومية والوطنية على شكل طبقة المثقفين من الشعب وبعض طبقات الشعب، والذين كانوا يقاومون الاحتلال الأجنبي ويقومون بالثورات، وهؤلاء كانوا وطنيين أكثر منهم قوميين، ويمكن القول أن الوطنية في تلك المرحلة كانت تطغى على القومية، ربما لفقدان الوعي الشامل لدى الشعب العربي.

ومرد ذلك يعود إلى أن فئات الشعب في الحقيقة كانوا وطنيين وغير قوميين، إنهم لم يروا شيئاً أبعد من الوطنية والتي هي شكل بسيط من أشكال القومية أو شكل مصغر لها، فالوطنية كانت موجودة في كل المناطق العربية، بينما القومية كانت موجودة بشكل ضئيل وفي بعض المناطق، فكل الشعوب العربية كانت تثور ضد المستعمرين وتطالب بالحرية والاستقلال، ولكن منهم الذين طلبوا الوحدة العربية أو تكلموا عن الوضع العربي ككل أو أحسوا برابطة الدم العربي أو رابطة العروبة الكبرى، أنهم قلة.

عندما يحتوي بلد ما على عدة فئات أو مجتمعات مختلفة سواء باللغة أو العرق أو التاريخ أو الدين، فإن الوطنية في هذا البلد هي التي يجب أن تطغى على القومية التي ستكون هنا عامل تفرقة لأن الجامع لهذه الشعوب هنا هو الوطن أو بلد، وبمعنى أدق الكيان السياسي.

أما عندما تكون عدة بلدان متجانسة باللغة والشعب والتاريخ والعرق والتراث والدين، فإن القومية هنا هي التي يجب أن تطغى وليست الوطنية لأن القومية هنا هي الجامع والموحد، بينا الوطنية هنا هي عامل تجزئة بكل ما تحمله من إيجابية. فمثلاً نستطيع أن نقول أن جمهوريات الاتحاد السوفييتي السابق تمثل الحالة الأولى ففيها عدة قوميات وأديان ولهذا تكون الوطنية أفضل.

ولكن متى تتطابق الوطنية مع القومية. إنهما يتطابقان عندما يكون هناك شعب واحد ولغة واحدة وتاريخ واحد وأرض واحدة وتكون الوطنية في هذه الحالة شاملة تماماً كل البلد وكل الشعب الذي يقطن هذا البلد، وليس جزء منه. هنا تتحول الوطنية إلى قومية. وحتى الوطنية التي كانت منتشرة في أقطار الوطن العربي إذاً أردنا معرفة كنهها، لم تكن صافية مئة بالمئة، فالثورات التي كانت تقوم ضد

المستعمرين الأوروبيين كانت تقوم على أساس ديني في معظم الأحيان، أي على اعتبار أن الأوروبيين ليسوا من المسلمين، وهنا يبرز تأويل أن الثورات لم تكن في بعض المناطق تقوم على أساس أن المستعمرين يريدون تجزئة البلاد العربية ونهب خياراتها بل على أساس ديني، ويستطيع القارئ أن يلاحظ كيف أن الثورات كانت شبه معدومة أيام الاستعمار العثماني مع أن العثمانيين كانوا أسوأ وأطول استعمار عرفهم العرب في تاريخهم، لا بل كان هناك نوع من شبه الموافقة العربية على الوجود العثماني، وهذا ما يدلل على أن الثورات التي كانت تقوم ضد الأوروبي ليست ووطنية تماماً، فما بالنا بالقومية.

إذاً ما هي المشكلة. إن المشكلة أبعد من القومية والوطنية، إنها مشكلة الوعي، ومرة أخرى نرجع إلى البداية في الجاهلية، وهذا ما يثبت صحة الكلام الذي ذكر في بداية الكتاب عن الأحداث العربية منذ الجاهلية، ولكن ما هي مشكلة الوعي. إنها مشكلة الشعب العربي، مشكلة الفرد العربي، مشكلة السكيولوجية العربية للإنسان العربي، ومرة أخرى نرجع أن الوضع العربي معقد ومتشابك ومتداخل بشكل كبير يصعب حله. مرة أخرى نرجع إلى السؤال المحير: لماذا... لماذا... لماذا يحصل كل هذا ؟ .قد تساعد الأحداث الحاصلة، في تفسير وتعليل هذه القضية.

ولكن وبالرغم من كل هذا، فقد كان هناك قومية والحقيقة التي لا بد من قولها هي أن فكرة القومية وعلى الرغم من ضيق انتشارها كانت على شكل أفكار مختلفة وأحياناً متباينة، فمصر تبنت القومية بعد الانقلاب الذي أطاح بالملك فاروق . و كذلك فكرة الجامعة العربية التي أنشئت عام /١٩٤٥/ م .

وقد ظهرت هناك أيضاً نظريات تقول بالقومية. ولكن ليس بمعناها الكامل، بل كانت تتحدث عن قوميات ممسوخة ناقصة، لا تتعدى مجرد كونها وطنيات محلية، كالدعوة الفرعونية في مصر ومشاريع وحدة الهلال الخصيب، وبالتالي فإنها لم تكن بمعنى قومي شامل، ولهذا بقيت هذه النظريات لا تعبر عن القومية العربية التعبير الصحيح.

و من أوائل الذين طرحوا فكرة القومية العربية بمفهومها الشامل والواضح والصريح هو حزب البعث العربي الاشتراكي الذي نشأ في سورية، والذي جسد القومية العربية بشكل واضح ومعمق، ودعا إلى الوحدة العربية الشاملة بين الأقطار العربية، وهو أول من طرح القضية العربية بمفهومها العلمي أيضاً. و قد اعتبرت تلك الحركات أن القومية حاجه لابد منها، و أكدت على فكرة أن الفرد العربي هو المعني فقط بقضية القومية العربية، وكان من أهم منطلقاتها اعتبار القومية العربية واقعاً بديهياً، وأن الوجود العربي حقيقة حضارية قائمه في التاريخ ومستمرة عبر تطوره، واعتبار أن الوحدة العربية هدفاً إيجابياً، ولهذا فقد حدد الحزب شخصية الأمة العربية، واعتبر أن الأمة العربية تختص بمزايا متجلية في نهضاتها المتعاقبة، وهي تمثل كياناً واحداً لايتجزأ .

إذاً يمكن اعتبار ما سبق مدخلاً لفهم طبيعة السياسة العربية في تلك الفترة. إن الصراع الذي بدأ بين الحكام العرب آنذاك لم يكن في مصلحة العرب، وقد كان لتآمر الحكام في تلك الفترة سواء على بعضهم وأمتهم ووطنهم أثر كبير في إكمال الإجهاز على الأمة العربية، حتى أن فترة /١٩٣٠-١٩٦٠/م ضربت الرقم القياسي في الانقلابات التي حصلت في المنطقة العربية، وكلها كانت نتيجة ذلك العداء الذي كان مستحكماً بين الحكام العرب، وارتباطهم بالمصالح الاستعمارية، وجاءت القضية الفلسطينية لتثبت هذا الواقع البغيض الذي وقع فيه العرب، ولتكون بمثابة التمييز والمحك بين الحكام العرب وحتى بين الشعب العربي، وبمثابة السلبية للواقع العربي. والجذور الأولى لهذه القضية ترجع إلى أواخر القرن التاسع عشر، حين برزت قضية اليهود في أوروبة وبعد المشاكل التي كانت تقوم بين اليهود والأوروبيين، وبالتالي برزت هنا مسألة إيجاد وطن قومي لليهود[1]. وتم اختيار فلسطين لهذا الغرض وتأسست تبعاً لذلك حركة يهودية عرفت باسم الحركة الصهيونية، وقامت تحت زعامة ثيودر هرتزل الصحافي النمساوي الأصل، وأخذت هذه الحركة على عاتقها العمل على إنشاء وطن قومي لليهود في

(١) تاريخ المشرق العربي / الفصل التاسع – القضية الفلسطينية ج١-٢ – الدولة العربية الكبرى ص/٢٥٨/

فلسطين، التي كان عدد اليهود فيها قياساً لسكان العرب.

وفي عام /١٨٩٧/ عقدت الحركة الصهيونية مؤتمرها الأول في سويسرا، وكان من أهدافه ومقرراته، إنشاء المنظمة الصهيونية والعمل على إقامة وطن قومي لليهود. والجدير بالذكر هنا إن المؤتمر قد أطلق صفة القومية و ليس الدينية على هذا الوطن المزمع إنشاؤه. وهذه نقطة هامة جداً وهي إن دلت على شيء فإنما تدل على إن الفكرة القومية يجب أن تكون أولاً، أي إبداء القومية على الدين في قضية إنشاء الوطن. وهذا ما يرجعنا إلى مقولة الوطنية والقومية. ويدل هذا الأمر أيضاً فيما يدل على تمسك اليهود بالقومية حتى قبل أن يكون لهم وطن، هذا في الوقت الذي لم تكن فيه القومية العربية قد أخذت مكانها الواسع والشامل في تفكير الإنسان العربي.

هنا يمكن سر العلاقة بين إسرائيل والعرب، وهنا يكمن جوهر القضية وعلى هذا الأساس نستطيع أن نعرف الأبعاد الحقيقية للقضية الفلسطينية، وهي فعلاً قضية وتسحق أن تسمى قضية، حتى أن كل الأحداث العربية منذ بداية الفترة العربية الحديثة وحتى الآن كان معظمها يتمحور حول القضية الفلسطينية بشكل مباشر وغير مباشر. ولذلك فإننا سنتحدث عن الأحداث العربية من هذا المنطلق.

إذاً وبعد إقرار بنود المؤتمر الصهيوني الأول بدأ العمل بشكل جدي أو بالأصح التنفيذ، فبدأ اليهود القيام بالاتصالات اللازمة لتحقيق غرضهم فطلبوا المساعدة من الدول الاستعمارية وبالذات بريطانية التي كان لها الدور الأول في ذلك، باعتبارها كانت تحتل فلسطين أو ستحتلها باسم الوصاية والانتداب.

وبدأت بريطانيا بتقديم كافة أنواع الدعم لليهود، فسهلت لهم الهجرة إلى فلسطين، وعملت على طرد الفلاحين العرب من أراضيهم واحتلال اليهود محلهم بالتدريج، وازدادت الهجرة اليهودية إلى فلسطين تبعاً لذلك[1]. وإلى جانب كل هذه الأمور كان اليهود يقومون بجمع التبرعات والمعونات من أبناء شعوبهم، ومن الدول الاستعمارية ويقومون بإنشاء جمعيات خاصة مهمتها تنظيم اليهود وربطهم ببعضهم

---

[1] المصادر السابقة – المخابرات و العالم ، الجزء الأول ، الملحق .

البعض في كل أنحاء العالم وتقوية القومية الإسرائيلية في شعورهم وإحساسهم. كان هذا في الوقت الذي فيه كان العرب نيام غير مبالين . وقد استفاد اليهود من كل الفرص المتاحة لهم، واستغلوا كل إمكانياتهم وفرصهم أفضل استغلال، وعندما أحكمت بريطانيا سيطرتها على فلسطين وفت بوعدها لليهود وهو وعد بلفور، فازدادت المساعدات لليهود وازداد عدد اليهود في فلسطين شيئاً فشيئاً كل هذا والعرب جاهلون بما يجري حولهم إلى أن تنبهوا عن طريق العثمانيين وذلك بعد قيام الثورة العربية الكبرى، حيث أن العثمانيين وانتقاماً من الإنكليز الذين ساعدوا العرب في ثورتهم، قاموا وعن طريق جمال باشا باطلاع الشريف حسين على وثيقة رسمية تقر باعتراف بريطانية بوطن قومي لليهود، فاستفسر الشريف حسين الإنكليز عن هذه الوثيقة وصحتها، فأجابوه بان هجرة بعض اليهود إلى فلسطين لايعني مطلقاً احتلالهم لها. وانتهت المسألة عند هذا الحد[1] . ومنذ ذلك الوقت أصبح واضحاً للسياسة العربية الدور الذي يجب أن تلعبه، وأصبح لزاماً عليها أن تفهم هذا الدور وتطبقه وهي فهمته فعلاً.

اليهود يقررون منذ عام /١٨٩٠/م في أوروبة إقامة وطن قومي لهم في فلسطين، ويعقدون المؤتمرات ويقومون بإنشاء المنظمات، ويبدؤون بالهجرة إلى فلسطين بشكل علني مفضوح وبمساعدة جميع الدول الاستعمارية وبالذات بريطانية، ويهاجرون إلى فلسطين أمام مرأى العالم، والعرب لا يعرفون هذا إلا عام /١٩١٨/ ، ليس هذا فقط، بل لا يعرفون إلا عن طريق العثمانيين، وهذا يعني لو أن العثمانيين لم يخبروا الشريف حسين بالموضوع لربما كان العرب لم يعرفوا بالأمر إلا بعد قيام دولة إسرائيل عام /١٩٤٧/.

وتوالى ازدياد اليهود في فلسطين، وبدأت الصدامات بينهم وبين السكان العرب على الأرض العربية، في الوقت الذي كانت فيه الإمدادات العسكرية تصلهم (أي لليهود) بشكل دائم ومباشر. واتسع استيلاء اليهود على الأراضي الفلسطينية سواء بالقوة أو بالشراء، وحتى عندما فترت عنهم المساعدات البريطانية

---

[1] المصادر السابقة .

وحاول البريطانيون منعهم أحياناً إرضاء للعرب، فإنهم لم يعدموا الحيل ولا العمل من اجل استملاك الأراضي وإدخال السلاح.

ومع تزايد التوسع الصهيوني، تزايدت الصدامات بين العرب واليهود، وبدأ الغضب الفلسطيني يتزايد وبدأت بعض الثورات الصغيرة تنشب من حين لأخر ضد الإسرائيليين، ولكن القوات البريطانية كانت تقمع كل هذه الحركات وتقضي على أية معارضة.

لكن الصدامات ما لبثت أن تجددت نتيجة ازدياد اليهود الوافدين إلى فلسطين واتساع رقعة الأراضي التي يملكونها بشكل كبير. وفي عام /١٩٢٩/م حاول اليهود إضفاء نوع من الرسمية على وجودهم، فاندلعت الصدامات هذه المرة بشكل كبير جداً، لكنها لم تصل إلى حد الثورة، وعمدت بريطانية إلى ضرب الفلسطينيين بيد من حديد، فاعتقلت الكثير منهم وأعدمت البعض الآخر مع تغاضيها عن أعمال اليهود[١] ، آنذاك بدأ هنا ولأول مرة نوع من المقاومة المسلحة ، و فكانت الحركات الوطنية ضد اليهود تتم بتشجيع من رجال الدين أيضاً ، ولهذا يمكن القول أن الكفاح العربي في فلسطين قد بدأ مع رجال الدين، ومنهم الشيخ عز الدين القسام السوري الأصل الذي قاد عام /١٩٣٥/م ثورة عربية قدر لها أن تكون بداية الكفاح المسلح ضد الإسرائيليين في فلسطين، وعلى الرغم من قمع هذه الثورة على يد البريطانيين فإنها كانت ذات أثر كبير في تنبيه الرأي العام الفلسطيني والعربي إلى الوجود الصهيوني.

ولكن اليهود قد بدءووا بارتكاب الأعمال العدائية ضد الفلسطينيين ولهذا فلم تمض سنة حتى قامت الثورة الكبرى، وكانت ثورة شاملة في الأراضي الفلسطينية، وكانت تعبيراً عن الغضب والغليان الشعبي، فنشبت المعارك في كل مكان من فلسطين وعم الإضراب كافة المناطق الفلسطينية وهاجم الثوار العرب الأماكن اليهودية في كل مكان من فلسطين، وقد حاول بعض الحكام العرب أمثال رئيس الوزراء

---

[١] المصادر السابقة .

العراقي نوري السعيد إجهاض تلك ا لثورة، ولكن الثورة استمرت ولم تتوقف إلا بعد ثلاث سنوات، وبعد صراع طويل[1] .

لقد كان العرب كلهم بشكل عام خاضعين للاستعمار بشكل أو بأخر، فلم يستطيعوا فعل أي شيء، وحتى إذاً استطاعوا فمعظمهم لا يأبه وجاءت الحرب العالمية الثانية لتكون مرحلة جديدة، وتحولاً آخر من تحولات الوضع العربي السياسي في تلك الفترة، حيث كان من أهم نتائج الحرب حصول الأقطار العربية على استقلالها بالتدريج، وذلك بعد أن أنهكت هذه الحرب الدول بالاستعمارية، فلم تعد قوية كما في السابق.

وفي هذه الفترة أيضاً شهد الوطن العربي حدثاً مهماً وهو قيام جامعة الدول العربية وقد كان للجامعة العربية دور مهم، ولو كان غير فعال، في تجميع الدول العربية ولو بصورة رمزية، ولكن بعد فترة ضمت الجامعة كل الأقطار العربية، صحيح أن العرب قد خضعوا للاستعمار في تلك الفترة بشكل مباشر، ولكن الثورات العربية التي كانت تقوم ضده، كانت كفيلة بإبراز بعض الإيجابية في تلك السلبية العربية وفي عام /١٩٤٨/، أعلن اليهود قيام إسرائيل دولة لهم بعد أن كانت مقسمة بين العرب وبين اليهود بواسطة الأمم المتحدة . وقد تزامن هذا الإعلان مع الانسحاب البريطاني من فلسطين وتركها لليهود. وكان من نتيجة ذلك طرد نصف مليون فلسطيني.

وبعد إعلان اليهود قيام دولة إسرائيل، تحركت الدول العربية فقامت الجامعة العربية بتشكيل جيش الإنقاذ الوطني الذي ضم المتضوعين من مختلف الأقطار العربية، وتحت ضغط الجامعة العربية أيضاً، تحركت الجيوش العربية، فتحرك الجيش السوري، وتحرك الجيش المصري والجيش السعودي والجيش الأردني والعراقي، واشتبكت تلك الجيوش مع القوات الإسرائيلية ، وأخذت تتقدم عليها وتحتل المواقع، وبدأت بتضييق الخناق على الجيش الإسرائيلي . ولكن ذروة هذا المد العسكري قد تراجعت

---

[1] المصادر السابقة .

على الفور ، فقد توقف الجيش العراقي عن القتال بأمر من حكومته، والجيش المصري كذلك، علاوة على أنه كان مزوداً بأسلحة فاسدة، أما الجيش الأردني فقد انسحب من مواقعه تاركاً إياها للجيش الإسرائيلي وقد كان يقوده ضباط إنكليز. وقد تزامنت هذه الأحداث مع وقف إطلاق النار الذي استغله اليهود فقاموا بجلب كميات ضخمة من الأسلحة، وأعادوا تنظيم أنفسهم من جديد وأكملوا سيطرتهم على الأراضي التي كسبوها[1].

ولما استؤنف القتال، لم تستطع القوات العربية التماسك، فتضعضعت مراكزها وتشتت جيوشها، بسبب تباين المواقف العربية آنذاك، ولذلك ما لبثت الجيوش العربية أن انسحبت من مواقعها، فأكمل الإسرائيليون سيطرتهم على باقي المناطق، وترتب على ذلك تشريد زهاء المليون عربي من ديارهم، وكانت تلك كارثة كبيرة بحق العرب.

لقد أخفق العرب مرة أخرى في الامتحان، لأول مرة يتشرد العرب من الأرض، ولأول مرة يجبرون على ترك الأراضي المقيمين فيها. ففي الماضي كان المستعمرون الأتراك والفرس والصليبون والمغول والعثمانيون وحتى الاستعمار الأوروبي، كان أولئك المستعمرون يحتلون الأراضي العربية، ويرتكبون الفظائع الوحشية بحق العرب، ولكنهم لم يطردوا العرب من الأراضي أو يهجروهم منها، فعملية التشريد هذه تحصل لأول مع العرب، ولكن لماذا. لأن الاستعمار هذه المرة، هو استعمار غريب من نوعه، لم يحدث أن تعرض العرب لمثله من قبل ، استعمار يزعم بأن هذه الأرض هي له وهي أرض آبائه و أجداده، وإن العرب هم المحتلون لهذه الأرض، وهذا يعني أن الأمر صار مقلوباً بالعكس، وهذا الاستعمار يمكن أن نسمية ظاهرة بالإضافة إلى كونه استعمار، لأنه ليس استعماراً بالمعنى الذي ألفه العرب، إنه استعمار ظهر بينهم ونمى في أرضهم شيئاً فشيئاً حتى قوي عوده واشتد ساعده فتشبث بالأرض. اليهود لم يحتلوا الأرض العربية مثل باقي المستعمرين، فلم يحضروا جيشاً ويحتلوا فلسطين في

---

[1] المصادر السابقة .

ليلة وضحاها ثم يعلنونها دولة لهم.هم جاؤوا أولا سكاناً مدنيين ثم بعد ذلك احتلوا فلسطين أمام مرأى العرب ومسمع منهم والعرب ساكتون، لا بل إن بعضهم متآمر.

هناك مؤشر واضح، وصورة جلية، هذه الصورة أو المؤشر هي أن اليهود الذين كانوا مشتتين في جميع أنحاء العالم والذين لا يتجاوزون عددهم /١٥/ مليون والذين لا يملكون أرضاً ولا حتى روابط تجمعهم، أي باختصار لا يستطيعون نظرياً تحقيق مقومات الدولة . هؤلاء استطاعوا أن يؤسسوا دولة لهم في فلسطين. كل هذا والعرب الذين لهم أمة وحضارة وتاريخ وأرض وعددهم يناهز المائة وخمسين مليون آنذاك، وقفوا عاجزين تماماً لا بل مسلولين أمام هذا الواقع .

فالكيان الإسرائيلي لا يوجد مثله كيان في العالم، ففي التاريخ يوجد دولٌ وشعوب كثيرة احتلت شعوباً أخرى واستعمرتها، ولكن لأول مرة في التاريخ يوجد شعب يطالب بأرض يقول أنها له ويدعي بها، فإسرائيل قامت على أساس ادعائها لأرض فلسطين، واليهود لم يكن لهم دولة قبل هذا ولم يكن لهم مكان محدد فهم منتشرون في جميع أنحاء العالم، وبالتالي فالأمر ليس احتلال دولة لدولة لأنه لم يكن هناك دولة لليهود، وليس احتلال شعب لشعب، فهم من جميع الأجناس والدول. وهذا يعني أن العرب لم يكونوا أمام دولة ليحاربوها، ولم يكونوا أمام شعب معين ليحاربوه بل كانوا أمام عدة شعوب من عدة دول دينها واحد. ولا نستطيع أن نقول أن العرب كانوا يحاربون الدين اليهودي، لأنه أولاً ليس كل اليهود أتوا إلى إسرائيل وثانياً الدين هو أشياء غير مادية أو ملموسة بل هو مبادئ روحية معنوية لا مادية.وأمام أعين العرب وسمعهم أسست هذه الكيانات والشعوب دولة إسرائيل، ولها رئيس ورئيس وزراء وبرلمان، مثلها مثل أية دولة أخرى[١] .

وإذا نظرنا إلى الأمر من منظار آخر متشابه لرأينا الآتي: هناك أرض يسكنها قوم متفرقون متناحرون

---

[١] دراسات في المسألة اليهودية – مذكرات كولدا مائير .

اسمهم العرب، ثم جاءت إليهم عدة شعوب منفصلة عن بعضها البعض، توحدت وانصهرت بشعب واحد سلب من العرب جزءاً من الأرض التي يعيشون عليها واحتل هذه الأرض، وأقام عليها دولة.

إذاً أصبح هناك قوميتان على الأرض، واحدة إسرائيلية وأخرى عربية ، وكلاً منهما تستمد شريعتها من شعبها الموجود على الأرض . القومية الأولى أي اليهودية مدعومة من قبل شعبها دعماً تاماً ، أما القومية العربية فهي لا تحظى بكامل تأييد من شعبها ، بل إن بعض أفراد شعبها لا يدركون كنهها. وبالرغم من وجود كل العوامل الإيجابية لنشوء القومية العربية، وكل العوامل السلبية لنشوء القومية اليهودية، وبالرغم من قدم عوامل القومية العربية وأصالتها وحداثة عوامل القومية الإسرائيلية، فإن القومية الإسرائيلية كانت موجودة في ذهن اليهود بشكل مخطط، فمن من العرب كان يفكر في عام /١٨٩٧/ بالقومية العربية كما كان اليهود يفكرون وهو العام الذي تقرر به إنشاء وطن قومي لليهود بشكل رسمي، من العرب خطرت على باله فكرة القومية العربية بمعناها المجرد في هذا العام ؟؟ .

قد يقال أنه كان هناك جمعيات عربية ثورية نشأت في تلك الفترة، ولكن هذه الجمعيات كانت غايتها بالدرجة الأولى التخلص من النير العثماني. هذا الكلام هو حقيقة واقعة ولا مجال لإنكارها لأن مجرد إنكارها أو حتى نقدها هو بحد ذاته خيانة للقومية العربية، لأننا عندما ننكر سلبياتنا ولا نعترف بها فإننا في الواقع نثبت هذه السلبيات ونطمسها.

إن القومية العربية قد تنفي فكرة القومية اليهودية، ولا تعترف بها، والقومية اليهودية أيضاً قد تنفي القومية العربية ولا تعترف بها، طبعاً هذا الكلام يكون على أرض واحدة، أي أن اجتماع القوميتين على أرض واحدة أو في كيان سياسي واحد، لا يمكن أن يكون. ومن ناحية أخرى فإن الشيء لا ينافسه في مجاله إلا شيء مثله سواء من حيث النوع أو المفهوم أو الجنس، فالبحار لا ينافس قبطان والعكس صحيح، لأن القبطان لا يزاحمه على قيادة السفينة إلا قبطان مثله وفي السوق مثلاً، لا ينافس المنتج إلا منتجاً مثله أو يؤدي نفس الوظيفة الذي يؤديها هو، وبالتالي فالأقوى هو الذي يبقى في السوق.هذه

المقولة تنطبق أيضاً على المفاهيم الفكرية والسياسية والاجتماعية فالقومية لا تنافسها إلا قومية أخرى موجودة معها، فلا يمكن للوطنية أن تنافس القومية، ولا يمكن للقومية أن تنافس العلم أو الدين ... الخ ، والعكس صحيح ، وعلى هذا الأساس فإن التنافس يكون في التشابه، فقرار المحكمة لا يضعن فيه إلا قرار محكمة مماثلة أو ما فوقها. لذلك فعندما يوجد لدينا أشياء متشابهة، فهنا فقط ستبرز مسألة الأفضلية أو الشرعية.

ولكن متى تؤدي عملية التنافس تلك إلى حتمية النفي أو الإزالة. إنها تؤدي إلى ذلك عندما لا يكون هناك شيء أعلى من أطراف التنافس، أي عندما تكون أطراف التنافس في قمة الهرم، أي هي الأعلى ولا يوجد هناك من يوجهها، فهنا والحالة هذه لا بد لهذه الأطراف أن تقوم هي بهذا الدور، ففي بعض الدول يتم تغيير الحاكم أو السلطة أحياناً عن طريق الانقلاب لأن السلطة هنا أو الحاكم هم الأعلى ولا يوجد هناك سلطة أعلى للتغيير.

وكذلك تؤدي عملية التنافس إلى عملية تصفية أو إزالة، عندما تكون طبيعة البقاء تتطلب طرفاً واحداً فقط، كمثال رئيس الدولة أو قبطان السفينة، فالدولة تحتاج إلى حاكم واحد وليس اثنين، والسفينة أيضاً تحتاج إلى قبطان واحد ولا يجوز أن يكونوا اثنين، أو كما في الأديان السماوية حيث يكون الإله واحداً.

هذه الأمور كلها تنطبق على القومية، فالحالة الأولى تنطبق على القومية، لأن القومية هي أعلى مفهوم للجماعة و أشمل، فلا يوجد هناك شيء يوحد الجماعة أكثر من القومية ولا يوجد هناك شيء أعلى، ولا يوجد هناك شيء يكون رمزاً للجماعة أكثر من القومية. ولكن لماذا القومية هي أشمل وأعلى كمصطلح للجماعة وليس الوطنية ؟؟ .

إن القومية أشمل من الوطنية كمصطلح للجماعة، لأن الوطنية تتعلق فقط بالأرض والدفاع عنها، وهذا ما يعرف بالوطنية، فعندما نقول أن هناك إنساناً وطنياً هذا يعني أنه متعصب لأرضه بالدرجة الأولى، أو

دولته أو منطقته، بينما القومية تتعلق بالأرض والإنسان والتاريخ واللغة. فهي تتمثل بعلاقة الإنسان مع أرضه والأرض مع شعبها والتاريخ المشترك الذي يجمع بينهما، وكلمة قومية جاءت من كلمة قوم أي جماعة، والوطنية من الوطن أي أرض، والجماعة هنا تشمل الأرض أيضاً، لأنه لا يمكن تصور جماعة بدون أرض أي تسبح في الهواء، بينما عملياً يمكن أن يكون هناك أرض أو مكان لا يعيش عليه أحد كالصحراء مثلاً أو أرض بور جرداء، إذاً فنحن يمكن أن نتخيل أرضاً خالية من الناس، ولكن لا يمكن أن نتصور أناساً دون أرض، ونحن عندما نقول أن هناك إنساناً قومياً فهذا يعني أنه متعصب لأرضه ولبني قومه الذي يجمعهم تاريخ واحد، ولهذا كان اليهود دائماً يزعمون أن فلسطين هي أرض بلا شعب لشعب بلا وطن .

والحالة الثانية تنطبق على القومية أيضاً. فالشعب الواحد له قومية واحدة فقط، ولهذا فإنه كما للسفينة قبطان واحد وكما للدين إله واحد ، فالأرض والشعب لهم قومية واحدة فقط .

كل هذا الكلام الذي سبق وكل هذه المفاهيم كان اليهود يعرفونها ويطبقونها. إن هذه الأمور جميعها تفسر الأحداث منذ المؤتمر اليهودي الأول في سويسرا مروراً بقيام دولة إسرائيل فلماذا أراد اليهود أن يكون لهم وطن قومي في فلسطين وليس وطن ديني، إذاً القضية هي قضية القومية . .إن إسرائيل تعرف أنها إذاً حادت عن القومية الإسرائيلية قيد أنملة فإنها ستنتهي حتماً أو ستكون مهددة بالزوال، ولهذا فهي دائماً تتمسك بالقومية . ولكن لماذا تتمسك إسرائيل دائماً بالقومية أكثر من الدين على الرغم من أنها عبارة عن كيان ديني قائم على أساس الدين .

إن إسرائيل تتمسك بالقومية ولا تحيد عنها، لأن القومية هي الأرض والشعب، ولهذا فإنها أن تخلت عن القومية، تكون قد ألغت الأرض وبالتالي لا مسوغ ولا داعي لوجود اليهود في فلسطين، وحتى وإن اعتمدت إسرائيل على الدين فانه لن يكون وحده قادراً على ضمان وجودها، لان الدين لا يستلزم بالضرورة أرضاً معينة، فاليهود وغيرهم من إسلام ومسيحيين يمكن أن يتواجدوا في أي مكان من العالم،

خاصة وان فلسطين هي أرض موجود فيها جميع الأماكن الدينية المقدسة للديانات السماوية الثلاث. وبما أن القومية مرتبطة بالأرض والتاريخ والشعب معاً فهي الأصلح لذلك ، خاصة وأن اليهود يقولون بأن فلسطين تاريخياً كانت لهم وأنهم كانوا عبر التاريخ القديم يقطنوها[1] . ولكن من سيقول هذا الكلام وفي تفكير من سيكون هذا الكلام. إنه سيكون في تفكير الشعب الإسرائيلي فقط، لأنهم بحاجة إلى ذلك، ولهذا تعمل الحكومات الإسرائيلية على تثبيت القومية الإسرائيلية في فكر المواطن الإسرائيلي قبل الدين[2] .

أعلنت دولة إسرائيل وفشل العرب في منع إقامتها. وقد أثارت عملية انسحاب الجيوش العربية وتوقفها عن القتال صدمة كبيرة لدى العرب ولعلها كانت أول صورة تكشف لهم وضعهم الحقيقي.

وقد أثارت هذه الحرب ردود فعل عربية مختلفة وأدت إلى تنبيه بعض العرب إلى خطورة الموقف العربي. ومنذ ذلك الوقت حدثت تغيرات جذرية في الفكر العربي وفي عقلية الإنسان العربي، فلقد بدأ يدخل في قاموس العرب السياسي كلمة قومية ووحدة وصهيونية وربما تنبه العرب بعد هذه الحرب إلى أنفسهم، خاصة بعد ظهور هذه المفاهيم المجردة وأيضاً عندما فقد العرب بعض أراضيهم التي لم يستطيعوا أن يحولوا دون إرجاعها واثبات حقهم فيها، فقد تزامنت مع قضية فلسطين، قضية لواء اسكندر ون وقضية عربستان، وهما أراض عربية أخذت من العرب بنفس المدة تقريباً ولم يستطع العرب وقتها فعل أي شيء، فقد استولت تركيا على لواء اسكندرون، واستولت إيران أيضاً على عربستان ، و كلتا الدولتين ادعتا بحقهما في الإقليمين . وعندما يصبح في أي قضية حقوق ومطالب ، فإنها ستصبح معقدة جداً ومكلفة.

ولهذا يمكن القول أن فترة ما بعد /١٩٤٨/ كانت الفترة التي أتم العرب فيها انقسامهم الثالث وهو

---

[1] تجدر الإشارة إلى أن مملكة إسرائيل أنشئت في فترات تاريخية سابقة للميلاد .

[2] انظر مذكرات كولدا مائير .

الانقسام السياسي، وقد دفعوا ثمن هذا الانقسام غالياً، لأنه عند كل انقسام كان العرب يدفعون ثمنه غالياً فالانقسامات العربية المعروفة حتى الآن هي ثلاث، أولها كان الانقسام القبلي، ثم الانقسام الديني ومعروفة نتائجه وما جر من ويلات على العرب، ثم الانقسام السياسي الذي تجلى في انقسام العرب إلى دول سياسية وظهور الحدود بين هذه الدول. بشكل عام كانت هذه الانقسامات الرئيسية المعروفة في العالم العربي، وطالما أن الانقسام موجود، فان نتائجه وآثاره ستبقى موجودة وباقية، وبما أن الانقسام القبلي لم يعد موجوداً الآن فإن آثاره ليست موجودة وليس لها أي أثر على مجرى الوضع العربي، أما الانقسامات الدينية والسياسية فهي لا زالت موجودة وبشكل كبير جداً، ولهذا فنحن عندما قسمنا البحث في الوضع العربي، قسمناه قسماً سياسياً وقسماً دينياً.وعند كل انقسام عربي كانت الخلافات تظهر بشكل طبيعي، ولهذا فقد بدأت الخلافات السياسية في هذه الفترة تظهر إلى جانب الخلافات الدينية، وبدأت المشاحنات تنمو وتتزايد بين الدول العربية ونتيجة لهذه لخلافات والمشاحنات ظهرت تغيرات قوية في السياسة العربية، وتسارع كبير في تلك الأحداث والتغيرات، وكان من أهم تلك التغيرات السياسية هي الانقلابات التي كانت تتم في الغالب على أيدي العسكريين .

وأهم تلك الانقلابات هو الانقلاب الذي حصل في مصر عام /١٩٥٢/، فكان أن استلم جمال عبد الناصر السلطة، وتم تحويل مصر من مملكة إلى جمهورية، وتحولت السياسة آنذاك نحو العروبة والقومية العربية.قي الواقع كانت الانقلابات العربية في تلك الفترة تعكس في جملة ما تعكسه الخلل وعدم ثبات السياسة العربية، أو أنها كانت كنوع من ردة الفعل على جملة المصائب التي حلت بالعرب والنكبات التي ألمت بهم. ومع استلام عبد الناصر السلطة في مصر، تصاعدت وتيرة الخلافات العربية التي كان محورها العراق وسورية والسعودية ومصر وكانت تلك الأقطار تسعى بشكل أو بآخر إلى الزعامة العربية، باستثناء سورية والأردن اللتين كان دورهما هامشياً وكانت الخلافات تصل أحياناً إلى حد العداوة وقطع العلاقات، وهذا ما جعل هذه الفترة مليئة بالانقلابات، وتناقض الآراء وتباين المواقف، وقد أثرت

تلك الخلافات تأثيراً كبيراً على الوضع العربي السياسي، ونتيجة لذلك فقد أصبح هناك عملية تمحور للسياسات والآراء العربية، وهذا كان ينعكس بطبيعة الحال على الفرد العربي.

ولكن وإلى جانب كل هذا، فقد كان هناك نوع من وعي قومي عربي قد بدأ ينمو، وهذا الوعي الذي كانت بذوره النهضة العربية الأولي، كان قد أخذ له مكاناً في عقلية المواطن العربي، فبعد كل هذه الحوادث، أخذ هذا المواطن العربي يحس بخيبة الأمل ويحس بنوع من الإهانة ، بشكل خفي، خاصة بعد ظهور التكنولوجيا الحديثة من وسائل إعلام ونقل، وبالتالي دخول السياسة بمفهومها المجرد المتطور، ومجالاتها المختلفة، وهذا كله ساعد على إظهار الواقع السياسي العربي بشكله العاري الحقيقي أمام المواطن العربي، ولهذا يمكن عد هذه الفترة بأنها بداية إحساس المواطن العربي ولأول مرة بالخطأ، أو على الأقل إحساس بوجود خطأ ما، ولكن هذه الفترة لم تكن معرفة هذا الخطأ، فهذا المواطن العربي قد عرف أنه يوجد هناك خطأ، وعرف أن العرب بوضع سيئ، وعرف ما آلت إليه أمته من خراب وضعف وتمزق، وعرف أنه في وضع حرج لا يحسد عليه، ولكنه لم يعرف السبب في ذلك، لم يعرف لماذا يحصل معه هذا وحتى الآن وربما حتى هذه اللحظة لم يعرف السبب، ولن يعرفه لأن السبب معقد جداً ومتشعب إلى فروع وكل فرع منقسم إلى أجزاء، وكل جزء متفرع إلى أقسام، وكل قسم مؤلف من مشاكل عديدة، وكل مشكلة لها جذور عميقة ومتعددة ضاربة في عمق تربة العقل العربي. لقد عرف العرب في تلك الفترة بأنهم لا يسيرون في الطريق الصحيح، وأنهم لا يتصرفون بالشكل المطلوب، كما عرفوا أن سياستهم هي سياسات فاشلة لم تؤد إلا إلى المزيد من الكوارث والمصائب.

والسياسة العربية لم تبدأ بشكل ذاتي إلا بعد خروج الاستعمار الأوروبي من البلاد العربية، نتيجة للتحولات العالمية التي أفرزتها الحرب العالمية الثانية، ونشوء التكتلات السياسية العالمية، وبطبيعة الحال خضع العرب لتلك المتغيرات التي كان من أهمها خروج الاستعمار الغربي من أراضيهم، وظهور

الحكم السياسي الذاتي البحت لأول مرة لديهم، لان العرب ومنذ ظهور الإسلام وحتى نهاية الاستعمار العثماني كانوا خاضعين للحكم الديني. ولكن وعن طريق الاستعمار الأوروبي أطلعوا على كيفية الحكم السياسي من خلال تطبيق الاستعمار الأوروبي ذلك عليهم .

قلنا أن الخلافات العربية والأحداث السياسية العربية تمحورت في تلك الفترة حول كل من سورية والعراق ومصر والسعودية[1] . وقد كانت سوريا باعتبارها خارج دائرة الأحداث، مسرحاً لتلك الصراعات، ولم تكن الانقلابات التي كانت تحصل في سورية إلا نتيجة لتلك الصراعات، أو على الأقل مرتبطة معها بشكل غير مباشر. وكان كل طرف من الأطراف المتنازعة يسعى إلى كسب الدول المحايدة إليه، سواء عن طريق التدخل الغير مباشر أو عن طريق الاتفاقات . ومنذ مجيء عبد الناصر إلى السلطة تعاظم التنافر بين تلك الأطراف، خصوصاً لان كلاً منها يعتبر نفسه حامل لواء القومية العربية، وبالذات مصر والسعودية فعبد الناصر ذلك الضابط الثوري الذي قام بخلع الملك فاروق، قد قام بضرب كل قواعد الاستعمار الغربي، وقطع كل صلة لمصر بها، وأثبت عداءَه لإسرائيل وللاستعمار الغربي، ولذلك فهو يرى مصر بأنها هي الدولة المؤهلة لقيادة العرب والمتبنية للقضية العربية. وأما آل سعود، فهم يعتبرون أنفسهم دعاة للتضامن العربي، حيث أنهم لم يخضعوا للاستعمار طوال حياتهم، وأنهم شاركوا بتأسيس جامعة الدول العربية، وقاموا مادياً بدعم الفلسطينيين أيضاً، ولهذا فهم يعتبرون أنفسهم أيضاً أصحاب القضية العربية[2] ، وأنهم خدموا القضية العربية وعملوا لأجلها، أما العراق فانه لم يكن ليستطيع المطالبة بحصته من الوطنية لأنه كان معروفاً وضعه وتعامله مع الاستعمار آنذاك، ولهذا فقد انحصر النزاع على الزعامة العربية بين مصر والسعودية.

ومع استلام عبد الناصر للسلطة، أخذ الوضع العربي يأخذ منحاً آخر، وهو تزايد الصراع مع إسرائيل،

---

[1] الصراع على سورية .

[2] المصدر السابق .

وبروز إسرائيل من جديد. ففي عام /١٩٥٦/ قام عبد الناصر بتأميم قناة السويس، مما أدى إلى هجوم عسكري على مصر من قبل كل من إنكلترا وفرنسا وإسرائيل، وهذا الهجوم قد ساهم أيضاً في تنبه العرب مرة أخرى إلى وضعهم. حيث أن تلك الفترة قد شهدت نضج المفهوم السياسي، حيث بدأت الأحزاب السياسية العربية بالتشكل وبإعداد كبيرة، وكل حزب كانت له أفكار به وأدوار يلعبها، وطبيعي أن تختلف آراء وأفكار وأهداف هذه الأحزاب والحركات السياسية، لا بل وأن تتعارض في بعض الأحيان، وفي هذه الفترة التي كان فيها العقل العربي ضائعاً ويائساً ومشوشاً، وجدت تلك الأحزاب والحركات السياسية مجالا خصباً للنمو والتكاثر، كما وأن الإنسان العربي وجد أيضاً في تلك الأحزاب، مكاناً للتعبير عن أفكاره وتنفيساً لما يعتلج في صدره من انفعالات وردات فعل غير مباشرة على ما حدث له، وهكذا فإن العرب كانوا واقعين في تلك الفترة في نوع من الفوضى السياسي والتخبط السياسي، ولذلك فسرعان ما وجدت الصراعات العربية مرة أخرى طريقها إلى الأمة العربية. وهذه الخلافات كانت هذه المرة بحلة جديدة متميزة عن سابقاتها، خاصة بعد تطور مفهوم السياسة كعلم.

وفي عام /١٩٥٨/ حصل أول حدث قومي إيجابي وفعلي لناحية الوحدة العربية، حيث قامت الوحدة بين سورية ومصر، بعد استفتاء شعبي، وبشكل عام لاقت هذه الوحدة قبولاً عنيفاً من الشعب في البلدين، وهذه الوحدة كانت بشكل أو بآخر تعبيراً عن التنفيس عن الغضب وحالة الإحباط التي لحقت بالإنسان العربي، لقد كانت ردة فعل كل ما حصل للإنسان العربي، فهذا الإنسان العربي أصبح يريد الخلاص بأي شكل من هذا الواقع الذي يعيشه ومن تأنيب الضمير الخفي الذي ينمو في داخله، ولهذا فقد أشاعت هذه الوحدة جواً من البهجة لدى الرأي العام العربي، والشعور بالارتياح، برغم أنها قامت بين بلدين عربيين فقط، وأثبت أنه يوجد هناك نوع من الوعي العربي، وتعود جذور هذه الوحدة إلى قيام حلف بغداد لأنها بشكل غير مباشر قامت كرد فعل على هذا الحلف الذي كان بين العراق وتركيا و باكستان، برعاية الولايات المتحدة الأمريكية، ونشأة هذا الحلف تعود أسبابها إلى الصراعات العربية، فقد بلغ من شدة تنافر العرب مع بعضهم البعض لدرجة أن حكومة العراق آنذاك التي أصبحت تخشى

جيرانها العرب، قد عقدت حلفاً مع الدول المذكورة وأمريكا، من جملة ما يهدف هو حماية العراق والأردن من أي خطر عربي مجاور، أي أن هذا الكلام يعني أنه يجب على الدول الأجنبية أن تحمي الدول العربية من بعضها البعض، أي حماية العرب من العرب، هذا في الوقت الذي كانت فيه إسرائيل قد أنشأت كيانها وأقامت دولتها.

وقد حاول العرب آنذاك منع العراق من دخول هذا الحلف، وبالذات سوريا ومصر، فمصر عارضت هذا الحلف عن طريق رئيسها جمال عبد الناصر، وأما سوريا فقد عارضت عن طريق ضغط كبير من حزب البعث العربي الاشتراكي، وبتشجيع ودعم من حزب البعث هاجمت مصر هذا الحلف، واعتبرت أن الانضمام إليه هو بمثابة خيانة للعروبة، وإزاء هذه الأحداث وغيرها، أصبح هناك نوع من التوافق بين مصر وسورية، وتحت ضغط حزب البعث بدأ التقارب بين القطرين الشقيقين، فتم التوقيع على معاهدة الدفاع المشترك، ثم توحيد قيادة الجيشين السوري والمصري، وبالإضافة إلى المواقف السياسية الواحدة، كان حزب البعث قد طرح نوعاً من الوحدة مع مصر على شكل مشروع اتحاد في عام /١٩٥٦/، وفي عام /١٩٥٨/ أعلنت الوحدة بين القطرين، وكانت بمثابة أول تطبيق للقومية العربية بشكل فعلي وعملي.

لقد كانت هذه الوحدة بمثابة نقطة بيضاء في التاريخ العربي المدلهم، فمن عهد انتهاء الحكم العباسي، لم يظهر الاندماج العربي بهذا الشكل القومي القوي القائم على الوعي والاتفاق والإرادة الذاتية.ولكن مع استمرار الخلافات، استمرت الدسائس والمؤامرات بين العرب، وأصبح هناك نوع من الخوف العربي ، واستحكمت العداوات بين الدول العربية بشكل سافر وعلني، في الوقت الذي كان فيه الاستعمار الغربي يوطد سيطرته على البقعة العربية بشكل غير علني.

ونتيجة للمؤامرات والدسائس حصل الانفصال بين سورية ومصر بعد ثلاث سنوات من إقامة الوحدة، لماذا عندما قامت تلك الوحدة بين سوريا ومصر، لم تتبعها بقية الدول العربية فتندمج كلها بدولة

واحدة. لأننا نحن العرب لا نريد ما هو مفيد لنا، وننجر نحو كل ما هو ضار لنا، منذ أن وجدنا لم ننعم بيوم راحة أو وضع مستقر، ومع ذلك لم نع الدرس، الاستعمار الغربي تركنا فذهبنا وراءه واستدعيناه وعقدنا معه الأحلاف والمعاهدات.في الماضي كان عذرنا أننا لم نكن بهذا الوعي القومي وأن الخلافات الدينية والطائفية كانت هي المسيطرة علينا، وأننا كنا غارقين في الانحطاط والعزلة.أما الآن وقد انفتحنا على العالم، وتخلصنا من الاستعمار العسكري، وأصبحنا على درجة من الوعي،فلماذا لا نتبين أنفسنا خاصة وأن شعوباً أخرى سبقتنا في هذا المجال، كانت مثلنا في التخلف والتجزئة، ونستطيع أن نتبع خطاها . لماذا نرجع ثانية إلى الاستعمار ونرتمي في أحضانه وكأننا لا نستطيع العيش بدونه. المفروض أننا نكون قد حفظنا درسنا واعتبرنا من مصائبنا، خاصة وأننا الأمة الوحيدة تقريباً التي تعرضت خلال تاريخها إلى مآسي كثيرة وفظائع عديدة، ولهذا كان يجب علينا أن نكون قد تعلمنا من الماضي. فكل الأمم تستفيد من أخطائها وتستخلص العبر من تاريخها ومشاكلها، حتى الاستعمار الغربي الذي استعمرنا والذي هو الآن من الدول المتقدمة، قد استمد حضارته من الأحداث السياسية والدينية التي حصلت في فترة القرون الوسطى وما قبلها، فشعوب أوروبا قامت عندهم حروب كثيرة وثورات أكثر أسفرت عن حمامات دم اجتاحت أوروبة في تلك الفترة، ومع هذا فقد أدت كل هذه المصائب والكوارث التي حلت بأوروبة، إلى ردة فعل باتجاه العكس، ردة فعل باتجاه الوعي، فبعد كل هذا الانحطاط الذي كان سمة من سمات أوروبة في تلك الفترة اتجهت أوروبة نحو التحضر والتقدم. فلماذا لم نفعل نحن ذلك، لماذا الشعب العربي لا يعي ذلك، لماذا الإنسان العربي لا يعي ذلك. ما الذي يميز الشعوب الأخرى عنا. هل هي تملك قدرات عقلية تفوق قدراتنا نحن ؟؟!! .

مرة أخرى نقول لماذا.الجواب هو أننا نحن هكذا، طبيعتنا هكذا سكيولوجيتنا هكذا. نقول أن الاستعمار فرقنا، ولكن يا ترى عندما أتانا الاستعمار هل كنا موحدين، ثم جاء هو ففرقنا؟؟!! . نقول أن الاستعمار هو السبب مصائبنا ولكن عندما أتانا الاستعمار هل كنا متقدمين حضارياً وعلمياً ؟؟!! . نقول أن

الاستعمار زرع البغض والخلافات بيننا لكي يسيطر علينا ولكن هل كنا قبل أن يأتي الاستعمار نحب ونؤاخي بعضنا ؟؟!! ثم من كان يتآمر مع الاستعمار ويتعامل معه غيرنا ؟؟ .

إن أكبر دليل على أن الاستعمار لا يد له في ما حصل لنا هو أن هناك كثيراً من الدول التي كانت متخلفة أكثر منا وتاريخها مشابه تقريباً لتاريخنا وتعرضت للاستعمار مثلنا ، وحصلت على استقلالها في نفس الفترة التي حصلنا نحن فيها على الاستقلال أو بعدها ، وهي الآن من الدول المتقدمة ، علماً أنها لا تملك عوامل التقدم والرقي كما نملكها نحن ومن هذه الدول مثلاً اليابان ونحن نتحدث عن اليابان كمثال لأن تاريخ هذا الشعب مشابه إلى حدٍ ما التاريخ العربي وفيما يلي نورد بعضاً منه[1] :

يطلق على اليابان اليوم اسم أسرع المجتمعات العالمية تغيراً ، ولكنها في الوقت نفسه تقوم على دعائم من التقاليد التي تضرب في التاريخ إلى أقدم العصور . ولم يقف التاريخ حائلاً دون التغيير بل ساعد في دفعه بطريقة لعلها لم تعرف في دولة أخرى من العالم.وقد أبدى الشعب الياباني خلال تاريخه الطويل استعداداً فريداً لاستيعاب الأفكار الجديدة وتطويعها بما يتلاءم مع بيئته الخاصة. وتعود هذه الطاقة إلى تاريخ اليابان وأوضاعها الجغرافية التي خلقت من الشعب الياباني أمة متجانسة بصورة غير عادية وجهت ميزتها تلك فيما بعد للتصنيع والإنتاج.وقد قام الشعب الياباني على مر العصور بتطوير عاداته وخصائصه، مما أسبغ عليه إحساساً قوياً بالوحدة القومية والهدف المشترك.

والتغيير هو سمة من سمات شعب اليابان الحديث، حيث يسعى هذا الشعب لحل المشاكل المختلفة، سواء السياسة أو الاقتصادية أو الاجتماعية عن طريق الأسلوب العلمي العقلاني. ويتجه الشعب الياباني معتمداً على إحساسه الراسخ بالنظام والانضباط وحس المسؤولية والوعي لحل جميع المشاكل التي تعترض طريقه.وإذا نظرنا إلى جغرافية اليابان لرأينا أنها لا تساعد على نشوء قومية بين هذا الشعب، ولا حتى حضارة إنتاجية أو نهضة تكنولوجية صناعية، فاليابان عبارة عن أربع جزر رئيسية بالإضافة إلى عدد

---

[1] نشرة وزارة الخارجية اليابانية عام ١٩٨٥ .

من الجزر الأخرى المنتشرة في المحيط الهادي، وهذه الجزر مليئة بالسلاسل الجبلية والتضاريس التي لا تساعد على اتصال المناطق ببعضها، بالإضافة إلى كونها جزر منقطعة عن بعضها البعض، بالإضافة إلى أن طبيعة الأرض اليابانية غير ثابتة، بل هي تتعرض دائماً إلى الحوادث الجيولوجية وبشكل كبير وباستمرار، فالبراكين في اليابان تصل في مجموعها إلى /٦٧/ بركاناً، والزلازل تحدث باستمرار، فقد أخذت اليابان على عاتقها أثناء حكم الإمبراطور فيجي أن تحقق في بضع عشرات من السنين ما حققته أوروبا في مئات السنين، ألا وهو خلق أمة عصرية ذات صناعات حديثة ومؤسسات سياسية حديثة وأسلوب مجتمع عصري.وأصبح عهد الإصلاح وكأنه انفجار سد كانت تتجمع وراءه طاقات القرون السابقة .

ثم خاضت اليابان حرباً مع الصين وحرباً مع روسيا استعادت خلال تلك الحربين الأراضي التي تنازلت عنها وكسبت وسيطرت على أراض جديدة كفورموزا وكوريا.وشاركت اليابان بالحرب العالمية الأولى، وخرجت منها كدولة قوية معترف بها. وفي الحرب العالمية الثانية التي مزقت اليابان ودمرتها، خضعت اليابان للاحتلال من قبل دول الحلفاء، ولم تنل استقلالها إلا في عام /١٩٥٢/ أي بعد استقلال معظم الدول العربية. وبتسارع قل نظيره وانطلاقة أشبه بالمستحيلة، انطلقت اليابان نحو التقدم والتطور.

واليوم فإن اقتصاد اليابان هو تركيبة ناجحة ومتقدمة من الصناعة والتجارة، وبالرغم من افتقار تلك الجزر إلى الموارد المعدنية والطبيعية والتي يعيش فيها زهاء /١١٤/ مليون نسمة، فإن اليابان بعد تدمير بنيانها الصناعي والاقتصادي أثناء الحرب العالمية الثانية ومرورها بحالة الشلل الكامل، وفقدانها لبعض أراضيها، وحصول المجاعة، لم تستطع أن تعيد اقتصادها المدمر فحسب، بل وأن تصبح واحدة من أهم الدول الصناعية الكبرى في عالم اليوم، فقد شرع الشعب الياباني في إعادة بناء وطنه الذي أصابه الدمار بسرعة فائقة، حيث توسع الاقتصاد الياباني من منتصف الخمسينات وحتى الستينات، وسجل معدل النمو الصناعي ما يقرب /١١٪/ من القيمة الحقيقية، وذلك بالمقارنة بمعدل /٤,٦٪/ في ألمانيا

الاتحادية و /٤,٣٪/ في الولايات المتحدة وأصبحت الصناعة اليابانية أكثر قدرة على المنافسة في الأسواق العالمية.ومع النمو السريع لاقتصاد البلاد أصبحت اليابان تحتل المرتبة الثانية بعد الولايات المتحدة من حيث نطاق الاقتصاد الوطني. وأصبحت من الدول العالمية المتقدمة تكنولوجياً، علماً بأن اليابان تتنازعها الكثير من الأحزاب السياسية والأحزاب المعارضة.

لقد تحولت اليابان فجأة إلى دولة متطورة متقدمة تنافس أكبر الدول وأقواها وتكتسح أمامها الأخضر واليابس هذه الجذر البعيدة والنائية والتي لم تتوافر لها حتى مقومات الحضارة، فيها عروق مختلفة، وديانات مختلفة، ولغاتها متعددة، حتى أن لغتها الحالية مستمدة من اللغة الصينية، فما هو السر في ذلك ؟؟. هل هبط الوحي على اليابان فحولها من دولة متخلفة منعزلة إلى دولة من أقوى الدول المتقدمة ؟؟!! . بالطبع لا، إذن ما هو السر ؟؟!! .

السر وبكل بساطة هو الوعي . لماذا لم تؤثر الدول الاستعمارية على اليابان طالما أنها هي التي تؤثر على الدول النامية وتمنعها من التقدم. كيف يستطيع الاستعمار أن يؤثر ذلك الشعب العريق الممتد على رقعة هائلة، وله حضارة وتراث قوي ودين سماوي، ولا يستطيع أن يؤثر على أربع جزر نائية بعيدة كانت يوماً لا تشكل عليه خطراً كبيراً . ألم تكن اليابان ضد أمريكا وإنكلترا وفرنسا خلال الحرب العالمية وهي الدول التي استعمرتنا في تلك الفترة – عدا أمريكا- فلماذا لم تؤثر عليها تلك الدول، وأثرت فينا نحن فقط. الجواب هو أننا نحن العرب مهيؤون لأن نتأثر، مهيؤون بالفطرة للانقسام والصراع، فلماذا وتاريخ اليابان مشابه لتاريخنا، هي متقدمة ونحن متأخرون ؟؟!! .

لنترك الآن اليابان ونعود إلى العرب، والى مقولة ماذا فعل الاستعمار بنا. لو أن الاستعمار هو السبب فيما حصل لنا لما كانت تلك الوحدة بين سورية ومصر قد قامت. لكان الاستعمار قد منع هذه الوحدة، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن هذه الوحدة نفسها قد انتهت بعد ثلاث سنوات فقط من قيامها وعلى أيدي العرب أنفسهم، وإذا كان العرب قد وصلوا في تلك الفترة إلى هذا الموصول واستحكمت السلبية

في وضعهم السياسي، فإنه كان هناك أيضاً جوانب إيجابية كما ذكرنا، والإيجابية هذه كانت موجودة مع السلبية ومترافقة معها في كل الفترات السابقة، التي بدأت منذ عصر النهضة، وكما قلنا فإن الوطنية والقومية كانتا أبرز سمات الإيجابية السياسية العربية، والإيجابية أحياناً تكاد تطغى على السلبية، وأحياناً تصغر أمامها، فتارة تكون الحركات القومية والوطنية شبه شاملة فبالوطن العربي وتارة تقتصر على حدث معين في قطر معين.

وفي ٨أذار عام /١٩٦٣م/ قامت في سورية ثورة قومية بقيادة حزب البعث العربي الاشتراكي، رداً على الانفصال الذي وقع بين سورية ومصر، وكانت إيذاناً لتحول عربي آخر، وقد قدر لحزب البعث في سورية أن يلعب دوراً مهماً ورئيسياً في الزمن العربي اللاحق. لقد كانت فترة الستينات الفترة التي حصلت فيها الأحداث التي كانت الأساس للوضع العربي الراهن، وتعد بمثابة الباب أو المدخل لهذا الوضع، ويمكن القول أن الأحداث التي حصلت في تلك الفترة كانت بمثابة الفرز الأولى لتيارات العربية، السياسية والدينية السائدة الآن. فكل الأحزاب والحركات والتيارات والآراء العربية الموجودة الآن على الساحة العربية، تعود جذورها إلى أواخر الثلاثينات وبداية الأربعينات، أما نشأتها وظهورها الرسميان فهو في الستينات، وكان لاختلاف المفهوم السياسي العربي أثر كبير في تشتيت العرب، حيث أدى خروج الاستعمار الأوروبي إلي وجود نوع من المفهوم الحديث للسياسة، وهو نوع جديد لم يعرفوه من قبل، ولذلك كان لا بد عند الخوض فيه من حدوث أخطاء منها ما هو فادح وثمنها باهظ.وأول شيء فعله العرب عند دخولهم في المجال السياسي الحر بعد تسلمهم الأمور السياسية في أرضهم، هو أنهم وجهوا هذه المفاهيم السياسية ضد بعضهم البعض ومحاربة بعضهم سياسياً .

وقد جاء مفهوم الزعامة العربية ليزيد من هذه الصراعات والنزاعات، حتى بين بعض التيارات الوطنية والقومية، وهذا ما أدى إلى أن يصبح الموقف القومي بالرغم من قوته وعنفوانه موقفاً كسيحاً عاجزاً، لأنه كان عبارة عن مجموعة مواقف متباينة بالرغم من كونها وطنية أو قومية، وهذا ما أدى إلي ازدياد

الضعف والتشتت العربي.وأمام تلك المفاهيم الحديثة للسياسة والتي كانت بمثابة عالم جديد على الفكر العربي، وجد العرب في ذلك مجالاً خصباً لإثارة الخلافات والصراعات بينهم، خاصة وأن السياسة التي دخل العرب في متاهتها في ذلك الوقت، كانت هي نفسها عبارة عن محصلة لعوامل وأراء ونظريات مختلفة، ومفاهيم متناقضة ومتضاربة، ولذلك كان من السهل على الحكام العرب وحتى الإنسان العربي العادي أن يتأثر بتلك التناقضات ويطبقها على الآخرين وعلى نفسه. وبالإضافة إلى كل هذا ازداد الموقف العربي تعقيداً، وأصبح قضية شائكة ومتشعبة، وذلك بعد أن أفرزت تلك المفاهيم السياسية المستوردة من الغرب حركات وأحزاب وتيارات سياسية وحتى دينية متعددة. ومن خلال تلك الأحداث والمجريات السياسية نستطيع أن نقول أن قدوم السياسة إلي الساحة العربية، هو مشابه إلي حد كبير قدوم الإسلام في الجاهلية إلى العرب ، سواء من حيث الطريقة أو من حيث النتائج والتأثير.

فالسياسة التي قدمت إلى العرب من أوروبة لم تكن معروفة لديهم بهذا المفهوم الكامل، بل إنها كانت تأخذ أشكالاً بدائية كانت من مخلفات العثمانيين وما قبلهم، وكذلك الإسلام، أتى إلى العرب وكان بمثابة مفهوم جديد عليهم غير الكثير من عاداتهم . السياسة كان لها تأثير على العرب حيث ظهرت تلك الأحزاب والحركات السياسية المتناقضة والمتصارعة بهذا الشكل السريع وبفترة زمنية قياسية لا تتجاوز العقدين ، وأقل ، كذلك الإسلام كان له تأثير كبير على العرب حيث ظهرت الأحزاب والحركات الدينية المختلفة والمتناقضة، أيضاً وبفترة قياسية. السياسة كانت نتائجها وخيمة على العرب، حيث أفرزت الكثير من الصراعات والنزاعات القومية، كذلك الإسلام أدى إلى نفس الموقف تقريباً، حيث كان معروفة الأحداث الحاصلة بعد قيام الدولة الإسلامية، ولهذا فإننا نستنتج مما سبق أن السياسة كانت بمثابة عالم جديد على العرب، وأن العرب أخطؤوا مرة أخرى في التعامل مع المتغيرات والمستجدات الجوهرية التي تطرأ تاريخياً عليهم .

في عام /١٩٦٧/ حدث ما يسمى بحرب حزيران أو حرب النكسة، وهذه الحرب التي جرت بين العرب وإسرائيل، شبيهة إلى حد ما بحرب /١٩٤٨/ حرب النكبة، مع فارق بسيط، وهو أن النكبة جاءت بمبادرة من العرب، والجيوش العربية استطاعت التقدم والتوغل نوعاً ما داخل إسرائيل،بينما حرب النكسة لم تكن بمبادرة منهم بل من إسرائيل ، وبالرغم من اشتراك عدة جيوش عربية فيها أهمها جيشي سورية ومصر، فإن العرب لم يحتلوا شبراً واحداً من الأرض بل على العكس، خسروا أراض جديدة ومنيوا بهزيمة كبيرة أمام إسرائيل.

لقد كانت حرب /١٩٦٧/ أكبر دليل على ضعف العرب وتشتتهم، وقد أظهرت هذه الحرب بشكل واضح وجلي مدى عجز العرب عن التأثير في مجرى الأحداث السياسية المتعلقة بأرضهم وقضيتهم ومصيرهم، وأثبتت أن العرب لا يملكون من أمرهم شيئاً، وإن السياسة العربية هي سياسة خاطئة. و في الواقع كانت هذه الحرب بمثابة ضربة موجعة للإنسان العربي، بحيث جعلته يرى نفسه على حقيقتها، ويعرف مقدار ضعفه وعجزه ، ويرى ما آلت إليه أمته من خراب. لقد خسر العرب كثيراً في هذه الحرب، خسروا سياسياً واقتصاديا وعسكرياً، وتبرز أهمية هذه الحرب في أنها تبين أن العرب حتى لو أرادوا فعلاً أن يتخلصوا من مصائبهم، فإنهم لا يستطيعون، حتى لو أرادوا استرجاع أرضهم فإنهم لا يستطيعون، بل على العكس تماماً، ستذهب أرضهم.

والدول المشاركة في هذه الحرب هي نفسها تقريباً الدول التي شاركت في حرب /١٩٤٨/. وحرب الـ ٦٧ أو النكسة بكل بساطة تتلخص في أن إسرائيل قامت في صبيحة الخامس من حزيران /١٩٦٧/ بهجوم عسكري شامل ومفاجئ، دمرت خلاله المواقع والمطارات العسكرية لكل من مصر وسورية والأردن، خلال يوم واحد تقريباً، على أن الضربة جاءت بمعظمها على مصر ثم سورية، مع العلم أنه اشتركت عدة دول عربية في هذه الحرب أولهما سورية ومصر، كمواجهة شاملة، والأردن والسعودية

والعراق كإرسال قوات شاركت بالحرب.وبعد الهجوم الإسرائيلي تحركت الجيوش العربية لتلك الدول واستمرت المعارك، وكان عبارة عن نوع من حرب الاستنزاف .

وقد اشتبك كل من الجيشين السوري والمصري مباشرة مع القوات الإسرائيلية، وخاضوا معارك قاسية غير متكافئة، وفي الجولان كانت المعارك بين الجيش السوري والإسرائيلي بمثابة نوع من الاستنزاف، وبالرغم من الضربات التي تلقاها الجيش السوري في الجولان فقد بقي أفراده حتى أخر جندي تقريباً في مواقعهم. واستمر الجيش المصري يتلقى الضربات أيضاً حتى انهار تماماً على الجبهة، وعلى الجبهة الأردنية شاركت القوات الأردنية والسعودية والعراقية نوعاً ما في القتال. ولكن القتال كان مركزاً على الجبهة المصرية والسورية[1] . ولم تمض بضعة أيام على القتال، حتى انهارت الجيوش العربية تماماً، وكان من نتيجة ذلك حصول أكبر مأساة في هذا العقد، لقد فقدت كل الدول العربية المجاورة لإسرائيل أراض جديدة، واحتلت إسرائيل كلاً من سيناء المصرية والجولان السوري والضفة الغربية وقطاع غزة والقدس، وإلى جانب كل هذا تشرد مئات الآلاف من الفلسطينيين خارج أرضهم. كل هذا حصل في ظرف أيام فقد خلالها العرب أراضيهم ودمرت جيوشهم، وشرد مئات الآلاف منهم ولم يستطيعوا فعل أي شيء فلماذا ؟؟ .

لقد أثرت هذه الحرب معنوياً بالإنسان العربي، وكانت بمثابة فاجعة له، لكنها للآسف الشديد لم تستطع بكل أهوالها وفظائعها أن تجعله يتزحزح عن عقيدته وعن تصرفاته فلماذا. وإذا كانت النكبة لم تستطع التغيير فهل ستغير النكسة . وكلمة النكبة هي ذات معنى أكبر وأعمق من كلمة نكسة. ولكن علامة الاستفهام ستزول إذا علمنا أن التاريخ العربي كله بجميع أحداثه ووقائعه عبارة عن نكبات ونكسات، وإذا قسنا حربي النكبة والنكسة بالأحداث العربية الماضية، لرأينا مقدار ضآلة أحداث تلك الحرب بالأحداث السابقة، وهذا ما يفسر عدم التأثير الفعلي لحرب النكسة في الإنسان العربي، ولو أن حرب

---

[1] الأسد : الصراع على الشرق الأوسط .

النكسة أو النكبة قد أثرت فعلاً بالإنسان العربي، لما وصل العرب إلى ما هم عليه ولكانوا قد قلبوا جميع مفاهيمهم وأفكارهم السلبية، وغيروا أوضاعهم نحو الأفضل.ما معنى كل هذا، خلال بضعة أيام، بفقد العرب أرضهم وجيوشهم، وتضيع منهم القدس، هذا معناه أن الوضع العربي قد وصل إلى أدنى درجات الانحطاط والتقهقر، وأن الشلل والعجز قد أصاب جميع مكونات الأمة العربي، وأن القومية العربية ذهبت أدراج الرياح . هذا الأمر يرجعنا مرة أخرى إلى مسألة القومية العربية والقومية الإسرائيلية ، و علاقة كل شعب بهما .

ومن خلال هذه المسألة نستطيع تفسير جميع الحروب بين العرب وإسرائيل، التي حدثت، والتي ستحدث فيما بعد. وطالما انه لا يوجد إيمان عربي فعال وقوي وشامل بالقومية العربية، فلن ينتصر العرب في أية حرب حتى ولو اجتمعت كل الأمة العربية وكل جيوش العرب، ومما يذكر هنا هو أن حرب النكسة لم يحصل فيها خيانات ومؤامرات عربية كما حصل في السابق ، ربما بسبب فجائية حدوث الضربة الإسرائيلية وسرعتها و عدم حاجة إسرائيل لذلك ، كما أن الجيوش العربية كانت في وضع أفضل، والدول العربية كانت في استقلالية أكثر، ومع هذا خسر العرب أكثر مما خسروه في حرب النكبة، وفي زمن أقل بكثير.إذا ليست القضية استعماراً، بل قضية عرب، ليست عوامل خارجية بل عوامل داخلية من العرب أنفسهم، وليست قضية تتعلق بالخلافات الدينية أو السياسية (بين العرب والغير) بقدر ما هي قضية قومية، وهذا ربما قد يفسر لنا لماذا انتصرت إسرائيل ذات الثلاث ملايين نسمة آنذاك على العرب ذوي المائتي مليون.

إن صراع القوميات يبقى دائماً أعمق من أي صراع أخر، حتى الصراع الديني أو الطائفي أو المذهبي، لأن القومية تبقى دائماً هي أساس الشعب، الذي يرتكز عليه في كل تصرفاته وعلاقاته، وكل مراحل حياته ووجوده، وبدون قومية تبقى الشعوب ضعيفة مغلوباً على أمرها، وتبقى مستعبدة عاجزة، مهما بلغت من أسباب الغنى وعوامل التقدم، ومهما تهيأت لها أسباب التماسك والتعاضد، تبقى بدون القومية مشتتة

ضعيفة. فالقومية هي العامل الوحيد لتوحيد وتجميع الشعوب وقوتها، ولا يصلح مفهوم آخر لذلك. وقد يقال أن الدين يعمل على تشكيل أمة ودولة، ولكن الدين بدون القومية لم يكن في يوم من الأيام عامل دائم في تشكيل الأمم والدول وهذا ما أثبته التاريخ في أمتنا العربية وفي أوروبة أيضاً.

لقد كانت حرب /١٩٦٧/ مأساة كبيرة أثرت فقط في أولئك الذين يحملون في نفوسهم القومية العربية، لقد كانت هذه الحرب بصمة سيئة ونقطة سوداء جديدة تضاف إلى التاريخ العربي الأسود. وحرب الـ /٦٧/ تبرهن مرة أخرى على أن الإنسان العربي لا تهمه مصالح أمته ولا مصالح أرضه ووطنه، ولا يأبه بكل ما يحصل له من مصائب وأهوال.وفور انتهاء الحرب رجع كل شيء إلى مكانه الطبيعي، وكأنه لم يكن هناك حرب، ورجع العرب إلى ما كانوا عليه واكتفوا بتسمية تلك الحرب بالنكسة، أي ما معناه أننا إذا سمينا تلك الحرب نكسة فإننا نكون قد قمنا بواجبنا، يكفي أننا سمينا هذه الحرب نكسة كما سمينا قبلها نكبة، وهذا لا يعني أننا غير مهتمين، بل على العكس نحن مهتمون جداً، وأكبر دليل على اهتمامنا هو أننا سمينا تلك الحرب نكسة والسلام عليكم.

ومن جراء الأحداث السابقة تعقدت القضية الفلسطينية، وتشعبت جذورها وانفرزت عنها أو لأجلها الكثير من التيارات السياسية كمنظمة التحرير الفلسطينية، وتحولت القضية الفلسطينية إلى ما يشبه العقدة، وبدأ العرب يفقدون زمام المبادرة شيئاً فشيئاً، وكان من أهم نتائج حرب النكسة، أن ازدادت المشاكل العربية والاتهامات المتبادلة، كما أدت أيضاً إلى مشاكل كثيرة على الساحة العربية، فقد بدأت النزاعات العرقية السياسية المصغرة تظهر على الأرض العربية، فنتيجة لهزيمة العرب في هذه الحرب والحروب السابقة مع إسرائيل، فإن ذلك قد شجع بعض الأقليات العرقية في الوطن العربي على التمرد والمطالبة بالانفصال، وقد كانت هذه قضية أخرى جديدة على الساحة العربية، ولكن كان لها جذور وبذور قبل ذلك، وبما أن العرب قد ظهروا أخيراً بمظهر الضعيف العاجز وازدادت خلافاتهم فإن ذلك كان ربما إشارة لبعض الجهات و القوميات بالتحرك و الاستقلال ، فظهرت قضية الأكراد وقضية جنوب السودان، وإضافة إلى

ذلك ظهرت هناك أيضاً الحركات السياسية التي تطالب بتشكيل كيان سياسي كما في المغرب (في الصحراء الغربية).وقد كان لتلك الحركات والجماعات تأثير كبير على الوضع السياسي بالنسبة للعرب، سيتضح أثره في السبعينات وما بعدها، هذا غير التيارات السياسية الجديدة الناشئة بعد الحرب أو نتيجة لها .

وبعدما خسر العرب كل شيء تقريباً رجعوا مرة أخرى إلى النزاعات والصراعات، حتى وهم في أسوأ حالاتهم رجعوا إلى ما كانوا عليه من خلاف، فقد توترت العلاقات بين سورية ومصر، وبين مصر والسعودية والأردن والعراق، وبين الأردن والسعودية وسورية. و أصبح للاتحاد السوفييتي بعد الحرب دور كبير جداً في المنطقة، فقد ازدادت علاقاته بكل من سورية ومصر، فكان أن أدى هذا الآمر إلى أن تصبح منطقة الشرق الأوسط منطقة نزاع جديدة بين الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة الأمريكية، وأصبح هناك نوع من التناقض الشديد على اكتساب النفوذ والسيطرة في تلك المنطقة، وكان هذا جزء من الحرب الباردة بين الدولتين العظميين.

وبعد تلك الحرب أخذت الدعوة إلى عقد قمة عربية تظهر، وكان هذا أيضاً بمثابة نوع جديد من العلاقات العربية – العربية، والحقيقة أن ظاهرة عقد القمة العربية هي نوعاً ما ظاهرة ايجابية، من أهم محاسنها أنها ترمز ولو بشكل بسيط إلى اجتماع العرب، وتعبر في نفس الوقت عن وجود رابطة بين العرب، ولكن دائماً كانت هناك خلافات حول القمة العربية، فلم يكن من السهل عقد قمة عربية، إلا في حالة الضرورة القصوى، والقمة العربية كانت تعقد في الغالب عند حدوث مشاكل عربية خارجية أو داخلية، أو عند حدوث خلاف عربي– عربي كبير [1].

إذاً وبعد انتهاء الحرب دعت عدة دول عربية إلى عقد قمة عربية لتدارس الوضع حول حرب حزيران، ولكن الخلافات العربية حالت دون ذلك، وعرقلت الاتفاق على عقد قمة عربية. فقد برزت هناك

---

[1] عُقدت أول قمة عربية عند إنشاء جامعة الدول العربية في عهد الملك المصري فاروق .

خلافات حادة بين السعودية ومصر في عدة أمور أبرزها القضية اليمنية، حيث كان لعبد الناصر تحالفات مع اليمن الجنوبي الذي كانت علاقاته قوية جداً مع الاتحاد السوفييتي، وكان متأثراً إلى حد بعيد بالشيوعية، وهذا ما كان يثير حفيظة المملكة العربية السعودية التي تمثل نوعاً من الزعامة الإسلامية. وقد كان لمصر قوات عسكرية في اليمن الجنوبي، واعتبرت السعودية ذلك نوعاً من التدخل في الشؤون الداخلية لليمن الجنوبي المجاور لحدودها[1] . وأخيراً وبعد لأي وجهد كبيرين من عمليات الوساطة، تم عقد مؤتمر قمة عربية في السودان حضره كل من مصر والسعودية والأردن والعراق والسودان وغياب سورية[2] .

لقد كان أهم ما يميز النزاعات العربية، هو تدخل الدول العربية في الشؤون الداخلية لبعضها البعض، وهذا ما ركز عليه مؤتمر الخرطوم الذي صدرت عنه بعض المقررات الإيجابية كتجاوز الخلافات العربية، وتوحيد الصف العربي، وفي تلك الفترة بدأت المملكة العربية السعودية تظهر كطرف أساسي في الساحة العربية، وأخذ دورها يتصاعد تدريجياً في اتخاذ القرارات العربية، و ذلك من خلال كونها قوة اقتصادية كبيرة.ثم عقدت بعد ذلك قمة عربية أخرى في الرباط عام /١٩٦٩/ اجتمعت بها كل الدول العربية تقريباً، ولكنها فشلت هي الأخرى بسبب الخلافات وتباين الآراء الذي حدث في جلساتها من جهة، وانسحاب بعض الدول العربية من جهة أخرى من هذه القمة، وهذا تعبير لحالة الانقسام السائدة في العالم العربي.في هذه الأثناء كانت القضية الفلسطينية قد أخذت تضيع من العرب شيئاً فشيئاً، وبدا أن العرب قد بدؤوا يفقدون التحكم في مسارها، خاصة بعد أن ظهر في هذا قضية جديدة، وهي قضية الصراع العربي الفلسطيني، وكان هذا بمثابة ضربة جديدة إلى القضية الفلسطينية، حيث بدأت الصدامات تظهر بين الفلسطينيين النازحين، وبين الدول العربية المجاورة التي لجؤوا إليها، وهذا ما

---

[1] الأسد : الصراع على الشرق الأوسط .

[2] المصدر السابق .

حصل في الأردن ولبنان، ولكن أحداث الأردن كانت أخف بكثير من أحداث لبنان التي كانت حرباً أهلية.

فبعد حربي النكبة والنكسة اللتين ترتب من أجلهما نزوح أكثر من مليون ونصف المليون لاجئ فلسطيني، توزع هؤلاء على الدول العربية، ولكن معظمهم توزع في كل من سورية والأردن ولبنان وخاصة الأردن ولبنان اللذان استوعبا نسبة كبيرة من الفلسطينيين نظراً لمجاورتهما إسرائيل بشكل مباشر بحدود طويلة.وطبيعي أن الشعب الفلسطيني المهجر، سيعتمد إلى المقاومة ولو من خارج الأراضي الفلسطينية، فبدأت في أواخر الخمسينات وبداية الستينات العمليات الفدائية ضد إسرائيل.وقد تلقى الفدائيون الفلسطينيون دعماً من سورية أكثر منه من لبنان والأردن اللذان كانا يعملان على كبح جماحهم خوفاً من تدخل إسرائيل وتذرعها بالعمليات الفدائية لتشن حرباً أو تقوم بعمليات عسكرية داخل أراضي الدولتين .

ومع كل عملية فدائية كانت تنطلق ضد إسرائيل، كانت إسرائيل ترد بعنف على البلد الذي انطلقت منه تلك العملية.وكرد على إحدى العمليات الفدائية التي انطلقت من الأردن، قامت القوات الإسرائيلية بتدمير قرية من قرى الضفة الغربية، وذلك قبل حرب الـ /٦٧/، ولم يستطيع الأردن القيام بأي رد عسكري، نظراً لعدم تكافؤ قوته العسكرية مع القوة العسكرية الإسرائيلي، وما قد ينتج عن ذلك من التورط في حرب قد تدمر قوته العسكرية. فكان أن غضب الفلسطينيون في الأردن، وقاموا بمظاهرات غضب واحتجاج على الموقف الأردني، فوقعت صدامات عنيفة في عمان مع الجيش الأردني، كانت أشبه بالمعارك، وكادت أن تؤثر على وضع الحكومة الأردنية[1] .

وفي عام /١٩٧٠/ وقعت حادثة أخرى أكبر حجماً وأوسع تأثير، وسميت وقتها بأيلول الأسود. وقد بدأت تلك الحادثة عندما قامت إحدى المجموعات الفلسطينية باختطاف أربع طائرات مدنية كانت

---

[1] المصدر السابق .

تقل أمريكيّن وإسرائيليين، وطالبت تلك المجموعة الملك حسين بالتنازل عن العرش، ولكن الملك رفض وبدأت المعارك بين الحكومة الأردنية وبين الفلسطينيين في الأردن، وامتدت إلى جميع المناطق وإلى العاصمة الأردنية أيضاً، واشتدت عمليات القصف بالأسلحة الثقيلة، وتدخلت عدة دول عربية لوقف تلك العملية التي كانت أشبه بالحرب، إلى أن استطاعت الحكومة الأردنية السيطرة على الوضع بعد قتال ضارٍ[1] .

والحقيقة فإن تلك الواقعة كانت بشكل عام ذات آثار سيئة على العلاقات العربية المفككة أصلاً، وبشكل خاص على القضية الفسطينية، فعلى الصعيد العربي تباينت ردود الفعل العربية على تلك الحادثة بشكل كبير وازدادت الشقاقات وتم تبادل الاتهامات، وعلى صعيد القضية الفلسطينية، فقد تحول صراع الفلسطينيين عن قضيتهم الأساسية، واتجهوا بدلاً منها إلى الأردن.هكذا بشكل عام كان الوضع العربي في الستينات، عبارة عن صراع عنيف بين العرب وانقسام في صفوفهم ممزوج بالكراهية والضغينة. وبعد كل الذي حصل معهم في تلك الفترة، لم يستطيعوا التوصل إلى اتفاق فيما بينهم، ولا مجرد التقاء في رأي.

في بداية عقد السبعينات حصل هناك ما يسمى بالتغيير السياسي العربي، فقد حدث هناك تغيير في الأنظمة السياسية لكل من مصر وسورية، ففي مصر توفي الرئيس جمال عبد الناصر، وحل محله أنور السادات. وفي سورية قام الرئيس حافظ الأسد بالحركة التصحيحية.ومنذ قيام الحركة التصحيحية، قدر للعالم العربي أن يتحول من واقع إلى واقع آخر، من واقع العجز إلى واقع القوة واثبات الوجود، قدر هذه المرة للقومية العربية، أن تكون نداً قوياً ومواجهاً للقومية الإسرائيلية، بعد أن كانت ضعيفة متوارية أمامها.

---

[1] المصدر السابق .

لقد بدأ عقد السبعينات بهيمنة إسرائيلية على العالم العربي، بعد أن خرجت إسرائيل منتصرة من حرب الـ /٦٧/، وألحقت بالعرب ضربة شلتهم تماماً سواء من الناحية العسكرية حيث دمرت القوة العربية العسكرية، أو من الناحية السياسية حيث فقد العرب دعم الرأي العالم العالمي، واهتز موقفهم بشكل قوي، حتى الاتحاد السوفييتي الذي كان يساند بعض الدول العربية كسورية ومصر، تردد كثيراً في تقديم المعونة لهم، وكل ذلك كان بسبب الدعاية الإسرائيلية القوية جداً والتي أثرت بالرأي العام العالمي، وبينت أن العرب على أنهم قوماً لامبالين ، خاصة بعد أن ظهرت بينهم هذه الخلافات والصراعات التي ساهمت في تشويه صورتهم أمام العالم.

وأمام هذه الحالة، ساد العالم العربي نوع من السكوت المذنب، تماماً كما يحصل للذي يخسر قضية ما، ويصبح لا أمل له في كسبها من جديد، فيصمت.وهكذا، بدت القضية الفلسطينية، قضية لا أمل في كسبها، ولا طائل من الخوض فيها، وساد هناك نوع من التراجع العربي عنها، على طريقة العوض على الله .

لقد تمحورت السياسة العربية بشكل عام منذ قيام إسرائيل، حول القضية الفلسطينية، فقد كانت هذه القضية تفرض نفسها بالرغم من العجز العربي آنذاك، وكان لا بد من عمل ما، لا بد من إنقاذ ماء الوجه العربي، وإعادة الكرامة العربية إلى الإنسان العربي، وإنقاذ القومية العربية ومن هنا، ولدت فكرة مهاجمة إسرائيل، وشن الحرب عليها واسترداد الأراضي المحتلة.ولدت الفكرة في سورية، في ذهن الرئيس حافظ الأسد[1] وخاصة بعد حرب الـ /٦٧/، حيث أنه كانت هناك أفكار عربية سابقة للتغيير، فبعد حرب الـ /٤٨/، ولدت في ذهن عبد الناصر فكرة الانقلاب على الملك فاروق وتغيير الأوضاع العربية، ولكن فكرة شن حرب شاملة ورسمية على إسرائيل لاسترداد الأراضي المحتلة ، لم تكن في يوم من الأيام واردة في ذهن العرب منذ قيام إسرائيل.

---

[1] الأسد : الصراع على الشرق الأوسط .

ومنذ استلامه للسلطة، عمل الرئيس حافظ الأسد على التحضير للحرب، فقد كان يؤمن إيمانا عميقاً بأن العرب أقوياء، وقادرون أن اتحدوا مع بعضهم البعض على فعل أي شيء، وأن عقدة النقص أو الخوف هذه، يمكن إزالتها إذا اتفق العرب واجتمعوا ووحدوا صفوفهم، وتطبيقاً لهذه الفكرة كان لا بد من وجود شريك أو عدة شركاء، ولهذا فسرعان ما طرحت سورية فكرة إقامة وحدة عربية أو مشروع وحدة بين العرب، وتشكل مشروع وحدة ضم كل من سورية ومصر وليبيا والسودان، وما لبثت بعد ذلك أن انسحبت كل من ليبيا والسودان، وبقيت سورية ومصر فقط، وهكذا بدأ العمل من أجل الحرب والتخطيط لها، واستمر العمل ثلاث سنوات من الجهد الشاق والإعداد والتحضير، وقبل كل شيء كان لا بد من السلاح فهو الركيزة الأساسية للحرب، فتم اللجوء إلى الاتحاد السوفييتي الذي قام بتزويد البلدين بالأسلحة والمعدات والخبراء، وبعد ثلاث سنوات من الجهد والمثابرة والاتصالات الدائمة بين البلدين تمكنت سورية ومصر من إعادة بناء جيشها بشكل قوي وتسليح جيد مع معنويات عالية مرتفعة.

وفي السادس من تشرين الأول عام /١٩٧٣/ ولأول مرة في تاريخ العرب منذ معركة حطين ، شنت سوريا ومصر هجوماً مشتركاً على القوات الإسرائيلية ، وأعلنتا الحرب عليها .فقد تحركت القوات السورية والمصرية في آن واحد ، وشنت هجوماً على المواقع الإسرائيلية في سيناء والجولان ، فتقدم الجيش المصري وعبر القناة وحطم خط بارليف واجتاح جزيرة سيناء . أما الجيش السوري ، فقد اجتاح المواقع الإسرائيلية في الجولان ودمرها وقامت القوات السورية بعبور خط آلون ، وانسحبت القوات الإسرائيلية ومنيت بهزيمة كبيرة وتراجعت عن كثيرٍ من الأراضي التي احتلتها .

لقد كانت حرب تشرين نصراً للعرب . و كانت هي الحرب الوحيدة التي جمعت العرب حيث ساهم كل حسب مجاله وقد كان من أبرز صور التلاحم العربي سلاح النفط الذي استخدمه العرب . فدول النفط العربي كالسعودية أوقفت بيع النفط فوراً عن الدول المساندة لإسرائيل.وغدت إسرائيل تحت رحمة العرب، في حين استمرت القوات السورية والمصرية بالتقدم، وعندما بدأ بدا أن الصراع سيحسم

لصالح العرب، توقف الجيش المصري عن القتال فجأة ، لماذا ؟؟!! ... هكذا .. نحن يا أخي لا نريد القتال. وبقي الجيش السوري وحده في المعركة، وكانت هذه لفرصة إسرائيل الذهبية، أو يمكن القول أنها كانت بمثابة عملية استرداد المبادرة بالنسبة لها ، خاصة بعدما تقدم الجيش السوري وحده وتوغله في الأراضي المحتلة ووصوله إلى حدود بحيرة طبريا[1] .

وبعد توقف الجيش المصري وعقد السادات هدنة مؤقتة مع إسرائيل، دون إعلام سورية مسبقاً، نقلت إسرائيل تقريباً كل قطعة حربية كانت تقاتل في سيناء إلى الجبهة السورية، وأصبحت الحرب بين سوريا وإسرائيل فقط ، وبدأ الطيران الإسرائيلي بقصف المواقع السورية، ولكن الجيش السوري لم يتزحزح من مواقعه، بل قام بعد ذلك بحرب استنزاف مع إسرائيل استمرت ثلاثة شهور. ولكن توقف الجيش المصري عن القتال، وبدء مصر بعقد اتفاقية لوقف إطلاق النار مع إسرائيل، قد أثر كثيراً على الوضع في الجبهة السورية، فمالت الكفة، واضطر الجيش السوري إلى تراجع تكتيكي.

بعد كل هذه التحضيرات للحرب، وبعد كل هذا النصر الذي حققه العرب توقف الجيش المصري عن القتال، وبدأت معاهدات فصل القوات مع إسرائيل ومصر، وبعد أن أمنت إسرائيل على موقعها في الجبهة المصرية انفردت بالجبهة السورية. وعندما عقد مؤتمر جنيف، رفضت سورية حضوره باعتباره يخدم إسرائيل أكثر من العرب، وسيكون أداة لتسليم كل ما بأيديهم لإسرائيل، وطالبت سورية العرب بعدم حضور هذا المؤتمر، وبعد المؤتمر عقدت اتفاقية فصل القوات الثانية بين مصر وإسرائيل، والفارق في هذه القضية هو أن مصر التي عقدت اتفاقية فصل القوات الثانية مع إسرائيل، قد تعرض جيشها بعد تلك الاتفاقيات للضربات الإسرائيلية، حتى أصبح منهاراً تماماً، وتعرضت مدينة السويس للمحاصرة، فأصبحت تحت رحمة إسرائيل، بينما سورية التي رفضت وقف القتال، بقي جيشها متماسكاً برغم كل الضربات التي كيلت له، وبقي قادراً على القتال والمواجهة، وهذا ما حصل في حرب الاستنزاف، وأيضاً

---

[1] الأسد : الصراع على الشرق الأوسط .

الدول العربية النفطية التي لم تكن طرفاً عسكرياً أساسياً في المعركة رفضت التوقف ، فالسعودية ظلت تمارس حظر النفط حتى /٨/ آذار عام /١٩٧٤/ .

ومن الملحقات المخزية في الحروب العربية الإسرائيلية، قضية التجسس، وهذه القضية تضرب بجذورها إلى ما قبل إنشاء دولة إسرائيل، وهي إن دلت على شيء، فإنها تدل على المأساة العربية والواقع الأليم الذي وصل إليه العرب، وعلى انحطاط إيمانهم بقوميتهم وعدم حبهم للوطن. فإسرائيل ومنذ إنشائها، وهي تتجسس على العرب بواسطة العرب أنفسهم، فكثيراً ما جندت إسرائيل أفراداً عرباً للتجسس على دولهم، وهؤلاء خدموا إسرائيل في بعض الأحيان أكثر مما خدمها مواطنوها، علماً أن العرب من النادر جداً ما نجحوا في تجنيد أحد اليهود ضد إسرائيل، وكثيراً ما سمعنا أو قرأنا عن جواسيس عرب لصالح إسرائيل، وعن الطيارين العرب الذين كانوا يهربون بطائراتهم إلى إسرائيل وكثيراً ما سمعنا عن شبكات عربية مدنية وعسكرية تعمل لصالح إسرائيل، ولكن متى سمعنا عن جواسيس، أو بالأصح عن جاسوس إسرائيلي يعمل لصالح العرب، أو طيار إسرائيلي هرب بطائرته إلى إحدى الدول العربية ؟؟!! .إن هذا الأمر إلى جانب أنه يظهر مدى الضعف والعجز العربي، فإنه أيضاً يظهر مدى التدهور في العلاقة بين الإنسان العربي وقوميته، إن هذه الظاهرة تظهر مدى ضعف إيمان العربي بقضية وإحساسه بالمسؤولية تجاه وطنه وقوميته، وهذا ما يرجعنا مرة أخرى إلى قضية القومية العربية والقومية الإسرائيلية . هذه القضية، هي أنها لم تقتصر فقط على الأفراد والمواطنين، بل تعدت ذلك إلى مجتمعات وطوائف وأحزاب في بعض الأحيان.

باختصار، فإن حرب تشرين التحريرية كانت ذات نتائج إيجابية جداً قياساً إلى الحروب العربية – الإسرائيلية السابقة، وهي حرب لم تكن لتقوم أصلاً لولا الرئيس حافظ الأسد. وبالرغم من تلك الحرب لم تحقق جميع أهدافها المطلوبة المتجسدة بإعادة الأراضي المحتلة بسبب التراجع المصري، فإنها ستبقى الحرب الوحيدة التي يستطيع أن يفخر بها العرب، فقد غيرت تلك الحرب نظرة العالم إلى

العرب، بل غيرت أيضاً نظرة الإنسان العربي إلى نفسه، لقد جعلت الإنسان العربي يتخلص من تلك العقدة التي لازمته طوال حياته، منذ نهاية دولة بني العباس وإلى الآن .

وفي أيلول عام /١٩٧٥/، وقعت مصر اتفاقية سيناء الثانية مع إسرائيل، وكانت هذه الاتفاقية تعني خروج مصر من القتال بشكل نهائي. أما الفلسطينيون فقد ذهبت قضيتهم أدراج الرياح، وحصلت كل من مصر وسورية على قسم من أراضيها المحتلة مع فارق بسيط، وهو أن مصر حصلت على انسحاب تدريجي مستقبلي من سيناء بواسطة السلام والاتفاقيات مع إسرائيل (لم تحصل على سيناء إلا بعد ذلك بفترة)، بينما سورية حصلت على القنيطرة بالقوة، والاستنزاف. وبعد اتفاقية سيناء الثانية بدأت الخلافات العربية تعود مرة أخرى، وكانت هذه المرة كبيرة وعنيفة، وكان قطبا الخلافات هما سورية ومصر. فبعد أن تكشف الموقف المصري المهادن لإسرائيل، أخذت سورية تحمل مصر كل ما حصل في تلك الحرب، وأخذت البلدان العربية الأخرى تحذو حذو سورية أيضاً، وبدأت مصر تختفي شيئاً فشيئاً من العالم العربي وتبتعد عن الدول العربية تدريجياً.وتزايدت الخلافات بين سورية ومصر إلى درجة التباعد والهجوم الإعلامي بينهما، ولكن الأمر وصل إلى نقطة اللارجوع عندما قام السادات بزيارة إسرائيل ووقع على أثر ذلك معاهدة سلام معها، سميت باتفاقية "كامب ديفد"، متجاهلاً كل العرب والقضية الفلسطينية.وقامت جميع الدول العربية بمقاطعة مصر، وتم نقل الجامعة العربية من القاهرة إلى تونس ، وأصبحت مصر معزولة عن العالم العربي.

بعد أن كادت حرب تشرين تحقق هدفها، توقف السادات وانسحب منها، لقد صدم العالم العربي كله من موقف السادات، ومعظم دول العالم، حتى الدول المؤيدة لإسرائيل، لماذا يفعل العرب هذا كله. لقد كانت سورية آنذاك تستطيع عقد اتفاقية سلام مع إسرائيل وتحصل على أراضيها، لكنها رفضت ذلك لكونها، قامت سياستها على الحل الشامل والانسحاب الشامل من الأراضي العربية المحتلة، ورفض الاتفاق المنفرد، وهذا ما ظهر فيما بعد من خلال مفاوضات السلام في مدريد وما بعدها.

الحرب الأهلية اللبنانية :

إن الحرب الأهلية اللبنانية التي اندلعت في لبنان، على مدى ستة عشر عاماً، كانت من الآثار الناتجة عن القضية الفلسطينية، وقد كانت هذه الحرب التي بدأت عملياً وفعلياً في عام /١٩٧٥/، حرباً دموية رهيبة دمرت لبنان تماماً وجرت معها الكثير من الضحايا، وقسمت لبنان إلى عدة كانتونات، واللبنانيين إلى عدة ميليشيات، ولم يعد هناك دولة أما الجيش فقد انقسم إلى قسمين، قسم مسيحي وقسم مسلم وكل طرف انحاز إلى طائفة.

إن الحرب اللبنانية لم تأت من عبث، بل كان لها خلفيات وذيول، وهي شبيهة نوعاً ما بأحداث الأردن من حيث الفكرة والأسباب، ولكنها مختلفة معها بالحجم والأضرار، فضلاً عن أن الحكومة الأردنية استطاعت أن تضبط الأمور بينما فشلت الحكومة اللبنانية في ذلك.

فبعد حرب /١٩٤٨/، نزح كثير من الفلسطينيين إلى لبنان ذي التركيبة الخاصة المختلفة عن العالم العربي، والشبيهة بالمجتمع الغربي إلى حد كبير من حيث العادات الاجتماعية والانفتاح الاقتصادي. وإلى جانب السوق الاقتصادية الحرة كانت أيضاً هناك سوق سياسية حرة، وإلى جانب الترانزيت التجاري، كان هناك ترانزيت سياسي. فكانت معظم الأحزاب السياسية الغير مسموح لها العمل في الأقطار العربية الأخرى لاعتبارات معينة، أو التي ليس لها شعبية، كانت تجد في المناخ اللبناني ذي الدرجة الملائمة لا نبات كل الشتول السياسية مرتعاً خصباً للنمو والتكاثر، كما وجد السياسيون العرب المنبوذون أو المطرودون من بلادهم، وجدوا في هذا البيت الزجاجي مكاناً للعيش وحرية الحركة.

وقد وجد الفلسطينيون مكاناً مناسباً لهم في لبنان الأكثر تساهلاً من الأردن، وجاءت حرب حزيران لتزيد من عدد اللاجئين الفلسطينيين للبنان زيادة كبيرة ، ثم أتت أحداث الأردن لتزيد من أعدادهم .

وتعود أسباب النزاع بين الفلسطينيين واللبنانيين بشكل خاص إلى الصراع مع إسرائيل . فالضربات الفدائية الفلسطينية داخل إسرائيل، كانت تجعل إسرائيل ترد بشكل عنيف على تلك، الضربات، أي

بمعنى أن لبنان كان يدفع ضريبة المقاومة، ولكن الفلسطينيين كانوا يرون أن من حقهم ممارسة العمل المسلح ضد إسرائيل.

ولتأجيج الصراع بين الفلسطينيين والحكومة اللبنانية، كانت إسرائيل أحياناً، تعاقب الدولة اللبنانية عمداً بدلاً من توجيه الضربة مباشرة إلى الفلسطينيين[1] ، كما أن ازدياد أعداد الفلسطينيين قد أثرت على التركيبة الطائفية في لبنان، فغيرت الموازين باعتبار أن النظام الدستوري اللبناني قائم منذ عام /١٩٤٣/ على التوازن الطائفي، بين الطوائف المسيحية والمسلمة في لبنان.

وبدأ المسيحيون يجفلون من هذه التغيرات، التي بدا أنها ستقلب التوازن الطائفي، خاصة بعد أن بدأ الفلسطينيون يتدخلون أحياناً في السياسة اللبنانية. ومن ناحية أخرى، فإن المسيحيين كانوا لا يحبون المشاكل بشكل عام مع إسرائيل .

ولهذا بدأت المشاكل تجد طريقها ليس فقط بين الفلسطينيين واللبنانيين ، بل بين اللبنانيين أنفسهم، فالمسلمون اللبنانيون كانوا يتعاطفون مع الفلسطينيين ومع القضية الفلسطينية، كما أن من جملة الأسباب الأخرى التي أدت للحرب اللبنانية، هو المجتمع اللبناني نفسه، فالعقائد والأفكار كانت مختلفة بين اللبنانيين المسيحيين والمسلمين، وبالإضافة إلى كل هذا جاء التدخل الخارجي و المؤامرات الخارجية لتزيد الفتنة، وهكذا اندلعت الحرب وازداد انتشارها وباتت تشكل خطراً على البلدان العربية المجاورة وخاصة سورية، حيث أن الأراضي اللبنانية تمتد إلى العمق السوري، فهو بمثابة الخاصرة لسورية، إذا أن بيروت على مستوى خط الطول العمودي تأتي خلف دمشق من جهة الشمال، فكيف طرابلس التي هي قرب مدينة حمص الواقعة منتصف سورية. ولهذه الأسباب كانت الحرب الأهلية اللبنانية تشكل خطراً كبيراً على الأمن الاستراتيجي لسورية، خاصة بعد تدخل العوامل الخارجية وتورطها في لبنان، وبالذات إسرائيل التي بدأت تمد مجساتها استعداداً للدخول، كما أن

---

[1] المصدر السابق – السلام المفقود .

سورية ومن منطلق القومية العربية، كانت غريزتها تدفعها لوقف هذه الحرب فوراً، خاصة وأنها جاءت بعد حرب تشرين وفي الوقت الذي كان فيها السادات يعقد الاتفاقيات مع إسرائيل، ولهذا لم يكن لصالح العرب بشكل عام والقضية الفلسطينية بشكل خاص أن تندلع هذه الحرب، وخاصة بعد فشل الاتفاقيات الفلسطينية اللبنانية، كاتفاقية القاهرة عام /١٩٦٩/. وازداد خطر هذه الحرب عندما بدأت تخرج من نطاق السيطرة الفعلية عليها .

وأمام هذه الوقائع، وتحسباً من المزيد من الدمار ومزيد من التدخل الإسرائيلي، تدخلت سوريا أخيراً بناء على طلب الحكومة اللبنانية وبعد محاولات عديدة لحل المشاكل سلمياً، تدخلت بشكل فعلي لوقف "حمام الدم" هذا. فدخلت القوات السورية في /١٣/ أيار عام /١٩٧٦/ إلى لبنان ، وفرضت وقف إطلاق النار، ورجع الهدوء نسبياً إلى ما كان عليه . ولكن التآمر الخارجي وطبيعة النفسية العربية كانا يحولان دون انتهاء تلك الحرب، وهذا ما أثر على سورية كثيراً من الناحية الاقتصادية والعسكرية.

وقد دخلت في لبنان أطراف عديدة فأصبح لكل قطر عربي ذراع فيه، فازدادت تبعاً لذلك الأحزاب السياسية فيه والميليشيات شبه العسكرية.والحقيقة أنه بالإضافة إلى جميع تلك الأسباب المذكورة والتي أدت إلى اندلاع الحرب الأهلية اللبنانية، يبقى هناك سبب وجيه ومهم جداً، ومع أنه سبب خفي وغير ظاهر، إلا أنه قوي جداً، وهو أن الطبيعة العربية لا تتقبل الحرية الزائدة المفرطة كما في العالم الغربي، فالشعوب العربية إذا أعطيت جرعة زائدة من الحرية فإنها ستدمر بعضها البعض، ولهذا فإن الحرية المطلقة هي خطر علمي فالحرية هي تماماً كالسلاح المدمر إذا أسيء استعماله فإنه يؤدي إلى كارثة ، ولهذا لا بد أن يكون هذا السلاح في يد أمينة واعية تقدر خطورة هذا السلاح. فلبنان كان بلداً ذا حريات مطلقة، وانفتاح كبير، ولهذا فقد كانت تلك الأحزاب تعمل بشكل كامل وبملء حريتها وبدون عائق.

وبعد جهد كبير وتضحيات جمة وحكمة نادرة، تمكنت سورية أخيرا من ضبط الوضع في لبنان. وقد شهدت تلك الفترة أيضاً القطيعة الكاملة بين مصر وسورية، وبدا أن الأمر ميؤوس من معالجته، وبالرغم من الوساطة التي كانت تقوم بها السعودية في محاولة لرأب الصدع، وذلك من خلال عقد اجتماعات قمة بين الرئيسين حافظ الأسد وأنور السادات، فإن زيارة السادات للقدس أنهت عملياً كل أمل في المصالحة.

لقد فتحت زيارة السادات لإسرائيل قضايا ومشاكل جديدة في العالم العربي، فقد شجعت بعض الحركات والجماعات على الاتصال والعلاقة مع إسرائيل، فإذا كانت مصر وهي الدولة التي كانت تتصدر الواجهة العربية فيما مضى قد وقعت اتفاقية سلام وصداقة مع إسرائيل، فما الذي يمنع تلك الفئات من التعامل أيضاً مع إسرائيل وبالتالي فإن تلك الفئات قد بررت لنفسها هذا الموقف، وهكذا وبالإضافة إلى الحرب اللبنانية، اندلعت الصدامات بين الحكومة العراقية والأكراد، وظهرت قضية الأكراد .

لكن القصية الفلسطينية لم تنته بعد، فقد عادت من جديد ممثلة أيضاً بالحرب الأهلية اللبنانية، عن طريق اجتياح إسرائيلي جنوب لبنان صيف عام /١٩٨٢/ حيث اجتاح الجيش الإسرائيلي جنوب لبنان ووصل إلى العاصمة اللبنانية بيروت ،واشتبكت القوات السورية مع القوات الإسرائيلية وبذلك نشبت الحرب العربية الإسرائيلية الثالثة، ولكن هذه المرة اشترك فيها طرفان فقط هما سوريا وإسرائيل. وكانت قد حصلت حرب سورية إسرائيلية أيضاً عام /١٩٧٨/ عندما اجتاحت إسرائيل الجنوب اللبناني فقامت القوات السورية وقتها بصد القوات الإسرائيلية، ولكن حرب الـ /٨٢/ كانت حرباً شاملة وعنيفة، وبعد أسابيع من القتال الضاري، تمكنت القوات السورية من صد القوات الإسرائيلية التي اضطرت إلى الانسحاب من بيروت إلى جنوب لبنان لتشكل حزام أمني لها هناك .

ومن الأمور الإيجابية التي حصلت في تلك الفترة وبالذات نهاية عقد السبعينات وكرد على زيارة السادات لإسرائيل وتوقيع اتفاقية كامب ديفد، كان مشروع الوحدة بين سورية والعراق، حيث برزت الحاجة لتعديل كفة الميزان لصالح العرب، بعدما أن خرجت مصر كثقل سياسي وعسكري من كفة الميزات العربية، واتجهت سورية إلى تعميق العلاقات بينها وبين العراق بشكل قوي ومتين، فقام الرئيس حافظ الأسد بطرح مشروع بين العراق وسورية، وهذا المشروع كان من شأنه إذا ما تم أن يكون نواة وحدة عربية شاملة، وأن يقوي بالتالي الأمة العربية، خاصة وأن سورية والعراق بلدان متصلان بالحدود.

في البداية تمت الموافقة على المشروع من قبل العراق، وحصلت عدة لقاءات بين المسؤولين في البلدين، تخللها لقاء قمة بين الرئيسين حافظ الأسد وأحمد حسن البكر، وتم وضع الخطوات العريضة والمبادئ الأولية للوحدة، وفجأة انهار مشروع الوحدة كما ينهار جرف حجارة، فقد حصل انقلاب في العراق وأوقف النظام الجديد مشروع الوحدة من جانبه وقطع المحادثات، وقام بقتل وتصفية جميع المسؤولين العراقيين اللذين كانوا يؤيدون مشروع الوحدة، وبدأ هذا النظام بشن حملة عدوانية ضد سورية من خلال قيامه بأعمال تخريبية فيها[1] .

إذاً فقد خنقت الوحدة وتم إجهاضها قبل ولادتها، لماذا. هكذا. لا سبب معين. لقد أثبتت الأحداث مرة أخرى أن العرب لا يريدون لأنفسهم الخير، وهم فعلاً لا يعرفون ماذا يفعلون، خاصة أنهم وفي غمرة تلك الأحداث، حصل تطور هام جاء لصالح العرب في صراعهم مع إسرائيل. فقد حدثت ثورة في إيران أطاحت بالشاه، وأقامت نظام حكم إسلامي بقيادة آية الله الخميني.وأعلن هذا النظام منذ قيامه وقوفه إلى جانب القضايا العربية، وبالذات القضية الفلسطينية،. وقد قام النظام الجديد بقطع علاقاته مع إسرائيل. وأغلق سفارتها.

---

[1] المصادر السابقة .

ولم تمض شهور قليلة على قيام الثورة الإسلامية في إيران، حتى شن العراق الحرب عليها، وكانت حرب طويلة مدمرة امتدت أكثر من تسع سنوات، ولم يكن من نتائجها إلا ما يلي:

- إضعاف قوة العراق العسكرية وبنيته الاقتصادية .
- تصريف القوة العربية في غير محلها ضد دولة صديقة وإسلامية.
- لم تحقق هذه الحرب أهدافها في استرجاع الأراضي أو القضاء على النظام الإيراني الجديد. بل على العكس. ألهت العرب عن القضية الفلسطينية وأبعدتهم عنها، واستنفذت قواهم في أمور غير ذات أهمية.
- كبدت العرب خسائر بشرية واقتصادية هائلة.
- أضعفت الإسلام والمسلمين بشكل عام، وزرعت بذور الشقاق بينهم .

وتوالت الأحداث وتلاحقت بشكل متسارع في هذه الحقبة الحديثة، وأثبتت جميع تلك الأحداث أن السياسة العربية بشكل عام هي سياسة غير صحيحة ، والمقصود هنا ليس فقط الحكام بل والشعب العربي أيضاً، أي تصرفات الشعب العربي. واليوم لا توجد دولة عربية تقريباً إلا ولها خلافات مع دولة عربية أخرى، وبالرغم من جميع التحالفات السياسية تحدث هناك خلافات وتناقضات. وإذا ما قام بين العرب مشروع اتحادي فإنه لا يلبث أن ينفرط عقده بعد حين.

ولكن لعل أخطر الأحداث العربية التي حدثت في القرن الحالي، هي غزو العراق للكويت، وقد جاء هذا الغزو ليبرهن على أن السياسة العربية ليست خاطئة فقط، وإنما خطيرة جداً وعلى العرب أنفسهم.

فبعد حرب الخليج الأولى مع إيران، والتي أكلت الأخضر واليابس، وخرج الجيش العراقي منها منهوكاً مدمراً، غزا العراق الكويت. ففي ليلة الثاني من آب /١٩٩٠/، عبرت القوات العراقية الحدود ودخلت أراضي الكويت واحتلتها.

الكويت قطر عربي، وعضو في الجامعة العربية وله دولة ومجلس وزراء وبرلمان، والعراق هو أيضاً عضو في الجامعة العربية، وعبارة عن دولة رسمية تماماً كالكويت. واللافت للنظر أن العراق كان قد أطلق

قبل غزوه للكويت شعارات قومية عربية وشعارات مناهضة لإسرائيل ، والغريب أيضاً أن العراق برر شن حربه على إيران بأنها حماية المنطقة العربية من الخطر الإيراني على حد زعمه، ولكنه ومع هذا غزا دولة عربية رسمية وعضو في الجامعة العربية.

وقد أثر حرب الخليج الثانية أنها وجهت ضربة قاضية للعرب من جميع النواحي، فقد قسمت أولاً المجتمع العربي، وأثارت النزاعات والصدامات بين العرب، وولدت ليهم كراهية كبيرة لبعضهم البعض. فبعد الغزو العراقي للكويت، تشكل مباشرة في الساحة العربية طرفان، الطرف الأول أيد عملية الغزو ورحب بها، وهذا دليل على أن العرب حتى الآن لم يحفظوا درسهم ولم يعوه، وأنهم باقون هم نفسهم كما كانوا، وإن القومية العربية غير معروفة لدى معظمهم حتى الآن ولا الرابطة العربية.أما الطرف الثاني فقد عارض هذه العملية معارضة تامة، نظراً لأنها سابقة خطيرة من نوعها، وتهدد التضامن العربي القائم على قشة،ولأول مرة تحصل في المنطقة العربية، لأول مرة يحصل أن تغزو دولة عربية، دولة عربية أخرى، بهذا الشكل، فكل الحروب السابقة كانت تتم في الغالب على يد طرف خارجي، أما أن يغزو العرب عرباً، خاصة وأن الدولتين عضوين في الجامعة العربية، فهذا أمر جديد.

والجدير بالذكر أنه في فترة الثمانينات كانت قد نشأت بعض الروابط بين العرب، فظهر هناك مجلس التعاون المغربي ويضم دول المغرب العربي، ليبيا تونس والجزائر والمغرب، ومجلس التعاون العربي الذي ضم كل من مصر والأردن والعراق واليمن. ومجلس التعاون الخليجي والذي يضم دول الخليج العربية.

وعندما حصل الغزو كانت هناك أطراف معارضة وأخرى مؤيدة في نفس المجلس (عدا مجلس التعاون الخليجي)، فمصر لم تؤيد الغزو، بينما الأردن واليمن وقفا إلى جانب العراق، وفي الحال نسف مجلس التعاون العربي، وفي مجلس التعاون المغربي حصل أيضاً نفس الشيء عندما ظهر اختلاف وجهات

النظر، والتباس المواقف. وهذا الأمر إن دل على شيء فإنه يدل على هشاشة مركزية القرار والرأي الواحد العربي، وإن العرب ليس لدبهم أي سياسة ثابتة على الإطلاق، بل تحركهم أهواؤهم وميولهم .

وهكذا انقسم الصف العربي، وبدأت الاتهامات بين العرب. فالأردن والسودان واليمن والفلسطينيون بشكل عام في الأراضي المحتلة ومنظمة التحرير الفلسطينية وقفوا مع العراق، بينما وقف باقي العرب ضد الغزو العراقي للكويت، وأخذت الشتائم تطلق من الجانب الأول على الجانب الثاني، وتتهمه بالخيانة ولماذا. هم أنفسهم لا يعرفون .

ما الذي فعلته الكويت أو بالأحرى الدول النفطية للعرب غير المساعدة وتقديم العون. لقد ظهرت الصورة الآن واضحة جلية، لقد ظهرت صورة العرب على حقيقتهم. والحقيقة أن الحقد والكره متأصلان فينا منذ نشأتنا، والغريب أن الدول المؤيدة للغزو أخذت تصف الدول المعارضة له بأنها دول خائنة، وكأن العراق قد غزا إسرائيل، ولو افترضنا أن العراق قد غزا فعلاً إسرائيل فإنه لن يحصل على نصف التأييد الذي حصل عليه عند غزوه الكويت.

هذه حقيقة من حقائق العرب، وهي تثبت أن العرب لا يعرفون شيئاً اسمه قومية عربية، وهذا يرجعنا مرة أخرى إلى قضية القومية العربية والقومية الإسرائيلية، لقد أيد بعض الفلسطينين الغزو العراقي، علماً بأنه كان من المفروض أن يكونوا أول المعارضين، لأنهم يعرفون ما معنى الغزو، كيف يريدون أن تعود لهم أراضيهم المحتلة وهم يؤيدون غزو دولة عربية لدولة عربية.

وبعد غزو الكويت طلبت الدول الغربية وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية من العراق الانسحاب من الكويت وإلا فإنه سيتعرض للحرب، وتبعاً لذلك تشكلت مجموعة الحلفاء من الدول الغربية والدول العربية المعارضة للغزو العراقي، ورفض العراق الاستجابة، فنشبت الحرب ودمرت ما بقي من قوات عسكرية لدى العراق التي هي مدمرة أصلاً، كما دمرت كل منشآته الاقتصادية والحيوية، وقبل نشوب الحرب وحرصاً على تدارك الكارثة قبل وقوعها بعث الرئيسان ، السوري حافظ الأسد ، و المصري حسني

مبارك رسالتين إلى الرئيس صدام حسين يطالبانه فيها بالانسحاب من الكويت وعدم تعريض العراق والشعب العراقي لحرب لا أمل في كسبها، وقد تعهد الرئيس حافظ الأسد في رسالته إلى الرئيس صدام حسين بالوقوف إلى جانب العراق، إذا تعرض إلى هجوم عسكري وذلك إذا انسحب من الكويت ، كما لفت نظر الرئيس العراقي إلى الأخطار الجسيمة المحيقة بالعراق والأمة العربية في حال بقي الغزو العراقي للكويت ولم ينسحب العراق منها.

وخلال الحرب التي سميت "عاصفة الصحراء" خرجت عدة مظاهرات في الدول المؤيدة للعراق، لتهاجم دول الخليج و الدول المؤيدة لها وتنعتها بالخيانة، وكأن تلك الدول هي التي غزت غيرها، وكأنها لم تعمل في يوم من الأيام من أجل القضية الفلسطينية والقضية العربية.

و من مداخلات حرب عاصفة الصحراء، أن العراق قام بقصف كل من تل أبيب والرياض بالصواريخ متوسطة المدى لديه، الآن أصبحت الرياض العاصمة العربية الإسلامية مثل تل أبيب، الرياض التي كانت تتحمل الدعم المالي للفلسطينية، والتي كان لها دور أساسي وفاعل في مختلف القضايا العربية والإسلامية، أصبحت هدفاً للصواريخ فلماذا ؟؟ !! . هذا هو الموصول الذي وصلنا إليه أخيراً، هذا أحدث ما توصلت إليه مبتكراتنا في ضرب بعضنا البعض بالصواريخ، كل هذا باسم القضية الفلسطينية ومن حسن حظنا أننا لا نملك السلاح النووي .

ومن مفارقات هذه الحرب أيضاً، أن العراق عاد وأعلن أن حربه مع إيران هي حرب خاطئة، وأنه كان لا يجوز محاربة إيران. وبعد أن دمر العراق نهائياً في حرب الخليج الثانية، أعلن انسحابه من الكويت، وانسحب فعلاً منها، وكأن الأمر تسلية ومزاح .

من خدم غزو الكويت ؟؟ . لقد خدم بالدرجة الأولى إسرائيل ثم الدول الغربية. وبمن أضر ؟؟ . أضر بالعرب بالدرجة الأولى ولا قوم سواهم، أضر بالقضية الفلسطينية، لا بل نهاها، دمر العراق تدميراً كاملاً، وقضى على كل مكونات الدولة فيه، جعل العالم يقتنع بأن إسرائيل هي ليست هذه الدولة العدوانية،

وهي فعلاً ليست بمأمن ويجب دعمها بالسلاح والمال. خلق عداوات وأحقاداً جديدة بين العرب، وجعلهم تحت رحمة الغرب، الذي باع فائض أسلحته للعرب وربح المليارات. هذه هي حال العرب والأمة العربية. هذا هو التاريخ العربي، أخيراً وصل العرب إلى هذا الموصول المخزي، أمة ممزقة ضعيفة لا حول لها ولا قوة، أمة متخلفة عاجزة تعيش وتقتات على الغير، والمشكلة تكمن في أساسها في الشخصية العربية، شخصية الإنسان العربي في أفكار وعقيدة هذا الإنسان.

وإذا نظرنا من خلال التاريخ، نظرة عابرة، من الجاهلية وإلى الآن، لرأينا التحولات الجذرية التي تعرض لها الإنسان العربي، سواء الاجتماعية أو الدينية أو السياسية.

لقد تبدلت شخصية الإنسان العربي من عصر الجاهلية مروراً بصدر الإسلام فالعصر الأموي والعباسي إلى عصر التمزق والضياع، تبدلاً جذرياً، وتغيرت معالمها النفسية والسيكولوجية تبعاً للظروف السائدة في تلك الفترات، وفي كل الأحوال، فقد حافظت التصرفات العربية على سلبياتها وطورتها تبعاً لتلك التغيرات، فالشخصية العربية وبالرغم من تبدل معالمها في تلك الفترات التاريخية، إلا أنها بقيت محافظة على مكوناتها الباطنية وتصرفاتها السلبية اللاشعورية، وهذا ما حدا بها إلى الاستمرار في انحطاطها وتخلفها عن الركب الحضارية.

إن الشخصية العربية السائدة اليوم، هي شخصية لا مبالية، شخصية مستهترة ومهيجة فكرياً وعقلياً ومبرمجة على نظام سلبي لا تحيد عنه، شخصية تتأرجح بين الفوضوية والعصبية وغير قادرة على التحليل العلمي والتخطيط، وتهرب لا شعوراً من الواقعية والعملياتية، ولا تؤمن بشيء على الإطلاق، ولا تعرف ماذا تريد. هي شخصية مذهبية بالدرجة الأولى و تتبع المذهب أولاً و أخيراً ، و حتى و إن كانت تتبع لسياسة أو حزب سياسي أو اجتماعي أو أي شيء آخر ، فهي بالنهاية تسقط كل أوراقها و حساباتها على المذهب و الطائفة الدينية و لا تصرف في النهاية و تصدر حكمها على قضية معينة .. أية قضية مهما كانت ، إلا من خلالهما .

إن أي مطلع على التاريخ العربي منذ الجاهلية وحتى الآن، يستطيع أن يلاحظ هذا التجانس الكبير في التصرفات، العربية، فهذه التصرفات لم تتغير بل بقيت كما هي منذ قرون عديدة،ونستطيع أن نلاحظ مما سبق شرحه في هذا الكتاب، أنه حتى الأحداث التي مرت بالأمة العربية والنكبات التي تعرضت لها، كانت متشابهة إلى درجة كبيرة. فتقريباً نفس الأحداث التي كنا نتعرض في الماضي نتعرض لها الآن.

إذاً وعلى ضوء هذا الكلام، نستطيع أن نقول أن التاريخ العربي يعيد نفسه دائماً، بل هو عبارة عن مشهد واحد تتكرر فصوله دائماً على الساحة العربية هذه الأمور كلها أثرت على شخصية الإنسان العربي الحديث ، وإذا قمنا بعملية كشف وجرد للمراحل التي مرت بها الأمة العربية، لرأينا أن المرحلة الحالية هي أسوأ مرحلة تمر بها الأمة العربية، لأنها مرحلة تراكمت فيها أخطاء الفترات الماضية، دون تصحيح وتفادي تلك الأخطاء.

يجب أن نعترف بخطئنا، أن مأساتنا على مدى ثلاثة عشر قرناً تقريباً، تدل علة وجود خطأ، شيء ما أدى إلى هذا الوضع، خاصة وان هذا الخطأ لم يأت منذ قرن أو قرنيين بل أكثر بكثير.

من خلال استعراض الأحداث السابقة، نرى أن السياسة العربية، سياسة الإنسان العربي الحالي سياسة خاطئة جداً، وهي تنبع من الإنسان العربي نفسه، وإن فكرة مقولة أن الغير أو الاستعمار هو السبب في ما حصل، هي فكرة ليست صحيحة مئة بالمئة، وهناك الكثير من البراهين التي تنقض هذه المقولة.

الاستعمار لا علاقة له بنا، الاستعمار لم يفرقنا بل نحن فرقنا أنفسنا، الاستعمار لم يؤخرنا بل نحن أخرنا أنفسنا، الاستعمار لم يدمرنا بل نحن دمرنا أنفسنا بأنفسنا،إن الاستعمار استغلنا فقط، استغل أرضنا وخيراتنا. حتى قضية الحدود السياسية وفكرة أن الاستعمار وضعها، هي قضية مشكوك بها ويشوبها الكثير من الغموض والتأويل، قد يكون الاستعمار لعب دوراً ما، ولكنه ليس بالدور الكبير، إن القضية قضيتنا نحن، والفرقة تجري في دمائنا، نحن من صنع هذه الحدود ووضعها، نحن قسمنا أنفسنا إلى أقطار

عربية، ربما يكون الاستعمار قد خطط ولكن نحن من نفذ، وحتى التخطيط نفسه ربما يكون من تخطيطنا نحن.

لقد قمنا في الماضي بفتوحات كبيرة وواسعة وفي عدة بلدان وأمم، فهل فرقنا أو استطعنا أن نفرق بلداً واحداً أو أمة ما من هذه الأمم، بالتأكيد لا. لقد بقينا في الأندلس ثمانية قرون، فهل استطعنا تفرقتها إلى عدة بلدان، بالتأكيد لا. بل نحن الذين تفرقنا فيها، وذبحنا بعضنا البعض فيها. هل نهبنا خيرات بلد من البلدان التي فتحناها. لا. كل البلدان التي فتحناها طردتنا ثم عادت واحتلت أراضينا. كل البلدان التي فتحناها في الماضي نشرنا فيها الإسلام، ولكننا لم ننشر العروبة والقومية العربية، بينما عندما احتلتنا تلك البلدان، عملت أول ما عملت على نشر لغتها وتراثها وقوميتها، بل حتى حاولت محو قوميتنا وأمتنا وتراثنا.

و المصيبة الكبيرة هنا ، هي أن بعض العرب الآن في الوقت الحاضر ، ينكرون القومية العربية علناً و بشكل علني و صريح و لا يعترفون بوجودها ، و أنها ضد الإسلام ... هل القومية تخالف الإسلام ؟؟؟!!!!!!!!!!! عجيب أمرنا نحن العرب ، لماذا نكره قوميتنا إلى هذا الحد و نعتبرها عدو للإسلام و الإسلام عدو لها ، بينما هي و الإسلام صنوان . ألم تقل الآية الكريمة [كنتم خير أمة أخرجت للناس ..] (آل عمران 110) و جاء أيضاً [إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون] (يوسف ٢) . و جاء [و كذلك أنزلناه حكماً عربياً و لئن اتبعت .....] (الرعد ٣٧) . و أيضاً [و كذلك أنزلناه قرآناً عربياً و صرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون .....] (طه ١١٣) . و أيضاً [بلسان عربي مبين] (الشعراء ١٩٥) . و [قرآناً عربياً غير ذي عوج لعلهم يتقون](الزمر ٢٨) . و [كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون] (فصلت ٣) . و [و كذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر أم القرى و من حولها و تنذر ......] (الشورى ٧) . و [إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون] (الزخرف ٣) . و [و من قبله كتاب موسى إماماً و رحمة و هذا الكتاب مصدق لساناً عربياً لينذر الذين ظلموا ...] (الأحقاف12) . لماذا نضحي بقوميتنا على مذبح الغير بينما الغير عندما يحتلنا أو احتلنا

في الماضي احتفظ بقوميته كالفرس و الأتراك و العثمانيين و غيرهم ؟؟!!! سبحان الله ، يعني لن نكون مسلمين إلا إذا أنكرنا أننا عرب و رب العزة و الجبروت فضلنا بهذه النعمة و كأننا نقول له يا رب لا نريد هذه النعمة.

إننا نسأل أولئك الحكام المتسرين بالجواري و من لف لفهم بالتأييد و الفتيا ، و من أجاز إمارة الغريب الأعجمي فقط لكونه مسلم ، نسأل .. هل تمكنت جارية أو سبية عربية في بلاد الأعاجم من إيصال ابنها الذي حملت به من حاكم ذلك البلد ، هل تمكنت من إيصاله لسدة الحكم هناك ؟؟ .

إذاً يصح القول أن السياسة العربية هي سياسة خاطئة وغير منطقية وإن الفترة الحالية التي يعيشها العرب الآن هي أسوأ فترة في حياتهم، والوضع العربي الآن هو أخطر من أي وقت مضى.

لننظر الآن في الصورة الحالية التي يعيشها العرب فماذا نرى. نرى هناك أمة مفككة إلى عدة أجزاء، وهذه الأجزاء بعضها أصبح للغير، والبعض الآخر من هذه الأجزاء قد يتفكك إلى أجزاء أخرى، والبعض الآخر كان سيتفكك إلى أجزاء أخرى نرى أيضاً أن شعوب تلك المنطقة هي شعوب فقيرة ، ليس لديها أي نوع من أنواع التكنولوجيا خاص بها، وليست لديها أي قدرة على الإنتاج الصناعي الجديد، أي بمعنى أنها لا تنتج ٩٥٪ من الأشياء التي تستهلكها، بل تستوردها من الخارج، إنتاجها بدائي وتقاليدها بدائية، وتتأثر جداً بالعادات القديمة.

ثم لننظر إلى وضعها السياسي ، فنرى أنه ليس لديها أي تأثير سياسي بما فيه الجانب العسكري ، على أية قضية في هذا العالم، كما أنها لا تملك أية قدرة على التأثير في مجرى الأحداث السياسية التي تتعلق بها، كما أنها نادراً ما تتفق على رأي سياسي موحد، ونادراً ما تجتمع في قواسم سياسية مشتركة، ثم لننظر إلى علاقات تلك الدول أو الشعوب مع بعضها البعض (بالرغم من كونها شعب واحد)، فنرى أنها تعيش أقصى حالات التنافر وتسود بينها علاقات الكره والخلاف. لقد امتلأت الأمة العربية بأحزاب كثيرة

وتيارات عديدة، وظهرت فيها حركات سياسية كثيرة، معظمها نشأ على خلفية القضية الفلسطينية، وهي ذات طابع محلي لا يتجاوز بقعة محددة.

ولننظر أيضاً إلى الجانب الإنتاجي والعلمي عند العرب، إننا نجد هناك تخلفاً كبيراً على مستوى الإنتاج الصناعي، وهو لا يقتصر على قطر عربي دون آخر، بل يشمل في الحقيقة جميع الأقطار العربية بلا استثناء. ومن البديهي والمعروف أن قطاع الصناعة هو عماد وأساس الحضارة في أي مجتمع أو بلد، فالبلدان الرأسمالية المتقدمة، هي بلدان صناعية بالدرجة الأولى وتعتمد على الإنتاج الصناعي، سواء في تقوية اقتصادها أو في تفوقها الحضاري، وحتى الدول الاشتراكية، فهي أيضاً تعتمد على الإنتاج الصناعي، ففي الاتحاد السوفييتي السابق، عملت الثورة الاشتراكية أول ما عملت عند قيامها، على إنتاج وسائل الإنتاج الصناعية الثقيلة. حيث أصبحت الصناعة المتطورة الآن هي الشكل السائد في جميع دول العالم المتجه نحو التقدم والتطور. فحتى الدول التي كانت متخلفة نوعاً ما في السابق كتايوان وكوريا وسنغافورة، قد انخرطت الآن في مجال الإنتاج الصناعي. وإذا أردنا معرفة الدول التي تتبع الصناعة، أو التي لديها وسائل الإنتاج وتكنولوجيا الإنتاج، لرأينا، أنها كل الدول ما عدا دول وشعوب العالم الثالث ومنها الشعب العربي .

إن الأمة العربية هي أمة غير منتجة على الإطلاق، والشعب العربي هو شعب غير منتج، والسبب الأول يعود إلى العجز عن الإنتاج، أي بمعنى أننا لا نستطيع الإنتاج، لأننا لا نعرف أن نصنع وليس لدينا أية إمكانية للصناعة والإنتاج حتى الصناعة الأولية البسيطة. ويمكن معرفة وقياس مدى تخلف الصناعي العربي عن الدول الصناعية، بمقارنة الصناعة العربية الحالية، بالصناعة الأوروبية في بداية الثورة الصناعية في أوروبا، فالصناعة العربية حتى الآن لم تصل إلى مستوى الصناعة في أوروبا، أيام الثورة الصناعية، أي أننا متخلفون عن الغرب بحوالي أربعة قرون، وصناعاتنا حتى الآن تقتصر على الأقمشة

والحرير والسيوف والصناعات الخشبية وما شابه، وهذه في الحقيقة ليست صناعة بالمعنى الصناعي، بل مجرد حرف مهنية لا تغني من جوع .

أما الصناعات العربية الأخرى ، كصناعة الأدوية وتركيب بعض الأدوات والمعدات، فهي إذا توخينا الدقة تجمع ولا تصنع، كما أن المعامل التي تنتج هذه الأدوات هي ليست منن إنتاج عربي، بل هي مستوردة من الخارج ويقتصر الدور العربي فقط على المراقبة والتشغيل والتجميع، أما عملية الإنتاج التكنولوجي الكبير بشكله الواسع، فهي ليست موجودة عند العرب إطلاقا، فما بالنا بالتكنولوجيا الصناعية المعقدة، فحتى الآن نحن عاجزون عن صنع سيارة أو طائرة أو آلة أو أداة كهربائية.

ومن ناحية الاقتصاد، فإن الاقتصاد العربي منذ نهاية العصر العباسي، قد تدهور بشكل كبير وأصبح مشلولا وكسيحاً، فمعظم الدول العربية الآن هي في حالة عجز اقتصادي وتعتمد بشكل كبير على القروض الخارجية والتبرعات، وفي بعض الأحيان تعتمد على استيراد المواد الغذائية الأساسية كالحبوب، وهذا دليل على مدى الضعف والعجز في مجالات التنمية الاقتصادية الزراعية، أما بالنسبة للتجارة العربية، فإنها عبارة عن تجارة وسيطة مستهلكة أكثر منها إنتاجية، يضاف إلى ذلك تبعية الأسواق العربية ومجمل التجارة العربية للأسواق الخارجية، وعدم قدرة السلع والمنتجات العربية حتى تلك الخاصة بالعرب وتعتبر جزءاً من تراثهم واختصاصهم، على منافسة السلع الأجنبية. وطالما أن هذه المفاهيم الثلاث، الصناعة والزراعة والتجارة، والتي هي أساس الاقتصاد الوطني في أي مجتمع، هي حتى الآن غير متقدمة في الدول العربية، ومتخلفة قياساً للدول الأجنبية، فإن الاقتصاد العربي هو اقتصاد ضعيف غير مجد.

وإذا توخينا الدقة أكثر ، فسنرى أننا عاجزون عن صنع أي شيء ، لأنه ليس لدينا القدرة على ذلك ، وليس لدينا الإمكانيات ولا المؤهلات التاريخية أو الاجتماعية أو النفسية لذلك هذا بالإضافة إلى الأحداث التاريخية التي فعلت فعلها في تخلف الوطن العربي عن الركب الحضاري .

كل العالم المتحضر يتجه الآن إلى الإنتاج والصناعة ، وحتى هناك دول من العالم الثالث والدول النامية، بدأت منذ مطلع هذا القرن بتحسين أحوالها وأخذت تطرق باب التكنولوجيا والعلم، وبعضها قطع شوطا لا بأس في هذا المجال، بينما الأمة العربية حتى الآن مازالت في عداد الدول المتخلفة، فالعرب الآن عاجزون حتى إلى الوصول إلى مرحلة بداية الثورة الصناعة في أوروبا، عاجزون عن تصنيع ما كان يصنع منذ أربعة قرون، حتى التصنيع البدائي عاجزون عنه. السلاح عندنا من الخارج، المرافق الحيوية والمعدات الكبيرة والصغيرة من الخارج، وسائط النقل والكهرباء والإلكترونيات من الخارج، كل ما عندنا من الخارج، إذا ماذا يوجد في الداخل. لا يوجد سوى الحرف البدائية التي ورثناها أباً عن جد، مثلما ورثنا كرهنا لبعضنا البعض أباً عن جد.

ما الذي يمنع الأمة العربية من استعادة أمجادها الغابرة، ما الذي يمنع العرب من أن يصبحوا مثل اليابان أو أوروبة أو أمريكا أو روسيا، ماذا ينقص العرب لكي يكونوا أصحاب حضارة ورواد علم، لقد مرت فترة كانوا فيها حكام العالم، وكانت السياسية العربية هي سيدة القرار، والتجارة العربية كانت هي المتحكمة، والبضائع العربية هي سيدة الأسواق. لقد انكفأت مسيرة التقدم العربي بسرعة هائلة، وبتسارع زمني كبير، فوصلت إلى نقطة منحدرة من الانحطاط واستقرت عليها.

وترافقت مع حالة الجمود تلك، حالة الانعزال عن الوسط الخارجي، ولفترة طويلة جدا، وهذا ما أثر على شخصية الإنسان العربي وجعلها تعتاد على الجمود والسكينة، تماما كما في حالة السجين لفترة طويلة، حيث يفقد الإنسان في هذه الحالة كل قدرة له على استعمال مداركه وقواه العقلية، ويصبح عاجزا عن التأقلم مرة أخرى مع أية مستجدات جديدة قد تطرأ عليه، وحتى أعضاء الجسم إذا بقيت فترة زمنية دون عمل، فإنها تفقد قدرتها تدريجيا على العمل وتضمر.

وأيضاً فإن حالة العزلة والجمود التي أصابت العالم العربي لفترة طويلة، قد أدتا إلى نوع من الشلل الفكري في عقلية الإنسان العربي، وأصبح من الصعب والعسير عليه استرجاع تلك القدرات الذهنية

والفراسة التي كانت موجودة في الجاهلية وبداية العصر الإسلامي. وهذا ما يلاحظ الآن في ممارسات وتصرفات الإنسان العربي الحديث، فبالرغم من حدوث تغيرات كثيرة في الفترة الحديثة، فإن الإنسان العربي لا يزال حتى الآن متأثراً بفترة الجمود والانكسار، ولا زالت جذور الماضي متغلغلة في عقله وتفكيره وإن كانت بدرجات متفاوتة، وهنا يطرح السؤال التالي : هل طبيعة التطور البشري وطبيعة التغيرات الاجتماعية والسياسية في شعوب ومجتمعات العالم، منذ ظهور الإنسان وحتى الآن، هل هي عفوية، أم تخضع لحسابات مسبقة ؟. هل هي نتيجة لظروف طبيعة أم هي نتيجة لظروف تاريخية معينة ونتيجة لتفكير إنساني وتخطيط بشري، أي هل للإنسان يد فيها.

من الصعب تحديد طبيعة التطور البشري بشكل دقيق، فهناك اختلاط وتمازج في ذلك، فعملية تطور البشرية في الواقع تخضع للعاملين معاً، فهي من ناحية، عملية عفوية تخضع للفكر الإنساني المتحول بالفطرة من الشكل البدائي إلى الشكل المتحضر، وهذه طبيعة حتمية. ومن ناحية أخرى فهي أيضاً قد خضعت لظروف معينة أثرت بها وحورتها وأحياناً طورتها، أو جمدتها وأخرتها. فالأمة العربية تنطبق عليها هذه المقولة تماماً، وهذه المقولة قد تفسر لنا بعض الشيء أسباب التردي العربي الحالي، فالإنسان العربي قد حفزته عفويته وطبيعة تفكيره وعقيدته المتأثرة بالبادية في الجاهلية وصدر الإسلام ، إلى التطور والإبداع، وحفزته أيضاً الظروف والأحداث الجديدة في العصر الإسلامي، على التطور من مرحلة إلى مرحلة. وعفويته أيضاً هي التي جعلته ينزع مرة أخرى إلى التدهور والانحطاط، وهذا ما تم ذكره في بداية الكتاب .

إذاً فهناك علاقة بين طبيعة الشعوب وبين الأحداث أو الظروف التي تحصل لهذه الشعوب، وهي علاقة ذات تأثير متبادل، فكلا الطبيعتين تؤثران ببعضهما البعض وتتفاعلان حسب قابلية كل منهما للتفاعل مع الأخرى. وهذا ما يفسر لنا كيف أن طبيعة النفس العربية استقبلت الإسلام ثم كيف أثرت فيه واثر هو فيها، وكيف تأثر هذا الموضوع بمجمله هو الآخر بالأحداث الخارجية كالاحتلال الأجنبي للوطن

العربي، فكأنه جاء مطابقاً لبعضه البعض. فمنذ القدم لم يعتد العرب على احتلال الأمم الأخرى المجاورة بل على العكس كانوا هم يتعرضون للاحتلال، اليوناني والروماني والفارسي الخ، هذا يسمى حدث خارجي ، وهذا الحدث الخارجي أثر على طبيعة وعفوية الإنسان العربي الذي يعيش في البادية والتي من سماتها الكرم وحسن الأخلاق، ولذلك جعلته هذه الطبيعة لا يتعدى على الغير، ولا يقبل بالتالي التعدي عليه، وجعلته هذه الطبيعة المستقرة يكره الخضوع والتبعية، ولا يقبل إلا بالخضوع لشيخ القبيلة ولا يقدم ولاءه إلا لقبيلته التي ينتمي إليها فقط. هذه العفوية .بقيت مغروسة لديه، ولهذا فعندما جاءه الإسلام ، وهو حدث جديد ، تفاعلت تلك العفوية مع ذلك الحدث ، فأثرت عليه و أثر هو عليها ، وكان من نتيجتها أن انقسم الإسلام إلى مذاهب عديدة ، وأصبح الولاء للمذهب بدلاً من القبيلة والسمع والطاعة لشيخ الدين بدلاً من شيخ القبيلة ، وبالتالي بقيت الأشياء الأساسية على حالها، وكل ما تغير هو الرموز، وبقيت هذه العفوية مستمدة من العقل الباطني للإنسان العربي.

فعفوية الولاء للقبيلة أفرزتها طبيعة حياة الإنسان العربي في الصحراء العربية، حيث أنه بشكل عام لم يكن يرى ما وراء مجتمعه الصحراوي لأنه لم يعيش خارج الصحراء التي نشأ فيها، ونتيجة لتنقله وترحاله في تلك الصحراء مع قبيلته، وعدم اعتماده على أي عمل سوى الرعي وتربية الماشية، ترسخ ولاؤه لقبيلته، التي هي حسب اعتقاده مسبب عيشه وبقائه ورزقه. ولما جاء الإسلام، لم يأته من الخارج، بل من الداخل ومن نفس مجتمعه الذي هو فيه ومن نفس قومه ونفس لغته، فاعتقد بشكل غير مباشر إن الإسلام جاءه هو فقط، وأنه خاص به، وانه بشكل أو بآخر لا يتعارض مع نشأته وحياته، وعندما أخذ الإسلام دوراً في قيادة هذا الإنسان العربي بدل القبيلة، برزت عفوية الولاء للدين الإسلامي، ولكنها باعتقاد الإنسان العربي مرتبطة بالعفوية السابقة ومنبثقة عنها. فقد ألغى الإسلام عادات الجاهلية، وجاء بمفاهيم جديدة على الإنسان العربي، ولكن عفوية الولاء للإسلام لم تستطع إلغاء عفوية الولاء للقبيلة نهائياً، ولهذا ظهر الانقسام مجدداً، ففي بداية العصر الإسلامي، وبالتحديد في فترة قيام دولة بني أمية، توحدت الأمة العربية سياسياً، وقامت بالفتوحات الواسعة، ولكن النفسية العربية التي هي غير مهيأة

للخروج، خارج الأرض العربية،والاختلاط بالأمم الأخرى، قلد لعبت دورا في تفكيك الكيان العربي فيما بعد، وهنا أيضاً حدث التفاعل مع النفسية العربية، حيث أدى ذلك إلى سيطرة العنصر الأجنبي على الأمة العربية، ويمكن تفسير جميع الأحداث اللاحقة على هذه النحو، فأهم أسباب الانحطاط العربي، هو التأثير الخارجي على شخصية الإنسان العربي، وصفات الشخصية العربية نفسها، فالحملات المتتابعة على الأرض العربية ، المغولية والصليبية ثم العثمانية ، كلها قد ساهمت في ضرب فكر الإنسان العربي وشله تماماً، كما أن شخصية الإنسان العربي وسيكولوجيته، جعلته مهيأً لتقبل العزلة، حيث أن البادية كما ذكرنا، جعلت الإنسان العربي قديماً لا يميل إلى الاختلاط كثيراً، ثم جاءت تلك الحملات التي حكمت العرب باسم الإسلام، وطوقتهم وعزلتهم عن الخارج، فتفاعلت الشخصية العربية بشكل لاإرادي مع هذا الواقع، وجبلت معه بخليط واحد جف فيما بعد، وأصبح صلباً كالصخر، وهذا الشيء نراه حتى الآن في الصفات العربية، فنحن العرب ليس لدينا أي قدرة على التجديد والابتكار، كما أننا لا نتمتع بإمكانية المحاكاة العلمية المجردة، بل ننجذب بشكل غير مباشر نحو العاطفة والخوف من الماضي. كل هذا جعل الشخصية العربية تتميز بالحساسية المفرطة والشكليات الجوفاء وتبتعد عن العملياتية، فنحن العرب بشكل عام لا نحب العمل بل نكرهه ، نحن فقط نحب الاسترخاء والرفاهية، ونهرب بشكل لا شعوري نحو التقاليد الماضية، فالعاطفة هي التي تتحكم في العقل العربي وتوجهه وتسيطر على تصرفات الإنسان العربي.

إن النزعة التي نملكها نحن العرب، نزعة الضيافة والمجاملات والاستقبالات والكماليات والقرابات، قد أثرت فينا تأثيراً كبيراً، فحب الضيافة ورد الزيارات والدعاء والاطمئنان على صحة الغير عند مقابلته والسؤال بشكل مستفيض عن أحواله، نراها شبه معدومة عند المجتمعات المتقدمة، فالفرد في هذه المجتمعات ليس لديه الوقت الكافي للمجاملات والزيارات.

كتب أحمد أمين في كتابه فيض الخاطر يقول " والحق أننا لو قارنا بين الغربيين والشرقيين، لوجدنا أن الشرقيين تغلب عليهم طبيعة الحزن والاكتئاب، وهذا ما يلاحظه الغربيون على الطلبة الشرقيين، فنحن إذا حدث ما يستوجب الحزن، أفرطنا فيه، كما يحدث في الوفيات، نبالغ في البكاء على الميت وننغص حياتنا لأجله مدة طويلة، ونقيم التقاليد الكثيرة من مأتم وأربعين على أن الغربي يحزن، ولكن برفق وهوادة، ويرى أن الحدث يكاد يكون أمراً طبيعياً، وكثير منا إذا لم يجد سبباً من أسباب الحزن خلقه "[1] . هذه الأمور كلها تعطينا بعض التفسيرات للوضع الراهن الذي يحصل معنا.

لقد أبعدتنا العادات الموروثة، والتقاليد المكتسبة، أبعدتنا عن الحضارة الحديثة بشكل كبيرة، أبعدتنا عن المادية العلمية، والآن معرضون أكثر من أي وقت مضى للخطر، لأننا أصبحنا بدون سلاح وبدون عوامل البقاء والحماية.

ويرى علماء الطبيعة والاجتماع أن للتطور الإنساني عدة أنواع منها تطور الإنسان لحماية نفسه، وتطوره ليناسب محيطه. وإذا نظرنا إلى المجتمعات البشرية، لرأينا أن جميع الدول ذات الحضارة والتقدم، قد عملت في هذين النوعين. فكل الدول والمجتمعات، قد طورت نفسها مع الزمن لحماية نفسها، وكلها طورت نفسها لتناسب محيطها، فطورت صناعاتها وأسلحتها وغيرت من علاقاتها الاجتماعية مع مرور الزمن، وما ظهور المفاهيم الاجتماعية والحكم القديمة والكتب الفلسفية، إلا نتيجة لهذا التطور .

ومع مرور الزمن ظهرت نظريات اجتماعية وسياسية عديدة، وكلما تقدم الزمن ظهرت علاقات اجتماعية جديدة، ويؤكد صحة هذا الكلام، تاريخ نشوء البشرية، ففي البداية لم يكن هناك مجتمعات في العصور القديمة، بل كانت الحياة البشرية عبارة عن مشاعة، ثم ظهرت بعد ذلك الجماعات الإنسانية، وتطورت إلى قرى ثم مدن ثم ممالك ودول وإمبراطوريات وجمهوريات ، مروراً بعصر الرق والإقطاع ثم عصر الصناعة الرأسمالية، والمجتمعات الاشتراكية، وترافق مع تطور الجماعات، تطور العلاقات الإنسانية

---

[1] أحمد أمين ، فيض الخاطر .

والمفاهيم الفكرية والروحية، فظهرت الأديان و القوانين والأعراف. واليوم فإن الدول والمجتمعات الحديثة تختلف تماماً عن سابقاتها، حتى باللغة والتاريخ والتراث ولكن مع ذلك يبقى هنالك استثناء ، فقد بقيت بعض الشعوب والمجتمعات دون تطور حتى الآن ، أو كان تطورها بطيئاً ، أو أنها تطورت في فترة من الفترات ثم توقفت بعد ذلك و رجعت القهقرى .

ومن الشعوب التي خالفت هذا الأمر هم العرب ، فحتى الآن بقيت الأمة العربية كما هي منذ مئات السنين ، فالمجتمع العربي لم يستطع أن يتطور لحماية نفسه، فقد تعرضت الأرض العربية منذ القدم للغزوات والحملات الاستعمارية، وكأنه قد كتب عليها أن تكون معرضة للتبعية للأبد. كما أن المجتمع العربي لم يطور نفسه بما يتناسب مع محيطه من الشعوب الأخرى فتخلف كثيراً عن الحضارات الحديثة الحالية، واستمر في تخلفه فأصبح عاجزاً غير قادر على الحركة، وحتى الآن لم يستطع العرب أن يغيروا ولو بشكل بسيط ما كانوا عليه في الماضي.

إن الدول الأخرى متفوقة على العرب بكل شيء، بالعلم والسلاح والزراعة والصناعة والتجارة والفن والأدب، حتى بالرعي وتربية الماشية، إن العرب مطوقون من كل الجهات، ولا سبيل للحركة إلا بإذن، أنهم فعلاً في ورطة ومأزق كبير، أنهم واقعون في حفرة سوداء عميقة، لا طعام ولا ضوء إلا بإذن، ولا سبيل للخروج منها. إنهم كالسجين الملقى في زنزانة، طعامه يصل إليه، أما هو فلا عمل له ولا حركة إلا بإذن، وإذا تجرأ أن يتصرف وفق مشيئته هو، فالويل له.

وبالرغم من كل هذا فإن العرب لا يحسون بهذه الكارثة، إنها فعلاً كارثة، فماذا يعني أن تكون أمة ليس لها أي نوع من أنواع الإنتاج أو القدرة على اتخاذ قرار ما، بل حتى أن يكون لها رأي مسموع على الأقل. أمة ليس لها أي شيء خاص يميزها عن غيرها، كل ما عندها ليس لها، بل هو من صنع الغير. لنتخيل أن العرب جردوا من كل شيء لا يصنعونه هم، وبقي لهم ما يصنعونه، فماذا نجد، نجد أننا عدنا إلى أيام الجاهلية، إلى أيام العرب البائدة. يجب أن يعي العرب أن الزمن الذي يعيشونه ليس زمن

صدر الإسلام والأمويين والعباسيين. يجب أن يعووا إلى هذا الزمن ليس زمن السيوف والخيول والرماح. لقد تغير الوضع كثيراً، وأصبحت الفروق جوهرية، في الماضي عندما كنا في أوج عهدنا كنا متساوين مع الإمبراطوريات الأخرى ، فالسلاح كان واحداً، والصناعة واحدة. كان السيف والرمح والقوس ليس عندنا فقط، بل عند كل الشعوب، ومع الزمن، وبينما تقدمت الشعوب الأخرى، بقينا نحن على حالنا.

وإلى جانب كل هذه الأشياء الخطيرة، تبرز نقطة أخطر وهي نقطة معروفة لجميع العرب، سواء بشكل مباشر أو غير مباشر، وهي أن العرب ضعاف جداً وهم الآن أضعف من أي وقت مضى، وبالذات الآن ، لأنه كما ذكرنا، فإنه في الماضي كانت جميع الأمم والشعوب متساوية فيما بينها من حيث القوة والصناعة، أما الآن فقد ظهرت التكنولوجيا الحديثة وجلبت معها أشياء ليس لدى العرب مثلها، بل لم يسمعوا بها من قبل ولم تكون موجودة حتى في لغتهم و قواميسهم . وكلما تقدم الزمن، كلما ضعف العرب وتأخروا عن الدول الأخرى، والعكس صحيح، أي كلما رجع الزمن إلى الوراء، كلما اقترب العرب عن تلك الدول، وطبعاً الزمن مستحيل أن يرجع إلى الوراء.

وبعد حرب الخليج الأخيرة، بدأت عملية السلام في الشرق الأوسط بين العرب وإسرائيل، تحت رعاية أمريكية، وتميزت منذ البداية بتعنت إسرائيل و صعوبة المحادثات، فإسرائيل لن تتخلى بهذه السهولة عن الأراضي التي احتلتها، لأن طبيعة وميزة إسرائيل الدينية والسياسية والاجتماعية لا تسمح لها بالتقلص، بل بالامتداد والتوسع، وهذا ما يعود بنا مرة أخرى للنظرية القومية وصراع القوميات، إذاً الأساس كله في القومية، والمشاكل تعود بجذورها إلى القومية. ولكن ما معنى القومية أن القومية هي الأساس.

معنى ذلك أن كل شعب يتخلى عن قوميته أو يتخذ بديلاً لها، سيدفع الثمن غالياً، عاجلاً أم آجلاً، ومن أرضه وكرامته وحضارته، وهذا ما يظهر جلياً اليوم في الواقع العربي، لقد مر علينا الدهر بمآسي كثيرة،

وذهبت منا أشياء أكثر، جميع الأمم مرت علينا وتركتنا بعد أن أساءت ألينا، لقد اخذوا منا كل شيء، ولم يتركوا لنا شيئاً، سرقوا منا كل شيء، سرقوا ثرواتنا، سرقوا أرضنا، سرقوا تراثنا، سرقوا آثارنا، سرقوا حضارتنا وخيراتنا، سرقوا قرارنا ومصيرنا، وسرقوا ومازالوا يسرقون، يسرقون ولا يشكرون، ويعاملونا أسوأ معاملة وينعتوننا بأبشع الصفات ولا يأبهون بنا. و كل ذلك بسببنا .

إن مجرد إلقاء نظرة على الوضع العربي الراهن، تبين مدى الصعوبة في تحليل هذا الوضع المعقد، بمختلف جوانبه السياسية والاجتماعية المتداخلة مع بعضها بشكل أصبح فيه من الصعب حل العقد الناتجة عن هذا التشابك، وقد لعبت عوامل أخرى دوراً كبيراً في زيادة هذا التعقيد، وهي عوامل كامنة قد لا تظهر في أول وهلة. إن الوضع العربي الحالي بما يتضمنه من أخطار جسيمه تحيق بالأمة العربية، هو من جملة مسبباته، نتيجة لعوامل نفسية في شخصية الإنسان العربي، تطورت عبر السنين مع الأحداث والعوامل الخارجية والداخلية، وهذا ما قلنا عنه بالعفوية العربية وتفاعلها مع الأحداث والعوامل تلك.

وكما ذكرنا فإن أهم حدثين أو عاملين تفاعلا مع الشخصية أو العفوية العربية، هما أولا الاحتكاك مع الأمم الأخرى سواء عن طريق الفتوحات أو الاحتلال الأجنبي، و ثانياً الإسلام الذي جاء للأمة العربية، ويمكن اختصار هذين الحدثين، بمفهومي الدين والسياسة . ونحن إذا كنا قد تناولنا الوضع العربي السياسي وتعامل العرب مع السياسة ، فإنه لابد من إلقاء الضوء على الجانب الآخر ، وهو الجانب الأهم الذي تعامل معه العرب أي الجانب الديني .

العرب و الدين

منذ القدم، ومنذ ظهور البشرية وظهور الإنسان العاقل، ظهرت المعتقدات الدينية عند البشر، والتاريخ يخبرنا كيف أن الإنسان القديم حاول منذ تطور ونمو ملكاته العقلية، أن يعرف سر وجوده وعلاقته بخالقه، وكانت تلك البذور الأولى لظهور الأديان.

ومع تطور النظام البشري من المشاعة إلى نظام الجماعة، تطورت الأفكار والمعتقدات الدينية عند الإنسان ، ويومها لعبت الكواكب والعوامل الطبيعية كالأمطار والرعد دوراً في تنمية المعتقدات الدينية عند الإنسان القديم، حيث كان يرى الأمطار والرعد والصواعق والعواصف، فلا يعرف سببها أو مصدرها . ونتيجة لخوفه منها أخذ يعبدها في البداية، ومع ذلك فإن فكرة الإله لم تظهر إلا عند نشوء الممالك والدول والقبائل في الألف الرابع والثالث قبل الميلاد، فظهرت آلهة عديدة ومتنوعة، حسب أنواع الشعوب، فكانت كل الشعوب لديها آلهة خاصة بها، فالإغريق كان لديهم آلهة وكذلك الهنود والصينيون والمصريون القدماء والسوريون، وكانت الآلهة متنوعة حسب الظروف الطبيعية، فظهرت آلهة المطر وآلهة الزرع والعدل والحب والشمس إلى ما هنالك.

ومع مرور الزمن وتطور المعتقدات الدينية، ظهرت فكرة الإله الواحد، فظهرت الأديان السماوية الثلاث التي تعبر عن هذه الفكرة، وجمعيها ظهرت في الأرض العربية.

والأديان السماوية حالياً هي الأديان الأكثر انتشاراً في العالم، أولها الدين اليهودي الذي أتى به رسمياً النبي موسى (ع) . ثم جاء بعده الدين المسيحي على يد عيسى المسيح (ع) ، وبعد ذلك بحوالي /٦٠٠/ عام جاء الإسلام على يد الرسول محمد (ص).

والدين بشكل عام (السماوي أو غير السماوي)، هو عبارة عن تعاليم وطقوس روحية تختص غالباً بعلاقة الإنسان مع الإله، وهي أشبه بالقوانين الثابتة التي ترشد الإنسان إلى ما يجب عمله لعبادة الخالق، وترشده أيضاً إلى الواجبات التي يجب عليه القيام بها، وإلى تصرفاته وقيامه بأعمال الخير ، وهذه القوانين أو التعاليم الدينية، هي تعاليم ثابتة لا يجوز تغييرها، ولا تتأثر بالتقلبات الاجتماعية أو السياسية، لأنها من صنع الله وليس من صنع البشر.

وبالرغم من أن هذه التعاليم هي من عند الله، فإن الذين نادوا بها هم بشر، فالله لم يرسل ملكا من ملائكته، ليعلم الناس الدين، بل أرسل لهم بشراً مثلهم ليعلموهم أمور دينهم ويهدونهم سواء السبيل.

ومنذ ظهورها كان للأديان دور هام ، بل رئيسي في علاقات الناس مع بعضهم البعض، كذلك في نشوء الدول والإمبراطوريات، وفي الأحداث التاريخية والتغيرات الاجتماعية والجذرية. ومعظم الحروب بين الدول والممالك كانت تأخذ الطابع الديني، كما أن معظم تلك الدول والممالك كانت تقوم على أساس ديني، وكل ذلك كان بالتحديد بعد ظهور الأديان السماوية، وأصبح الدين هو أساس كل المجتمعات، فالقوانين كانت تسن بالاعتماد على الدين، وسلطة الإمبراطور أو الحاكم مستمدة من الدين، والعلاقات الاجتماعية أخذ ينظر إليها من منظار ديني.

ومع مرور الزمن ازدادت أبعاد الدين واتسعت مجالاته وتشعبت في مختلف نواحي الحياة الاجتماعية، وازدادت الروابط بين الدين، وبين المفاهيم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية.

و بالرغم من أن الأديان السماوية الثلاث ظهرت كلها في الأرض العربية ، فإن الغالبية العظمى من العرب اليوم هم مسلمون. ومنذ مجيء الإسلام إلى الأرض العربية، حدثت تغيرات كبيرة جداً في العلاقات

الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، بل لقد تغير طابع الأمة العربية كلها، ولكن الشيء الوحيد الذي لم يتغير، هو الشخصية العربية، وطبيعي أن يحدث صراع بين المفهوم الجديد الوافد والمفهوم القديم السائد.

فالإسلام إذ أثر تأثيراً كبيراً على الشخصية العربية والنظام الاجتماعي العربي، فأنه تأثر أيضاً بشكل كبير بهذه الشخصية العربية، وكان من نتيجة هذا التأثير أن تم حصول أحداث قدر لها أن تكون محور تاريخ الأمة العربية حتى الآن، وبالرغم من أن الإسلام قد ألغى كثيراً من العادات العربية، وعدل في بعضها الآخر، فأنه لم يستطع أن يؤثر على الطابع الفريد لشخصية الإنسان العربي، وبالرغم من أن الإسلام قد غير الكثير من المفاهيم والمعتقدات السائدة آنذاك واستبدلها بأخرى جديدة، فقد بقيت الشخصية العربية محافظة على عفويتها اللاشعورية التي لم يستطع الإسلام أن يجتثها أو يستأصلها، ولنعود مرة أخرى إلى ما حصل بعد وفاة الرسول الكريم محمد (ص).

لقد انقسم العرب بعدها مباشرة ، إذ حصلت خلافات ظهرت بوادرها الفعلية مع مقتل الخليفة عثمان ، (ونحن هنا لن نتحدث عن تفاصيل دينية بقدر ما نتحدث عن إيراد للوقائع التاريخية).

وقد قدر لتلك الخلافات والحروب أن تكون فاتحة عهد مجازر دموية دينية، ذهب ضحيتها الملايين من المسلمين، وكلها كانت بأيدي المسلمين، ومن يومها ظهرت الطوائف الإسلامية وظهرت العداوات بين تلك الطوائف، وهي عداوات لا تزال حتى الآن موجودة ، وهي وإن كانت براكين خامدة، فإنها قد تنفجر ما بين لحظة وأخرى ، لأن وعي الإنسان العربي ما زال حتى الآن قاصر عن إدراك ماهيتها و خطورتها .

ومنذ ظهور الإسلام وإلى الآن، تمحورت جميع الأحداث التاريخية التي ألمت بالأمة العربية، حول الدين بشكل أو بآخر، وكل ما حصل للأمة العربية كان بسبب الدين، وهذا لا يعني أن الدين هو السبب في ما حصل، بل يعني أن جميع تلك الأحداث كانت باسم الدين.

جاء الإسلام إلى العرب فوحد شملهم وحولهم من قبائل ضعيفة متناحرة خاضعة للنفوذ الأجنبي، إلى أمة واحدة قوية قدر لها أن تكون نداً لأية أمة أخرى بشعوبها وحضارتها وتراثها، وبصرف النظر عن التعاليم الدينية، فالإسلام هو عبارة عن علم وتراث وحضارة قائمة بحد ذاتها. لقد تطرق الإسلام إلى مختلف جوانب الحياة الإنسانية بالإضافة إلى الجوانب الدينية بشكل كبير، فلم يكتف فقط بتبيان العلاقة بين الإنسان والله بل بين الإنسان والإنسان من خلال إطار روحي.

ومنذ ظهوره تفاعل الإسلام مع الشخصية العربية في ترابط وثيق، لكنه غير متكافئ، ففي عهد الرسول (ص) كان الإسلام هو المؤثر على الشخصية العربية والإنسان العربي، ولم تكن تؤثر عليه الشخصية العربية، وبعد وفاة الرسول الكريم، بدأ التفاعل المتبادل يظهر بين الإسلام والشخصية العربية، وحدثت عدة أمور كنتيجة لهذا التفاعل ، منها الخلاف على الخلافة وحركة الردة، ومنذ ذلك الوقت بدأت الشخصية العربية تؤثر على الإسلام وتحوره حسب مقتضياتها وميولها وغرائزها، وكان من نتيجة ذلك أن انفجر سد الدماء هذه المرة وبشكل مروع منذ مقتل عثمان بن عفان الخليفة الراشدي .

عادت الخلافات العربية هذه المرة، ولكنها كانت عن طريق الإسلام، حيث زج بالإسلام في هذه المتاهات والمزالق والخلافات، فكانت المصائب كبيرة وطويلة وشاملة، تعدت نطاق القبيلة لتشمل العرب كلهم، وتعدت نطاق الإقليم لتشمل كل الأرض العربية.

فعند وفاة الرسول (ص)، كانت شبه الجزيرة العربية موحدة كلها تقريباً تحت راية الإسلام، ثم جاء الخلفاء الراشدون، و قاموا بالفتوحات العربية، وجاء بنو أمية فأكملوها. ولقد كانت تلك الفترة هي بداية الخلافات، ولما كان الإسلام قد امتد إلى رقعة كبيرة هائلة، فهذا بالتالي سيؤدي إلى أن تكون دائرة المعارك والنزاعات الإسلامية كبيرة جداً، ولما كان الإسلام دين ثابتاً على مر الأزمنة، فإن تلك الخلافات ستكون طويلة الأمد وربما أبدية، وهذا ما حدث فعلاً.

ونستطيع تشبيه هذه الحالة (إذا أردنا التوضيح أكثر)، بعملية التفاعل أو المزج بين العناصر الكيماوية، فإذا أخذنا معدنين وليكونا مثلاً الذهب والنحاس، فسنرى أن الذهب هو معدن لامع ثمين، لا يتأثر بالعوامل الخارجية ولكنه معدن ضعيف لا يتمتع بالمتانة الكافية على عكس النحاس الذي هو معدن قوي ولكنه يتأثر بالعوامل الخارجية، فإذا مزجنا هذين المعدنين مع بعضهما البعض بطريقة من الطرق، فإننا سنجد أن التفاعل قد حصل، وإن كل معدن قد اكتسب صفات المعدن الآخر أعطاه صفاته، وبالتالي أصبح الذهب قويا والنحاس لا يصدأ.

وهكذا كان الوضع بين الإسلام والإنسان العربي، عندما تفاعل الإسلام مع الشخصية العربية نتج هذا المزيج الحاصل، فقد اكتسب الإسلام من الشخصية العربية صفة التشتت والصراع، فأصبح عدة مذاهب مختلفة، واكتسبت الشخصية العربية من الإسلام صفة الشرعية والديمومة، فأصبح كل من هذه المذاهب يعتبر نفسه هو الشرعي وغيره الكافر، وهذا الأمر امتد حتى العهد الحديث.

ومنذ مقتل الخليفة عثمان بن عفان، و مبايعة الأمام علي بن أبي طالب بالخلافة ، نشبت المعارك بينه وبين معاوية بن أبي سفيان وعائشة، وبعد مقتل الإمام علي غيلة، نشبت المعارك مرة أخرى بين يزيد ابن أبي معاوية، وبين الحسين بن الإمام علي، وانتهت بمقتل الحسين بن علي بن أبي طالب على يد يزيد بن معاوية .

وهنا انشق الإسلام إلى قسمين، وبدأت المعارك الدموية وعمليات القتل والتصفية والثورات بين الطرفين، وانتهت بإسقاط دولة بني أمية، وقيام دولة العباسيين، وحدث هنا أيضاً ما يسمى بعملية تصفية حساب، فتعرض الأمويون للقتل والإبادة تماماً كما فعلوا بغيرهم من الشيعة الموالين لآل البيت، وكان من نتيجة ذلك أن تشكلت المذاهب الإسلامية في عهد بني أمية وعهد بني العباس[1]

---

[1] تاريخ الإسلام ج١ ، ص/٣٩٨/ .

ففي عهد بني أمية، كانت الأطراف المعارضة لهم تقوم بالثورات ضدهم معتمدة على الدين في ذلك ، وبالمقابل كان بنو أمية يواجهون هؤلاء بالفتاوى الدينية المضادة، هكذا تم تبادل الفتاوى المضادة والأحاديث المختلفة بين الطرفين[٢] ، إلى جانب سفك الدماء، فاختلط الحابل بالنابل، وظهرت بالتالي تعاليم دينية غريبة عن الإسلام، اندمجت به وانصهرت معه، كما ظهر المئات بل الآلاف من رجال الدين، وكل واحد منهم له رأي خاص به، فظهرت فتاوى جديدة وأحاديث مبتكرة لأول مرة في تاريخ الإسلام، إذا لقد دخلت السياسية بالدين ، وربما دخلت السياسية بالإسلام بشكل تلقائي ومحتوم، أي بمعنى أنه كان لا بد لها أن تدخل.

فبالمفهوم السياسي العام، بل وحتى بالمفاهيم الاجتماعية والمنطقية، تحدث أشياء تسمى بأشياء الأمر الواقع وهذه الأشياء هي نتيجة وانعكاس مباشر أو غير مباشر لتصرفات الناس مع بعضهم البعض، وقد تكون أحياناً نتائج غير متوقعة، ولا يد للإنسان فيها من ناحية القصد أو التعمد. وحتى بعد حدوثها أيضاً، لا يستطيع الإنسان تغيرها، لأنها أصبحت واقعاً مفروضاً غير مستقل، بل مرتبط ارتباطاً وثيقاً بحوادث وأمور أخرى، ومن هنا يمكن أن نفسر ما حصل بعد وفاة الرسول الكريم وعند استلام الأمويين الحكم، أي إن دخول السياسة في الإسلام، قد لا يكون مقصوداً تماماً.

فنتيجة للفتوحات التي قام بها الأمويون وأثناء هذه الفتوحات كان لابد من وجود مفاهيم عسكرية تتعلق بأمور الجيش، وتصرفات القواد والجند، وبالتالي فإن هذه الأمور تفرض بشكل طبيعي مناخاً خاصاً بها، وتفرز أموراً وأشياء تتلاءم معها، فمثلاً قبل أية غزوة أو حرب كان الخليفة يخطب الجنود ويوجههم ويصدر إليهم تعليمات وإرشادات عامة، وهذا شيء من مستلزمات الحرب، فكان لابد من أن تظهر سياسة ما أو مجموعة أنظمة محددة، كعملية تجميع الجيش، حيث أنه في الماضي لم يكن هناك طريقة فعالة في تجميع الجيش وتجنيد الأفراد إلا عن طريق الإسلام ، فالدولة لم تكن قد تبلورت

---

[٢] دراسات في الفكر الإسلامي ، فصل الإيديولوجية .

بالمفهوم الكامل . فلذلك كان لابد من الاستعانة بالإسلام للتأقلم مع هذا الوضع الجديد ، إذ كان لابد من خلق أفكار معينة وإيجاد نوع من العقائدية أو الإيديولوجية لحماية هذه العمليات وحماية الإسلام نفسه.

من هنا ومن كل هذه الأمور نجد أنه كان لابد للسياسة من الولوج في الميدان، ومن هنا بدأت المشكلة التي مازالت مستمرة إلى الآن، ولكن هل طبيعة المشكلة تكمن فقط في امتزاج السياسة بالدين. على الأغلب كلا، لأن هذا الأمر يحتاج إلى مسوغات وعوامل أخرى تدفعه في طريق الظهور والبداية.

إن مجرد فكرة امتزاج السياسة بالدين، هو بحد ذاته ليس عاملاً كافياً للحصول على ما يسمى بالوضع العربي الراهن. فالمسيحية واليهودية إذا نظرنا إليهما من نفس المنظار ونفس الفكرة، نجد أنهما ممتزجان بالسياسة أو كانا ممتزجين، ولكن لم يحصل لشعوب تلك الأديان ما حصل مع العرب، إذاً ما المشكلة ؟.المشكلة تعود مرة أخرى إلى شخصية الإنسان العربي، أو العفوية العربية التي تم ذكرها قبل الآن. فالمحاكاة العقلانية تفرض علينا القول أنه امتزجت في الأرض العربية ثلاثة عناصر، هي الشخصية العربية والسياسة والدين، فقد امتزجت الشخصية العربي بالسياسة نفسها في أوائل القرن الحالي وكانت من نتيجة ذلك التردي والانقسام العربيين الحاصلين، خاصة وأنه كما ذكرنا، فإن السياسة لم تكن قد تبلورت بهذا المفهوم الحديث.

لقد حصلت كوارث باسم الدين الإسلامي، حيث زج العرب بالإسلام في قلب المعمعة السياسية، وكان يجب عليهم أن لا يفعلوا ذلك، لقد تصرف العرب بالإسلام في الماضي، ليس كأنه دين، بل كأنه شيء من مقتنياتهم، فكان أن أخذه غيرهم و استعبدهم به. لقد كان الخليفة الأموي والعباسي والتركي

والفارسي والعثماني والمغولي يتصرف بالإسلام على هواه ولخدمة سلطانه، والقضاء على أعدائه، فيجند أتباعه من رجال الدين لإصدار الفتاوى الخاصة، والتي تخدم أغراضه السياسية البحتة[1] .

رجل الدين أو السياسة كان في الماضي يؤلف حزباً أو مذهباً، وكأن الإسلام لعبة في يده يحركه كما يشاء، في الماضي كان كل رجل سياسة ما أو دين ما له مذهبه ورأيه الخاص به، في الأحكام والتعاليم الإسلامية، وكان كل رجل تعلم التعاليم الإسلامية وحفظ القرآن، أصبح رجل دين[2]

لقد اندمج العرب بالإسلام اندماجاً تاماً، وتفاعلوا معه بشكل كبير جداً، وبذلك أصبح الإسلام هو كل شيء في حياة العرب، فلا يوجد شيء يحصل أو دولة تقوم، أو حزب ينشأ، أو عملية تحدث ، إلا عن طريق الإسلام، وأصبح الإسلام بذلك هو حجة وبرهاناً لكل من يريد عمل أي شيء، حتى ولو كان سياسياً أو اجتماعياً. ونستطيع أن ندرك هذا الأمر عندما نعرف ما هو مفهوم الدين.

وبما أن للدين كما هو واضح ومعروف، تأثيراً كبيراً جداً، ونفوذاً هائلاً على الإنسان، باعتباره (أي الدين) عبارة عن تعاليم روحية ومسلمات عقائدية بشرية، فهو بالتالي مؤهل لأن يكون ركناً أو منصة أو قاعدة لكل عمل. وبما أن الدين لا يمكن الشك فيه أو التخلي عنه أو تفنيده أو إحلال تعاليم أخرى بديلة عنه كونه يشكل كل نواحي الحياة الاجتماعية تقريباً، ويتطرق إلى كل التصرفات الإنسانية، فهو أداة فعالة ومناسبة للهجوم والدفاع . و نستطيع إدراك هذا الأمر الآن من خلال قراءة الواقع السياسي العربي المعاصر ، حيث نرى أن الحاكم العربي الآن و بشكل عام هو الوحيد الذي يتعرض للهجوم و النقد و القصف من قبل معظم المنتقدين ، و يتم تحميله كل وزر و أخطاء الماضي و الحاضر ، بينما رجل الدين لا يقترب أحد منه و كأنه لا يرتكب أية أخطاء ، أو كأنه ليس بشر بل من جنس الملائكة و الرسل . و تبعاً لذلك فقد أصبحت المعادلة المطروحة عندنا هي (رجال الدين يأكلون الحصرم و الحكام يضرسون) .

---

[1] سوسيولوجيا الفكر الإسلامي ج٢/١ – تاريخ الإسلام السياسي ص/٣١ ، ٧٦ /

من كل هذه المعطيات، يمكن الاستنتاج بأن الدين هو سلاح ذو حدين، وذلك بالنسبة لاستخدام الإنسان له، فإذا أحسن استخدامه وتطبيقه، جلب الخير والترقي للنفس البشرية، أما إذا أسيء استخدامه وتطبيقه، سواء بقصد أو بدون قصد فسيؤدي حتماً إلى كوارث ومآسي، لماذا؟ لأنه لا يقبل الخطأ ولا التغيير، لأنه ليس من صنع البشر (وبالذات الدين السماوي).

عندما يتفاعل الإنسان مع الدين أياً كان نوعه، وينشأ من ذلك ضرر فهناك حالتان أو تفسيران. إما أن يكون الدين غير صحيح وتعاليمه خاطئة ومضللة، وإما أن يكون الإنسان هو الذي يسيء استخدام تعاليم الدين، وهو الخاطئ. وطبعاً من غير المنطقي أن يكون الدين هو السبب.

وجوهر العلاقة هو كيفية تفاعل وانصهار الإنسان مع الدين، وتفاعل عقليته وتفكيره السابقين مع الدين. وطبيعي أنه عند تفاعل مادتين مع بعضهما البعض، فإن المادة الناتجة أو العنصر الجديد سيأخذ شكل وماهية العنصر الأقوى. و هذا أمر ينطبق تماماً على مفهومي السياسة والدين، إذا اعتبرناهما كعنصرين يمكن تفاعلهما.

وعلامة الاستفهام المطروحة هنا، هي من هو العنصر الأقوى بشكل عام الدين أم السياسة. وهل كان العنصر الأقوى في بداية العصر الإسلامي العربي هو الدين، أم السياسة، أم كان كلاهما في نفس القوة، ونفس التغلغل في عقلية ومفهوم الإنسان العربي؟ .

إن الدين كما أسلفنا هو مجموعة من التعاليم والقوانين الإلهية، وهي قوانين ثابتة، وهذا القوانين تؤثر حتماً في الحياة الاجتماعية لدى الناس، وتكون لديهم صلات وروابط بين الأشخاص التابعين لتلك التعاليم والقوانين الإلهية.

---

[٢] المصادر السابقة .

ويستمد الدين قوته من أنه علم أو مفهوم غيبي له صفة الميتافيزيقية أو ما وراء الطبيعة. وطبيعي أن الأشخاص الذين يؤمنون بتعاليم دينية معينة سوف يؤثرون ويتأثرون بها سواء من خلال سلوكهم أو عاداتهم، أو مفهومهم ونظرتهم للأشياء من حولهم. وتبدو قوة الدين جلية من خلال سيطرته على عقول الأشخاص الذين يؤمنون به، فهم يتمسكون بمبادئه وتعاليمه، ولا يتخلون عنها، خاصة وأن بعضاً منها يتعلق بحياتهم الاجتماعية اليومية، سواء أكانت تتفق مع عقائدهم وعاداتهم الاجتماعية السابقة أم لاتتفق. لأن التخلي عن تلك التعاليم يؤدي إلى التعرض للعقاب والعذاب الإلهي. وهذا الخوف من العقاب هو ما يدفع الناس إلى طاعة التعليم الدينية والتقيد بها ، بالإضافة إلى كونها تشمل المنفعة العامة للبشر وكونها تعاليم خيرة وصحيحة ، لا يمكن نقضها منطقياً . وعلى هذا الأساس يمكن اعتبار الدين عنصر هام وقوي في حياة الإنسان .

أما السياسة فهي أيضاً عبارة عن مجموعة القوانين والمفاهيم والتصرفات التي تربط الناس والمجتمعات ببعضها البعض، من خلال العلاقات المتبادلة، وتتميز السياسة أيضاً بأنها فن التصرف، وهي ليست قوانين ثابتة، بل تخضع لكل العوامل والمتغيرات، وتأخذ بالاعتبار كل الظروف والتطورات والمؤثرات، بعكس الدين الذي لا يخضع لظروف معينة أو تحولات آنية، ولا يأخذ بالاعتبار أية مستجدات أو تحولات أو نظريات.

والسياسة داخلة في كل تصرفات الناس وعلاقات الإنسان والمجتمع، فهي إذاً غير ثابتة، بل تأخذ في كل فترة زمنية، بعداً وشكلاً معيناً، ويمكن أن يكون في السياسة أيضاً نوع من التناقض والاختلاف، فكل شيء ممكن في السياسة، لأن السياسة لا تعرف مبدأ أو ثوابت.

والسياسة تساير وتهادن، تجامل وتراوغ، أنها بكل بساطة عبارة عن وسيلة وأداة لتحقيق غرض معين، بغض النظر عن تلك الوسيلة أو الأداة، أو ذلك الغرض نفسه، وذلك بعكس الدين تماماً.

والسياسة صالحة للاستعمال في أي مكان وأي زمان، وبلا شروط محددة لنشوئها والسياسة تأخذ أكثر من مجال وأكثر من حيز في حياة الإنسان، فهي تشكل عماد نشوء الدول والممالك والمجتمعات، وقد يكون لها قوانين خاصة بها تستمد قوتها منها، وإن التخلي عن هذه القوانين أو معارضتها، تكون مغبته التعرض للعقوبات، المادية والجسدية أو المعنوية.وعلى هذا الأساس، يمكن أيضاً اعتبار السياسة عنصراً هاماً من حياة الإنسان كالدين تماماً.

من خلال هذا التعريف لكل من الدين والسياسة (وهذا ما سوف نعود له لاحقاً)، نستنتج أن هناك اختلاف بين الدين والسياسة ونستنتج أيضاً أن لكل منهما نفس التأثير والقوة ونفس الوجود في حياة وفكر الإنسان. ويمكن من خلال هذا التعريف للدين والشرح الموجز عنه، أن نعرف أي شيء هو، وأن نعرف شيئاً من التفسير لما حصل في التاريخ العربي الإسلامي، وكيف تفاعل الدين الإسلامي مع الشخصية العربية، وبالأصح كيف تفاعلت هي معه ... الشخصية العربية بكل صفاتها وسماتها كيف تفاعلت مع الدين الإسلامي بكل أسسه وقوانينه.

عندما انتقل الرسول الكريم إلى الرفيق الأعلى، ترك مجتمعاً عربياً صغيراً ، ولكنه وليد وفي بداياته ، وبدأت الخلافات تنمو وتنشب، ثم تحولت إلى نزاعات فحروب راح ضحيتها حتى الآن الملايين من المسلمين. والشيء المؤثر هنا، هو أن الحروب بدأت تقريباً بعد وفاة الرسول، فقد صمدت الأمة العربية في عهد الخليفتين أبي بكر وعمر، ولكنها أخذت تهتز في عهد الخليفة عثمان، وانفجرت في عهد الإمام علي.

إذا لم تنشب الخلافات والحروب، وتحدث الفرقة والانقسامات بعد وفاة الرسول بقرن أو قرنين، بل بعد وفاته بفترة وجيزة. فعادة عندما يتم تشكيل أو نشوء كيان ديني، وحتى سياسي، فإنه يبقى فترة طويلة نسبياً بعد وفاة مؤسسه، وبعدها يمكن أن يبدأ حدوث شقاق واختلاف في الرأي والمذهب.

ومنذ تسلم الخليفة عثمان الخلاقة، بدأت بوادر الخلاف تظهر بينه وبين الرعية، وتطورت الخلافات لتأخذ شكل عصيان وثورة انتهت بمقتل الخليفة عثمان في بيته[1] ، وكانت هذه هي البداية الفعلية للحروب، والحقيقة أن الاختلافات بالرأي، قد ظهرت قبل هذا، ولكنها لم تخرج إلى العلن ما عدا حرب الردة. وبعد مقتل الخليفة عثمان تسلم الإمام علي الخلافة بعد أن بايعه الناس، ولكن الأوضاع كانت قد تأثرت واهتزت بشكل وصلت معه إلى نقطة صعبة جداً، وأصبح من الصعب التحكم بالأوضاع تماماً.

وبدأ أول الشقاق، وهو خروج عائشة زوج النبي على الخليفة الراشدي الرابع الإمام علي، فقد أخذت تجمع الناس في مكة ضد الإمام علي، واستطاعت أن تجمع جيشاً لا بأس به من حولها ، وأخذت تطالب بدم الخليفة عثمان[1] واجتمع حولها عدد من الصحابة، كطلحة والزبير، واتجهت بجيشها إلى البصرة.

في تلك الأثناء كان الإمام علي قد عين ولاة على الأقطار والمناطق العربية، منهم من استلم ومنهم من لم يستلم، كما حصل في دمشق التي كان فيها معاوية بن أبي سفيان، فإنه لما علم بأمر عائشة وخروجها ضد الإمام علي، تشجع هو الآخر ورفض عزله عن دمشق، وأعلن حربه ضد الإمام علي. وعند هذا الأمر، رأى الإمام علي أنه لابد من وضع الأمور في نصابها، خاصة بعدما بلغه نبأ قدوم جيش عائشة إلى البصرة لمهاجمته، فجهز جيشه وانطلق لملاقاة جيش عائشة.والتقى الجيشان في مكان بالقرب من البصرة، ونشبت الحرب بين الطرفين في موقعة سميت بموقعة الجمل، واشتد القتال بين الطرفين واستمر من الصباح وحتى المساء، وسقط قتلى كثيرون من الطرفين، ولم تنته الحرب، بل استمرت بعد ذلك حتى انهزم جيش عائشة، وقد تكبد المسلمون الكثير من الضحايا والخسائر[2] .

---

[1] الإمامة و السياسة .

[1] المصدر السابق نفسه .

[2] كتاب المحن – شذرات الذهب ج١ – تاريخ الإسلام – الإمامة و السياسة .

و نشبت جولة ثانية ، وكانت حرباً عظيمة راح ضحيتها الكثير من المسلمين، وقد قيل أنه لم يكن أعظم منها موقعة، وانتهت أيضاً بانهزام جيش عائشة مرة أخرى، وكانت هزيمة قاضية هذه المرة، ولكنها أثرت كثيراً في الصف الإسلامي، وكان من أهم تأثيرات موقعة الجمل أنها ولأول مرة جعلت المسلمين يحاربون بعضهم بعضاً، كما أنها أثرت على جيش علي.وعندما استتب الأمر لعلي في البصرة، لم يبق له غير معاوية بن أبي سفيان، الذي بعدما رأى ما آلت إليه حرب الجمل جهز هو الآخر جيشه بدمشق.

وكتب علي إلى معاوية يدعوه لطاعته كونه هو الخليفة المنتخب من عموم المسلمين ، ولكن معاوية رفض الطلب ورد عليه بالحرب. وأخذ كل من الطرفين يجهز جيشه للحرب.

واشتبك الجيشان في موقعة عرفت بموقعة صفين[1]، واندلعت معركة كبيرة بينهما دامت فترة طويلة، وانقسمت إلى عدة معارك ومراحل، وفي النهاية مالت كفة المعركة لجيش علي، الذي انتصر في جميع مراحل المعركة بينه وبين معاوية ، وكاد الأمر أن يحسم نهائياً لولا أن جيش معاوية رفع المصاحف في آخر لحظة بناء على مشورة من عمرو بن العاص قدمها لمعاوية ، فتوقف القتال بعد ضغط من بعض أصحاب علي عليه .

وطرح فريق معاوية فكرة التحكيم ، أي أن يخرج مندوب من الطرفين ويتفقان مع بعضهما على فكرة معينة يسير بموجبها الطرفان، وفي النهاية يتفق الطرفان على حكم معين.

وتم تعيين أبي موسى الأشعري طرفاً عن فريق الإمام علي، وعمرو بن العاص طرفاً عن فريق معاوية ، واتفق الجميع على موعد معين للتحكيم. وأثناء ذلك اجتمع عمرو بن العاص مع أبي موسى الأشعري

---

[1] المصادر السابقة .

واتفق وإياه على أن يخلع كل منهما صاحبه. وفي اليوم المحدد، اجتمع الطرفان بحضور الناس فقام أبو موسى وخلع الإمام علي، ولكن عمرو بن العاص لم يخلع معاوية كما كان متفقاً، بل ثبته[٢] .

وهنا نشبت الفتنة من جديد، وانشق عن الإمام علي مجموعة سميت بالخوارج، اتهموه بالتواطؤ وقبول التحكيم مع أنهم و حسب كلام الإمام نفسه و حسب الروايات التاريخية ، كانوا جزء من الفريق الذي أصر على التحكيم ، ونشبت الحرب بين الإمام علي وبينهم وبعد أن تم له إخضاع الخوارج ، توجه مرة أخرى لقتال معاوية ، ولكنه قتل على يد أحد الخوارج ، بينما نجا معاوية وعمرو بن العاص من الاغتيال على يد اثنين آخرين من الخوارج. وبذلك انتهت حقبة إسلامية لتبدأ حقبة أخرى هي العصر الأموي.

وإذا ما نظرنا إلى تلك الفترة، لرأينا أن السياسة كانت داخلة في الحياة الإسلامية تماماً. فمنذ استلام الإمام علي الخلافة، بدا واضحاً أنه كان أمام عدة قضايا سياسية أكثر منها دينية، فقتل الخليفة عثمان كان يأخذ بعدين، بعد اجتماعي، وبعد سياسي. فالبعد الاجتماعي وهو بعد ثانوي يتعلق بتقريب الأغنياء وإهمال الفقراء ، والبعد السياسي أنه كان على خلاف مع عدد من الصحابة . ومع الرعية على أمور سياسية، كتقسيم المال وتعيين الولاة والوظائف[١] ، بالإضافة إلى أنه كان يوجد هناك نزاعات سياسية وصراعات داخلية خفية، قد أفرزتها معارك المسلمين أيام الرسول (ص)، وهذه قيض لها عند وفاة الرسول (ص) أن تنمو وتقوى ، بحيث أنها مهدت الطريق لظهور قوى سياسية. وهذه الأمور والقضايا السياسية، انفجرت كلها في وجه الإمام علي عند تسلمه السلطة، وكلها اتخذت ستار الدين أو العمل الديني شكلاً لها، عن طريق فتح قضية مقتل عثمان بن عفان، علماً بأن الخليفة السابق عمر (رض)، مات أيضاً عن طريق الاغتيال العلني، دون أن يكون له أية خلافات مع البعض، خاصة وأنه كان مشهوراً بعدله

---

[٢] المصادر السابقة .

[١] المصادر السابقة .

. ليس ذلك فقط ، بل إن مصير قاتله لا زال يلفه الغموض حتى الآن . و هي قضية أصر على اعتبارها أنها قضية ضد مجهول بالرغم من معرفة الأداة .

فمعاوية اتخذ القضية للوصول إلى الخلافة، وعائشة اتخذتها لعدم حبها للإمام علي، ولتعيين طلحة الذي هو من نفس قبيلتها، خليفة للمسلمين بعد أن رشحته لذلك، وعمرو بن العاص ساند معاوية بعد أن وعده بولاية مصر. وجميع هؤلاء ما عدا معاوية كانوا يدعون إلى قتل عثمان علناً ويحرضون لقتله[٢] . إذا فالصراعات كانت سياسية، ولكنها ممزوجة بالدين، فكل شيء كان يتم عن طريق الدين للوصول إلى أهداف سياسية.

ومنذ ظهوره لم يستطع الدين الإسلامي أن يخلص نفسه من السياسة أو يقصيها عنه ويفصلها، والحقيقة أن فترة خلافة الإمام علي، كانت عبارة عن صراع بين الدين والسياسة، وهو ليس صراع وجود، أي أن ينفي أحدهما الآخر بل صراع سيطرة وإخضاع، أما إخضاع السياسة للدين أو إخضاع الدين للسياسة.

لقد كان الإمام علي بالدرجة الأولى رجل دين، ومعاوية رجل سياسة، ونستدل علي ذلك من أمرين: الأول وهو عدم لجوء الإمام علي أثناء حربه مع معاوية إلى أي نوع من أنواع الحيل أو المراوغات السياسية أو الاغتيالات عن طريق السم، بينما معاوية كان يلجأ لكل أنواع الحيل والمناورات السياسية، وذلك معروف ومذكور في التاريخ[١] .الأمر الثاني هو إصرار الإمام علي على تطبيق الشريعة الإسلامية بحذافيرها.

وبمقتل الإمام علي وانتصار معاوية، وقيام دولة الأمويين، وظهور المناوئين والمعارضين لها، خضع الدين للسياسة من وقتها وحتى الآن، ومن وقتها وحتى الآن، دفع العرب الكثير الكثير، والسبب في ذلك واضح، وهو أنه لم يستطع أي من الدين والسياسة أن يفني أحدهما الآخر أو يحجمه. فالإمام علي كما

---

[٢] المصادر السابقة .

[١] المصادر السابقة + تاريخ الخلفاء للسيوطي ، فصل علي بن أبي طالب ومعاوية – الطبري ج٥ .

ذكرنا كان يطبق تعاليم الإسلام بحذافيرها، وهذا ما ألب عليه بعض الناس، وسبب له المشاكل معهم، فانشقوا عنه وخرجوا عليه، وعارضوه في أكثر من مرة، وأكثر من موضع .

فالإمام علي لم يكن ليسيس الناس، بل ليطبق عليهم الشريعة الإسلامية بدون تهاون أو مهاودة، ومع ذلك وبالرغم من قوة الإمام علي، فإنه لم يستطع منع السياسة من الظهور، وبالرغم من انتصار معاوية سياسياً، فإنه أيضاً لم يستطع أن يسير على الدين الإسلامي ويطبقه بشكل مطلق كما فعل الخلفاء الراشدون، فالعملية كانت نوع من التوازن بين هذين المفهومين، الدين والسياسة، فكل منهما كان له وجوده وبراهينه، ولكن طريقة التعامل العربي تجاه هذين المفهومين، هي القضية الأساس.

هنا كانت البداية، بداية المأساة التي حلت بالأمة العربية وإلى الآن. لقد استلم الأمويون الحكم الذي تغيرت معالمه عن السابق، وأصبح عبارة عن دولة عربية دينها الإسلام. وبعد مقتل الحسين بن الإمام علي، كانت البداية لتفرق المسلمون إلى سنة وشيعة و إن لم تكن المذاهب قد ظهرت بشكلها الرسمي الفاقع .

لقد كان العرب يتعاطون السياسة بدون أن يشعروا بها. لقد كانت كل تصرفاتهم سياسة محضة. وعندما خضع الدين للسياسة، تأثر بها، ولما كانت السياسة عدة سياسات، انقسم بالتالي الإسلام إلى عدة طوائف ومذاهب، ويمكن تشبيه الأمر بالفكرة السابقة لعملية الذهب والنحاس، فعندما يكون النحاس أكثر من الذهب، تعرف العملية على أنها طلي النحاس بالذهب، ويمكن القول أن السياسة كانت مطلية بالإسلام.

أليس وقوف عمرو بن العاص مع معاوية بشرط أن يوليه مصر هو سياسة. أليس خروج عائشة ضد علي من أجل مقتل عثمان، علماً أنها كانت من أول الداعين إلى قتل عثمان، خاصة وأنها كانت تريد تنصيب طلحة وهو من أهلها، خليفة، أليست هذه سياسة، أليس خروج طلحة والزبير على علي لأنه لم يوليهما اليمن والعراق و لأجل توزيع بيت المال ، سياسة .

ومع اختلاف السياسات في عهد بني أمية ، اختلفت الطوائف والفرق ، و أخذت كل فرقة تكفر الأخرى وتبيح دمها ، ونشأ بذلك الكثير من الحروب التي راح ضحيتها العرب المسلمون بالدرجة الأولى .ولو أردنا أن نعود لذلك التاريخ الأسود القاتم، والذي لا زال يلقي بظلاله السوداء علينا حتى الآن، لاستغرق ذلك منا مجلدات كثيرة، وعموماً هذا التاريخ معروف للعامة.

وطبيعة استمرار المأساة، تعود إلى أصل المزيج السحري الذي أتقنه العرب فيما بعد وبرعوا فيه، وهو مزيج الدين والسياسة. لقد اكتسب الذين كما قلنا، من السياسة، صفة التجزئة، وكما اكتسب الدين من السياسة هذا الصراع والاختلاف، فإن السياسة أيضاً اكتسبت من الدين صفة الديمومة والبقاء، لأن الدين كما هو معروف، دائم، إنه تعاليم أزلية خالدة، واكتسبت صفة الشرعية لأن هذه التعاليم هي شرعية، إنها تعاليم الله والرسول.وهذا ما أدى إلى أن ترى كل طائفة نفسها هي الحق والشرعية وغيرها الباطل. ولكن كيف نعلل هذا الأمر، كيف نفسر عملية مزج السياسة بالدين.

إذا عدنا إلى بداية الأمر، أي بداية الخلاف والصراع، سنرى أن السبب ينحصر في أمرين اثنين لا ثالث لهما. أولهما هو المصلحة الفردية، وثانيهما هو النفس العربية، المهيأة سيكولوجيا للانقسام.

فالمصلحة الفردية كانت هي السبب وهي الطاغية في تصرفات الأطراف المتنازعة آنذاك، بل يمكن القول أنه لولا المصلحة الفردية، لما كانت هناك حروب ونزاعات بين المسلمين، ولما كانت تلك الحروب والثورات قد حصلت. فالاختلاف الديني كان كله عبارة عن مصالح متناقضة ينفي أحدهما الآخر، وبالتدريج تحول الاختلاف الديني إلى خلاف سياسي بحت، ولكنه بقي تحت ستار الدين، وذلك حفاظاً على ديمومته وشرعيته، خاصة وأن الدماء العربية التي سكبت لأجله و طلاءه ، قد ساهمت في تثبيته.

كما أن السيكولوجية العربية كانت عاملاً مهماً أيضاً في نشوء هذا الخلاف والشقاق، فالجاهلية وإن قضى عليها الإسلام في تصرفات الإنسان العربي وتفكيره ، وزرع بدلاً منها تعاليمه الخيرة البناءة، فإنه لم

يستطع الوصول إلى العقل الباطني لهذا الفرد واجتثاث الأفكار الجاهلية منه. إن الإنسان العربي وإن نبذ الأفكار والتصرفات الجاهلية كلها، فإن قسماً منها مازال موجوداً في عقله الباطني، في اللاشعور عنده.

لم يستطع الإنسان العربي أن يصمد أمام فكرة السيادة والرياسة والزعامة التي حرم منها عندما جاء الإسلام، فلم يعد هناك رجل قبيلة أو شيخ عشيرة، بل أصبح هناك خليفة واحد لكل المسلمين، ولم يعد هناك قبائل، بل أصبح الجميع منضوياً تحت راية الإسلام.

ولكن إذا ذهبت فكرة شيخ القبيلة أو رئيس القبيلة، فإن فكرة رجل طائفة أو فرقة دينية ممكن وجودها، وإذا ذهبت فكرة مدح القبيلة والفخر بها، وهجاء القبيلة الأخرى، فإن فكرة التعصب لمذهب أو طائفة، وتكفير الطوائف الأخرى ممكن وجودها، وإذا ذهبت فكرة غزو قبيلة لأخرى، فإن فكرة صراع فرقة دينية مع أخرى ممكن وجودها أيضاً.

وبعد استلام الأمويين للسلطة، كان لابد من اللجوء إلى السياسة، أولاً لتثبيت دعائم الحكم داخلياً، وثانياً للقيام بالفتوحات وحماية الحكم من الخطر الخارجي، وتجلى هذا الأمر في ظهور التقسيمات الإدارية، وظهور وظائف جديدة لم تكن موجودة في عهد الرسول والخلفاء الراشدين، كما ظهرت أيضاً مسألة التعامل مع القوميات الأجنبية الخاضعة للسلطة العربية، ولحماية هذه الأمور السياسية وضمان استمراريتها، كان لابد من اللجوء إلى الدين، هنا يبرز التداخل والتفاعل بين مفهومي الدين والسياسة.

إن كل العمليات والقرارات كانت تتم عن طريق الدين، فالدين سيحمي هذه القرارت وهذه السياسات، لأنه شرعي، وسيضمن استمراريتها، لأنه مستمر وثابت، وهذا ما قام به رجال الدين والسياسة من كلا الطرفين، الطرف الحاكم، والطرف المعارض له، الطرف الحاكم كانت سياسته الحفاظ على الحكم، والطرف المعارض كانت سياسته الوصول إلى الحكم.

وكلا السياستين كانتا بحاجة إلى حماية وغطاء شرعي يضمن بقاءهما، وهذا ما كان يفعله الدين ، أو ما كان يفعله العرب بالدين لأجل السياسة، فظهرت الفتاوى، والفتاوى المضادة، والأحاديث، والأحاديث المضادة، وظهرت الثورات وعمليات القتل والإبادة، ووصل الأمر إلى نقطة اللارجوع، لأنه مع مرور الزمن استمدت تلك الأطراف والأعمال شرعيتها، ولم يعد هناك مجال للطعن فيها، حتى من قبل أصحابها أنفسهم، لأنهم أصبحوا أسيرين لها وخاضعين لقوانينها.

هناك الكثير من الأعمال والأفعال في التاريخ العربي، ارتكبت باسم الدين والحق الإلهي، والمسؤول المباشر عنها، أشخاص لبسوا ثوب الدين والزهد والتقى. أن المواطن العربي المسلم، القديم، شاهد وسمع وشارك في هذه الأعمال والأحداث الدموية المدمرة، والتي دمرت كيان الأمة العربية، وهو وعي وعرف من هو المدبر لها، وعرف أن هذا التقي الزاهد، هو سبب تلك المجزرة الرهيبة، أو الكارثة الدموية التي قضت على آلاف المسلمين .

الإنسان العربي عرف كل هذا وسكت عنه وتجاهله، لماذا؟ لأنه هو نفسه كان خاضعاً بطريقة أو بأخرى لهذا الأمر، ولأنه وفي كثير من الأحيان، كان يعتقد بصوابية وشرعية تلك الأعمال. فقد اندمجت شخصية الإنسان العربي في هذا الواقع وانسجمت معه لدرجة أنه أصبح جزء من تراثها، وامتداد لتاريخها، وللأسف الشديد فقد استمر الصراع الديني طويلاً، ولم يكن هناك من جهة لتقول لا، أو تحاول رأب الصدع، فالكل كانوا أطرافاً في ذلك الصراع، ولم يكن هناك من طرف حيادي . لقد انغمس الجميع في لعبة الدين والسياسة ، في لعبة المصالح ، فقد نشأت دول على أنقاض دول ، وانفصلت دول عن دول ، وذهب العصر الأموي ، وجاء العصر العباسي وجاء بعده عصر التحكم الأجنبي ، ودخلت في اللعبة أمم غريبة كالترك والفرس، أمم كانت محكومة، فأصبحت حاكمة، وكل ذلك بسبب الدين.

والحقيقة أنه وبعد ظهور البدايات الأولى للخلاف بفترة، راقت للبعض هذه اللعبة السحرية التي تذهب بدول وأنظمة حكم، لتأتي بغيرها، والحقيقة أن هذه اللعبة، بقيت قواعدها يعرفها القلة فقط، ولم تتضح

للعوام والرعاع. لقد كانت المصلحة الفردية عند الإنسان العربي تطغى على كل شيء، ومن أجل تحقيق هذه المصلحة، كان لابد من اللجوء إلى الدين، وقد بقيت تلك النظرية والتي تعتمد على الدين في الوصول إلى الغاية، ثابتة ومبرهناً عليها، لأنها أثبتت صحتها، منذ بداية الخلاف، حيث كان كل من أطراف الخلاف يعتمد على الدين، ويستخدمه كورقة اعتماد وحيدة، لأنه أصلاً لم يكن يوجد غيرها. وهذا يقتضي أن حتمية صحة طرف معين في تلك القضية، تقتضي أن يكون الطرف الآخر على خطأ، أن يكون كافراً ملحداً، وإلا كيف يكون الطرف الأول على صواب إن لم يكن الطرف الثاني على خطأ، والعكس صحيح، لأنه إذا كانت كل الأطراف صحيحة، إذاً لاداعي للحروب، إذاً لن يقتنع الناس، إذاً لن نصل إلى الخلافة، لا أنا ولا أنت، ولن يكون اسمي أمير المؤمنين، فحتى أكون أنا أمير المؤمنين، يجب أن تكون أنت الكافر الملحد.

والحقيقة أن التاريخ يعلمنا أن ظاهرة الاعتماد على الله ، أو الإله من أجل تحقيق غاية معينة لم يكن موجوداً فقط في الدين الإسلامي، بل وحتى ليس في الأديان السماوية الثلاث فقط، بل قبل ذلك بكثير ومنذ نشوء الإنسان نفسه، وكان يقوم بها الملوك والحكام، كما في حالة شريعة حمورابي المعروفة، فالتاريخ يرينا كيف أن حمورابي حين وضع قوانين مملكته (بغض النظر عن عدلها أم عدمه)، فإنه لجأ إلى الإله وقال إن الرب هو من أمره بوضعها.

إذاً فإن هذه الظاهرة كانت موجودة منذ زمن بعيد، والناس يقومون بها، إذاً فالأمر مدروس تماماً، ومعروف لمن يريد أن يعرف، وأن يلعب اللعبة. وقد بلغ من نجاح تلك العملية، إنها حافظت على استمراريتها طوال قرون عديدة.

لكن في التاريخ العربي، فإن العرب قد استغلوا هذا الأمر أبشع استغلال، واستخدموا هذا السلاح لغايات بشعة جداً. فقد تطور استخدام هذا الأمر من فكرة توطيد الحكم والسلطان، إلى فكرة التدمير والإبادة، بل أكثر من هذا، فقد تطور الخلاف من الخلاف السياسي إلى الخلاف على الدين.

ففي عهد عثمان وعلي، كان هناك خلاف سياسي، وهذا الخلاف السياسي صحيح أنه كان مستتراً بالدين، ولكنه لم يتطور ليصبح خلافاً دينياً محضاً، فلم يكن أي من الأطراف ليكفر الطرف الآخر علانية، فلم يكن هناك خلاف ديني معين على الإسلام أو على تعاليمه، ولكن بعد ذلك، وفي الفترات اللاحقة، نرى أن الخلاف قد تطور ليصبح خلافاً على الإسلام، تركز على التكفير، أي خلاف ديني محض. فأصبحت القضية بدلاً من قضية سياسية بدأت بمقتل عثمان، قضية إيمان وكفر، قضية حق وباطل، لدرجة أن قضية مقتل عثمان وهي القضية الأساس، والتي كانت البداية، قد أصبحت قضية ثانوية وليست هي بيت القصيد.إذاً كيف تحول الصراع من صراع سياسي، إلى صراع ديني. كيف تحول الخلاف من خلاف على أمر معين، إلى خلاف على أمر آخر لا يمت إليه بصلة ؟؟ .

هذا الأمر يرجعنا مرة أخرى إلى قضية الدين والسياسة والعلاقة بينهما. إنه يفسر لنا ويبرهن على أن العرب في تلك الفترة وحتى الآن، لم يستطيعوا أن يفهموا السياسة بالشكل الصحيح والواضح، كذلك الدين أيضاً، حتى أنه من الممكن أن يكون قد اختلط عليهم الأمر وظنوا أن الدين هو السياسة، أو السياسة هي الدين. أي خروج أسرار اللعبة السحرية إلى أناس غير مؤهلين. وإذا ما رجعنا إلى مقولة اختلاط العناصر الكيميائية، فإنه أيضاً في الكيمياء توجد هناك عناصر إذا ما امتزجت مع بعضها دمرت ما حولها، وخاصة إذا أسيء استعمالها لقد مزج العرب، هذا المزيج المرعب، فأبادوا بعضهم، في البداية ربما لم يعوا اللعبة بشكل جيد، أو لعل القلة منهم فقد عرفوها، أو لعل أحد ما أقدر منهم وأعرف بهذه الأمور قد جرهم إليها.

ومع مرور الزمن عرف العرب أصول اللعبة، وانكشفت لهم كل خباياها وأسرارها، ولكنها راقت لهم، فاستمروا بها ووصلت بهم إلى نقطة اللاعودة. وجاء أقوام آخرون وطبقوها عليهم، وقبل العرب بهذا الأمر.

جاء البويهيون والمغول والتتار والسلاجقة والأتراك والفرس والعثمانيون، وكلهم طبقوا اللعبة على العرب. العثمانيون بقوا أربعة قرون في الوطن العربي، استغلوا شعبه وأكلوا خيراته وقتلوا وأبادوا منه الكثير، وأرجعوه إلى الوراء بقدر ما استعمروه وكل هذا حصل باسم الدين، والعرب قانعون تمام القناعة بما يحصل، وراضون تمام الرضا.

ومن ناحية أخرى، فقد فرض هذا الوضع نفسه على العرب تماما، ولم يعد بمقدورهم التخلص منه أو إزاحته، أو حتى إيجاد بديل عنه، لماذا؟ لأنه أولاً قد خرج من أيديهم تماماً، وأصبح بيد الغير . ثانياً لأن عقل الشخصية العربية الباطني مبرمج بشكل أو بآخر على الانقسام والخلاف. ثالثاً لأن هناك دماء قد أريقت، وهذه الدماء ليست من طرف واحد، بل من كل الأطراف، وهذه الدماء قد أريقت من أجل عقيدة ومبدأ كان قي الماضي مجرد خلاف بسيط، تحول بقدرة قادر، وبفضل شخصية الإنسان العربي، إلى عقيدة ومبدأ، وقد دفع العرب ثمن ذلك الخلاف، الكثير الكثير، الذي لا يعوض . والأكثر من ذلك، أن العرب قد حوسبوا من قبل الغير على هذا الخطأ الذي هو من شأنهم ، وليس لأي شعب آخر علاقة به .

جاء الفرس وأول شيء ، عملوه هو محاسبة العرب على قضية علي ومعاوية ، وجاء الأتراك من بعدهم وفعلوا نفس الشيء ، وجاء أيضاً المغول والبويهيون والسلاجقة والعثمانيون ، وأول شيء كان يفعله كل واحد من هؤلاء المستعمرين عند دخوله الأرض العربية، هو محاسبة العرب على قضية علي ومعاوية، فتبدأ المجازر بالعمل، وكل هذا ذهب ضحيته الإنسان العربي فقط ولا أحد سواه. العثمانيون والمغول وغيرهم من شعوب احتلت الأرض العربية، لم يدفع ولا واحد منهم ثمنا لخلاف وقع بين بني أمية وبني هاشم، بل تحولوا هم إلى مسؤولين وقضاة عن هذه القضية أو تلك، ولهذا يجب أن يعاقبوا المجرم والمخطئ، ومن المجرم أو المخطئ؟ إنه تارة يكون من بني أمية، وتارة من بني هاشم، تارة من السنة وتارة من الشيعة. السلطان سليم، وتيمورلنك وهولاكو وجنكيز خان وغيرهم، من الذين لا علاقة لهم لا

بعثمان ولا بعلي ولا بمعاوية، ولا حتى بالجنس العربي كله من أساسه، جعلوا العرب يدفعون ثمن هذا الخلاف العربي ـ العربي، لماذا؟ لأنها السياسة. لقد استمر العرب في محاسبة بعضهم البعض على هذا الخلاف وجعلوه خلافا شرعيا له صفة الألوهية والمصداقية والشرعية، وثبتوه وجعلوه من مسلماتهم لدرجة أن أصبحت الشعوب الأجنبية تحاسبهم عليه هي الأخرى .

إن العرب قد انفردوا عن الشعوب الأخرى، والأديان الأخرى بهذه الميزة، ميزة سفك دماء بعضهم البعض، وما زالت إلى الآن العداوات والضغينة قائمة إذا نظرنا اليوم إلى الواقع الديني المعاصر للإنسان العربي، نراه إلى حد كبير منبثقاً عن الواقع القديم، ولكنه خضع لأمور وتغيرات أثرت عليه قليلاً، والتاريخ الديني للعرب، يقسم إلى فترتين أو قسمين، قسم يمتد من بداية الإسلام وحتى بداية العصر الأموي، وقسم يمتد من العصر الأموي إلى نهاية العصر العثماني، وهذا هو التاريخ القديم، أما العهد الحديث، فيبدأ من نهاية العهد العثماني إلى الآن .

ويتميز التاريخ القديم عن الحديث، بأنه في العهد القديم كانت الطبقة الدينية هي المسيطرة على السلطة والحكم، أي كان الحكم يأخذ شكلاً دينياً بالرغم من كونه سياسياً في الأصل، وكانت الدول والممالك بالرغم من كونها في الأساس سياسية، فإنها كانت تقوم على نظام ديني بحت، كما أن القوانين الاجتماعية والاقتصادية، كانت كلها مستمدة من الشريعة الإسلامية تماما، وخاضعة لها بشكل مطلق، وكان الحاكم أو السلطان أو الملك حاكما دينيا بشكل من الأشكال، وكان يلقب بأمير المؤمنين أو الخليفة، وما شابه ذلك من ألقاب تدل على ولائه وعمله لأجل الإسلام. بينما في العهد الحديث انحسرت السلطة الدينية، وذهب مفهوم النظام القائم على أساس ديني من معظم الدول العربية، وظهر بدلا منه نظام سياسي بحت، أي أنه بشكل أوضح يمكن القول بأن السياسة قد أخذت مفهومها الكامل والواضح عند العرب وأضحت هي المسيطرة على نظام الحكم والسلطة بشكل فعلي، وتحولت القوانين إلى قوانين سياسية، وان كان قسم منها مستمدة من الشريعة الإسلامية، كالقوانين الاجتماعية، وبالرغم

من ذلك أصبحت أقل حدة من الماضي وأكثر تساهلاً في بعض الأمور. بينما القوانين التجارية والاقتصادية قد انفصلت تماماً عن الدين والشريعة الإسلامية، وذلك كله كان نتيجة لظهور الحضارات الحديثة والاختلاط بالعالم، بعد أن كان العرب معزولين تماماً عن العالم الخارجي.

السياسة الإسلامية والمفهوم السياسي

في هذا الفصل سوف نناقش مقولة و مصطلح " السياسة الإسلامية " و " الإسلام السياسي "، ونقارنها مع المفهوم السياسي البحت، وهل أن الإسلام في بدايته كان له مفهومه السياسي. وهل أن السياسة منذ عهد الإسلام، كانت موجودة ومعروفة بالمفهوم السياسي السائد كما هو معروف.

في البداية لابد لنا من شرح معنى ومفهوم السياسة اللغوي والنحوي. جاء في لسان العرب أن : السياسة من ساس أو سوس وهي الرياسة، يقال ساسهم، أي رأسهم، وساس الأمر أي قام به (انتهى).

والسياسة تعني أيضاً الترويض والتأديب، حيث يقولون: سائس الخيل أو الجمال أو الحيوانات المفترسة، أي مروض هذه الحيوانات، والمتحكم بها، والذي يهذب طباعها ويجعلها أليفة.

والسياسة أيضاً تعني الحيلة والمسايرة والمناورة، حيث يقال: فلان أخذ فلان بالسياسة، أي سايره وناوره.

والسياسة أيضاً تعني الحكم المباشر، ففي المفهوم الحديث تعرف السياسة بأنها فن الحكم وإدارة البلاد.

والسياسة تعني أيضاً علاقة الإنسان بالإنسان، يقال: فلان سياسته كذا مع فلان، أي طريقة تعامله.

والسياسة تعني أيضاً رؤية معينة، ومنطقاً معيناً، حيث يقال: فلان سياسته بالحياة كذا، أو له سياسة معينة بكذا، أي أن فلاناً رأيه ومنطقه هكذا، أو له رأي معين بموضوع معين.

مما سبق نستنتج أنه يوجد للسياسة عدة مفاهيم، وعدة تعاريف مختلفة، وكلها تأخذ علاقة الإنسان وسلوكه وتصرفاته من كافة النواحي، ونلاحظ أيضاً، أنها مقتصرة على الإنسان فقط ، فالحيوانات لا سياسة لها.

والسياسة ليست محددة بتعريف معين أو نظرية ثابتة، فتارة تأخذ منحى التبديل وعدم الثبات وعدم التحديد والموضوعية، وذلك عندما تأخذ معنى الحيلة والتلاعب والمناورة والترويض. وتارة تأخذ منحى الثبات كما في حالة الخطط والرأي والإدارة.

ومع مرور الزمن تطور مفهوم السياسة واتسع مجالها، وتطورت لتأخذ شكل علم كامل له نظرياته وقواعده وطرقه ومناهجه، كما اتخذت السياسة مفهوم الفن، وأصبحت تعرف بالإضافة على أنها علم، بأنها فن أيضاً، مجاله واسع وقابل للتعدد والتنوع.

والسياسة عرفت منذ القدم، وبشكل خاص في القرون الوسطى، وكانت لها مدارس، كالمدرسة الميكافيلية، وظهرت لها نظريات وطرق معينة، وفي العصر الحالي ، أصبح للسياسة علم خاص بها ، وأصبحت متشعبة وتطال معظم فروع الحياة وتدخل في كل مجالاتها ، سواء بين الأفراد أو بين الدول والمجتمعات . وأصبح للسياسة أيضاً عدة أقسام وفروع خاصة في مجالات الدولة ، كالسياسة الخارجية والسياسة الداخلية والسياسة الاقتصادية والتجارية ، والسياسة الدولية، إلى ما هنالك.

والسياسة كمبدأ أو كمفهوم مستقل، ظهرت منذ القدم في المجتمعات والممالك القديمة، وخاصة المجتمعات الحضرية والمدنية، وعرفها الإنسان القديم المتحضر، وإن لم تكن بهذا المفهوم الواسع والشامل كما هو الآن، ولكنها كانت موجودة، فمنذ القديم كانت الدول والممالك تقوم على مجموعة من الأسس والقوانين، وكان هناك نوع من التعامل السياسي الذي يحدد علاقة كل مملكة أو دولة مع الدولة الأخرى، فقد دلت المكتشفات الحديثة، والأثريات على وجود نوع من القواعد والاتفاقيات التي تحدد العلاقة السياسية والتجارية بين الدول، كما ظهرت منذ القدم النظريات والأسس التي تحدد عمل المجتمعات وسياستها الداخلية، فمنذ زمن ما قبل الميلاد، وضع أفلاطون نظريته حول تأسيس الدولة.

وإذا نظرنا إلى التاريخ الإسلامي، وبالذات فترة بداية ظهور الإسلام، لرأينا أن السياسة كانت موجودة في تلك الفترة في التاريخ العربي، ومعروفة لدى الإنسان العربي في الجاهلية وصدر الإسلام، ولكنها لم تكن موجودة للممارسة كما هو الحال في الإمبراطوريتين الفارسية والرومانية المجاورتين للجزيرة العربية، حيث كانت السياسة في كلتا الدولتين، موجودة بشكل ملموس نسبياً، وذلك نظراً لتوافر مقومات الدولة والمدنية في تلك المجتمعات بشكل أوسع وأكبر.

أما في الجزيرة العربية، فلم يكن هناك وجود للسياسة كممارسة فعلية، لأن مقومات الدولة والحضارة المدنية، لم تكن موجودة بشكل واسع دائماً، وإنما انحصرت على نطاق ضيق ولفترات محدودة في بعض الممالك العربية. وعند مجيء الإسلام إلى الجزيرة العربية، بقي مفهوم السياسة على حاله، ولكن وبعد انتشار الإسلام في كل أنحاء الجزيرة العربية وأراضي الدولة الفارسية، وفي فترة نهاية العصر الراشدي وبداية العصر الأموي، ظهر ما يسمى بالسياسة الإسلامية، أو المفهوم السياسي الإسلامي، وهذا التعريف ظهر بشكل واضح لدى المؤرخين والكتاب الإسلاميين في تلك الفترة وما تلاها. وكثيراً ما نرى كلمة "السياسة الإسلامية" أو "سياسة الإسلام" في كثير من الكتب والمقالات سواء التاريخية أو الحالية، وكثيراً ما كتب حول هذا الموضوع وتم التطرق إليه من معظم المؤرخين العرب.

وقد يبدو هنا أن مفهوم السياسة الإسلامية هو نفسه السياسة بحد ذاتها[1] وأن ذلك يجيز للإسلام التدخل بالسياسة والتفاعل معها، ويجوز دمج الدين بالدولة والسلطة، كما يظن البعض، أو كما فعلوا وطبقوا هذا الشيء.

لقد اعتقد العرب في الماضي أن السياسة الإسلامية كما قرؤوها وكتبوا عنها، هي السياسة نفسها، ومن هنا اعتقدوا أنه لا يجوز فصل الدين عن السياسة والدولة. وسوف نحاول هنا أن نبين أن مفهوم السياسة الإسلامية، هو غير مفهوم السياسة بمعناها المجرد، وذلك بالرغم من وجود المفهومين في تلك الفترة.

---

[1] السياسة التي سوف نتحدث عنها تشمل كل تعاريف السياسة و لا تقتصر بالضرورة على الحكم و السلطة .

ولمعرفة مفهوم السياسة الإسلامية، لابد من أن نعرف كيف نظر لها المفكرون والمؤرخون العرب في تلك الفترة، وكيف نظروا إلى مفهوم السياسة بشكل عام . فقد عرف ابن عقيل السياسة الإسلامية بقوله "السياسة ما كان فعلاً يكون معه الناس أقرب إلى الصلاح وأبعد من الفساد، وإن لم يضعه الرسول، ولا نزل به وحي"[1] . وقال صاحب البحر في تعريفها "السياسة هي فعل شيء من الحاكم لمصلحة يراها". وعرفها عبد الوهاب خلاق "السياسة الشرعية، تبحث عما تدبر به شؤون الدولة الإسلامية من القوانين والنظم التي تتفق وأصول الإسلام". (السياسة الشرعية). وقد ورد في كتاب السياسة الشرعية "إن الغاية من علم السياسة الإسلامية، هو الوصول إلى تدبير شؤون الدولة بنظم من دينها، والإبانة عن كفاية الإسلام بالسياسة العادلة".

من هذا السرد والوصف للسياسة الإسلامية، نرى أن السياسة الإسلامية بالدرجة الأولى قد اهتمت بالأخلاق الإنسانية والاجتماعية والتعاليم التي حض عليها الدين الإسلامي، ودعت إلى الأعمال الصالحة، وأقرت كافة الأمور التي جاء بها الدين الإسلامي، كالعدل والمساواة ومكارم الأخلاق، كما أنها تخضع للدين الإسلامي بشكل مطلق، وكلها من القرآن و سنة الله .

وإذا نظرنا إلى القرآن الكريم، نستطيع أن نرى أنه بشكل عام، قد حدد التعاليم الإسلامية الإنسانية، بشكلين أساسيين، الأول وهو الأمور الأخلاقية والإنسانية كمكارم الأخلاق والصدق والعدل والنهي عن المحرمات، كالخمر والزنا..الخ، وهي أمور أخلاقية إنسانية. والشكل الثاني، هو العلاقات بين الناس أنفسهم، وهذا الشكل يحدد للناس طريقة تعاملهم مع بعضهم البعض في الأمور الاقتصادية ككتابة العقود وعدم الغش والربا، وفي الأمور الاجتماعية، كالتعاون والقصاص والإرث وطلب العلم والعقوبات.

---

[1] الطرق الحكمية في السياسة الشرعية - موسوعة الحضارة الإسلامية .

فهذه التعاليم الإسلامية، والتي ذكرها القرآن الكريم، والحديث الشريف تقع كلها ضمن إطار واحد، ومتكاملة مع بعضها البعض، فالسنة أو الحديث النبوي الشريف الصحيح ، تتطابق تماماً مع القرآن الكريم ، ولا يوجد اختلاف بينهما حتى الأمور التي لم ترد في القرآن الكريم ، هي مشابهة لأحكامه ومتطابقة معها .

إن السياسة الإسلامية (إن صحت التسمية فعلاً) قد تطرقت إلى مختلف جوانب الحياة الاجتماعية والإنسانية ، وبعضاً من الأمور الاقتصادية ، وهذه الأمور جميعها هي بالدرجة الأولى أمور روحية أخلاقية ، تصب في النهاية في خانة علاقة الإنسان مع الله ، حتى الأمور التي تتعلق بعلاقة الإنسان مع الإنسان ، هي بشكل غير مباشر تعبر عن علاقة الإنسان مع الله ، وهي أمورٌ تندرج في خانة الأخلاق الإنسانية ، فالعقوبات التي ذكرها القرآن الكريم ، كعقوبات حد الزنى أو السرقة أو شهادة الزور الخ، هي لمنع المعاصي ، وهي عقوبات تتعلق بالأخلاق والآداب ، وتبعها بعقوبات إلهية في الآخرة .

وعندما حددت الشريعة الإسلامية كيفية التصرف بالمال والإرث ، فهذا من منطلق حفظ حقوق الناس ، الذي يندرج في باب العدل الذي هو أحد بنود الشكل الأول للسياسة الإسلامية المذكورة في كتب المؤرخين .

إذاً لا نستطيع القول أن السياسة الإسلامية هي سياسة ، بل هي في الواقع عبارة عن تعاليم وشرائع دينية محضة وليست سياسة ، ولا يمكن أن نطلق عليها اسم سياسة ، وحتى مفهوم السياسة الإسلامية ، هو مفهوم غامض غير محدد بدقة وغير معروف ماذا يقصد به بالضبط ، وهو مفهوم غريب ، لا بل دخيل على الشريعة الإسلامية ، فليس هناك آيةٌ قرآنية أو حديث نبوي شريف فيه كلمة السياسة الإسلامية ، وحتى كلمة السياسة نفسها لا وجود لها في القرآن الكريم ولا لكلمة ساس التي هي مصدر أصلها .

وقد وردت في القرآن الكريم كلمة قد تكون مرادفة لكلمة سياسة ، وردت في آيتين من القرآن الكريم ، وهي كلمة وسوس التي ربما تكون كلمة السياسة مشتقة منها ، وذلك في سورة الناس والتي هي آخر

سورة في القرآن الكريم من حيث الترتيب ، حيث تقول (قل أعوذ برب الناس*ملك الناس* إله الناس* من شر الوسواس الخناس* الذي يوسوس في صدور الناس* من الجنة والناس) . كما وردت أيضاً في سورة طه ، الآية /١٢٠/ (فوسوس إليه الشيطان وقال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى) .

فكلمة وسوس أو وسواس تشابه كلمة سوس من حيث اللفظ ، وحتى من حيث الفعل ، فكلمة وسوس تعني التشكيك بالشيء وعدم البت فيه أو جزمه والشك فيما يعتقده الشخص أو يفترضه . فالوسواس المقصود به في الآيتين السابقتين ، هو الشيطان ، والشيطان يوسوس في صدور الناس ، أي يحاول أن يغير من إيمانهم بالله ، بكافة الوسائل والطرق ، تماماً كما فعل بآدم في الجنة عندما وسوس في صدره ، وجعله يأكل من الشجرة التي حرمها الله عليه ونهاه عنها ، فغير الشيطان من تفكير آدم واعتقاده ، باعتقادٍ آخر جديد ، وذلك عن طريق الحيلة . والسياسة تعني أيضاً في مفهومها ، الحيلة والدهاء ، فعندما يقال أن فلاناً أخذ فلاناً بالسياسة ، فإن ذلك يعني أنه احتال عليه أو راوغه وناوره ، وجعله يغير من اعتقاده السابق ويشك فيه ، وعادة يُلجأ إلى هذا الأمر عندما لا يمكن تحقيق الغرض المطلوب بالقوة أو الإرادة المباشرة ، فإبليس لم تكن لديه أي قدرة أو سلطة ليتحكم بآدم ، لأنه لو كان يملك هذه القدرة ، لربما كان أخرج آدم من الجنة ، أو نفاه من الوجود كله ، أو وضعه في مكان آخر ، خاصة وأن الله سبحانه وتعالى قد طلب من إبليس السجود لآدم ، وطالما أن إبليس لم يستطع أن يحقق هدفه بالإرادة المباشرة ، فإنه لجأ إلى الحيلة .

ويتضح لنا هذا الأمر إذا علمنا أن إبليس في البداية علا وتكبر على آدم ورفض حتى فكرة المساواة به أو التكلم معه ، عندما اعتبر نفسه من نار و آدم من طين . ولكن عندما رضخ للأمر الواقع اضطر إلى مهادنة ومسايرة آدم والتكلم معه والتقرب منه لنيل هدفه .

إن هذا المبدأ شائعٌ أيضاً في الحياة البشرية ، فالإنسان في بعض الأحيان عندما لا يستطيع أن يحقق هدفه بالقوة فإنه يلجأ عادة إلى الحيلة والسياسة . وهذا الإنسان يفترض به أن لا يكون متديناً ومؤمناً ، لأنه والحالة هذه لجأ إلى أسلوب غير مقبول في الإسلام ، فالله سبحانه وتعالى ينهى عن الغش والخداع والكذب ، ويأمر بالصدق والحق .والإنسان الذي يلجأ إلى السياسة في تعامله مع الآخرين ، فإنه يلجأ إلى هذه الأمور حتماً ، حتى السائس على سبيل المثال الذي يسيس الحصان ، فإنه يلجأ معه في البداية إلى الإغراء بشتى الوسائل والطرق كأن يعطيه جزرة أو يغريه بأي شيء يؤكل حتى يتمكن منه ويروضه ليمتطيه .

والرسول الكريم لم ترد في أحاديثه كلمة السياسة ولم يتحدث عنها ، حتى عندما صرح مرة عن الخدعة وأجازها تجاوزاً ، فإنه لم يذكر كلمة السياسة ففي غزوة الخندق عندما أخذ المشركون يستعدون لغزو المدينة المنورة ، حفر المسلمون حولها خندقاً ، وعندما وصل المشركون لم يستطيعوا عبور الخندق ، ولذلك ربضوا حول المدينة في محاولة لحصارها ، ولم تحدث معركة أو قتال شامل بينهم وبين المسلمين ، وتم عقد هدنة مؤقتة.

وعندما اشتد الحصار على المدينة ، أتى رجل من الأنصار إلى الرسول (ص) ويدعى نعيم بن مسعود ، وعرض المساعدة عن طريق استخدام الحيلة ، وأن يفتن بين المشركين و يوقع بينهم ، فوافق الرسول (ص) على ذلك وأجازه قائلاً للرجل " خذل عنا ما استطعت فإن الحرب خدعة"[1] . أي أن الرسول (ص) قد وافق على استعمال الخدعة والتي هي الغش والكذب ، وهو الذي نهى عن استعمال هذه الأشياء وحظرها ، وله أحاديث كثيرة تنهى عن الكذب والنفاق والخديعة . ولكنه برر هنا هذا الموقف بأن الحرب خدعة . أي أن الرسول (ص) عندما أجاز لنعيم بن مسعود اللجوء إلى الخدعة برر له ذلك بأن هذا هو منطق الحرب ، أي كأنه يقول هنا أن التعامل أصبح في منطق الحرب والدهاء وأن الذي

[1] تاريخ الإسلام ج١ – أحداث التاريخ الإسلامي ج١ ص/٣٦/ .

سيدخل هذا المجال سيتعامل مع هذه الأمور بشكل أو بآخر ، خاصة وأن الرسول (ص) (حاشاه ذلك) منزه عن كل هذه التصرفات والأمور .

لقد بين الرسول(ص) في هذا الموقف أن أمور الحرب ومنطق السياسة يقتضي فعل هذه الأشياء .أي أن الرسول (ص) قد فصل بين الإسلام و بين السياسة والحرب ، وكأنه يقول هنا أن هذه الأمور لا علاقة لها بالإسلام والشريعة الإسلامية وهي منفصلة عنها . فالرسول (ص) سمح لابن مسعود بممارسة هذا الأمر ، ولكنه استدرك في الجملة الأخيرة وقال " فإن الحرب خدعة "، ولم يقل أن الله قد أمر في هذه الظروف بأن نمارس تلك الأمور ، لأن ذلك غير وارد . إذاً فإن عمل ابن مسعود هذا،هو كما بينه الرسول (ص) ، أمور سياسية محضة .

ولكن تبرز هنا مسألة مهمة ، وهي أن الرسول (ص) وصف ذلك بالحرب وليس بالسياسة ، وهذا ربما يعود إلى احتمال أن السياسة في تلك الفترة لم تكن مفهومة للعرب بهذا المعنى ولم تكن قد اتضحت لهم معانيها وأبعادها الحقيقية ، ذلك لأنهم لم يمارسوها كما مارسها غيرهم فهم لم يكونوا قد شكلوا نظام الدولة ، ولذلك لم يدخلوا في مجال السياسة بالمعنى الحقيقي ، خاصة عندما يتبين لنا أن مهمة ابن مسعود هي سياسية محضة وليست عسكرية ، فهو قد ذهب بمهمة شخصية فردية ليس فيها طابع القتال بل الكلام والنقاش فقط ، كما أنه لم يكن قائداً حربياً ولم يبعثه الرسول (ص) على رأس حملة أو فرقة من المسلمين ، كما أن القتال وقتها لم يكن دائراً بين المسلمين والمشركين ، ولم يكن الطرفان بشكل عام بحالة الحرب ، بل على العكس من ذلك كان هناك نوع من الهدنة المؤقتة .

إذاً في مثل هذه الحالات كان ممكن أن يقول الرسول (ص) له : خذل عنا ما استطعت فإن السياسة خدعة . وكما ذكرنا فإن السياسة يمكن أن تكون في تلك الفترة غير مكشوفة للعرب بشكلها الكامل والواضح ، لأنهم لم يمارسوها من قبل بالشكل الواسع ، لأن مقومات الدولة لديهم غير موجودة ، ولهذا وصفها الرسول (ص) بأنها حرب أي أنها كانت تعني آنذاك الحرب والغزو .

هنالك أيضاً تفسير آخر ربما يكون هو الأصح ، وهو أن العرب إذا كانوا وقتها لا يعرفون السياسة بشكلها الحقيقي ، فإن الرسول (ص) كان يعرفها ويعرف مزاياها وصفاتها الحقيقية ، ويعرف أن تلك المزايا والصفات تخولها التفاعل مع الإسلام بدون أن يشعر العرب بذلك . وإن والرسول (ص) كان يعرف النتيجة التي يمكن أن تحصل من خلال هذا التفاعل ، ولهذا آثر أن لا يذكرها في كافة أحاديثه وتوجيهاته التي كان يقولها ويبلغها للناس ، وهذا ما يجعلنا نخمن بأنه سمح لابن مسعود بالتحرك بحرية من باب الحرب وليس من الباب الآخر .

إن السياسة هنا تعني مفهوم الدولة أكثر من مفهوم الحرب ، وربما هذا ما تجنبه الرسول (ص) لأنه ليس الهدف عنده إقامة دولة ، ولم يؤمر بذلك . ونستطيع أن ندرك ذلك إذا عرفنا أن ابن مسعود قد جاء هو بنفسه إلى الرسول (ص) وعرض عليه أن يقوم هو (أي ابن مسعود) بهذا الأمر . فالرسول (ص) لم يستدع ابن مسعود إليه ويكلفه بهذه المهمة ، أي أن الرسول (ص) لم يكن بباله ، أو موكل إليه القيام بهذه المهمات حتى في نطاق السياسة ، لأن هذه الأمور ليست من اختصاص الرسول (ص) إطلاقاً وليست واردة في الدين الإسلامي ، وهو لم يلجأ إلى ذلك في جميع غزواته ، علماً أن الرسول (ص) يستطيع إذا أراد القيام بهذه الأمور وهو ليس عاجزاً عنها .

هذا الأمر يرجعنا مرة أخرى إلى تعريف ابن عقيل للسياسة الإسلامية " ما كان فعلاً يكون معه الناس أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد وإن لم يضعه رسول الله ولا نزل به وحي " . هنا قال عنها بأنها أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد ، وهذا التعريف ينطبق على السياسة ، لأنه تعريف غير محدد بدقة ، ومجال المناورة والتأويل فيه كبير جداً .ولكنه في وصف السياسة الإسلامية التي نشأت بعد العصر الراشدي هو تعريف دقيق جداً ، فهو شمل الدين والسياسة بآن واحد ، فالدين يتبع الصلاح وينهى عن الفساد ، بينما السياسة ربما قد تتبع الفساد وتبتعد عن الصلاح ، أي أن احتمال وجود الفساد والخطأ فيها

هو احتمال قائم . وهذا التعريف يأخذ أيضاً بنفس الوقت موقفاً وسطاً من الدين والسياسة ، فلا هو ديني تماماً ، ولا هو سياسي تماماً . فكلمة أقرب إلى الصلاح لا تعني الخلو من الفساد ، وكلمة أبعد عن الفساد لا تعني أيضاً الخلو من الصلاح . وهذا المعنى إذا ما قارناه مع المفاهيم السياسية لرأينا بأنه نوع من أنواع السياسة ، وبمعنى أدق .... الدبلوماسية .

ولكن ابن عقيل استدرك وقال منبهاً ومؤكداً ، أن الرسول (ص) لم يأت بهذه المفاهيم ولم يصرح بها ولا نزل بها وحي ، أي إنها باختصار لا تدخل في نطاق الدين الإسلامي ، لا قرآناً ولا سنةً.

إذاً فمفهوم السياسة الإسلامية هو مفهوم فرض نفسه بعد العصر الراشدي وجاء نتيجة للأحداث والتغيرات التي شهدتها الفترة الإسلامية الواقعة في نهاية العصر الراشدي وبداية العصر الأموي وما بعده ، وهذا المفهوم الذي فرض نفسه على العرب في غمرة تلك الأحداث ، فرض عليهم أيضاً تغيير نظامهم القيادي السائد ما قبل العصر الأموي ، بنظام قيادي آخر هو نظام الدولة الإسلامية .

إذاً كان من نتيجة ظهور السياسة الإسلامية ، ظهور الدولة الإسلامية ، إذاً يصبح لدينا هنا ثلاثة مفاهيم مختلفة عن بعضها البعض وهي :

– السياسة الإسلامية التي شكلت أساس نظام الدولة الإسلامية في الحكم الأموي .

– السياسة الإسلامية التي تحدث عنها المؤرخون و لا زال إلى الآن رجال الدين يتحدثون عنها في كل مناسبة والتي قصدوا بها الشريعة الإسلامية .

– السياسة الحقيقية بمفهومها المجرد .

فالسياسة الإسلامية التي ظهرت بعد العصر الراشدي ، هي سياسة حقيقية وموجودة كان من نتائجها قيام نظام الدولة بكافة مقوماته وعناصره . أما السياسة الإسلامية التي تحدث عنها المؤرخون والمفكرون العرب والتي قصدوا بها الدين الإسلامي ، هي سياسة وهمية غير موجودة ولا يمكن اعتبارها كحقيقة

قائمة ، فلا الدين الإسلامي والشريعة الإسلامية يعترفان بها ويقران بوجودها ولا السياسة الإسلامية الحقيقية تقبل بها وتتوافق معها . فالدين الإسلامي لا يعترف بها بالرغم من كون معناها الشريعة الإسلامية نفسها ، لأن الدين الإسلامي لا يقر ولا يعترف بشيء اسمه سياسة على الإطلاق ، أياً كان نوع تلك السياسة (هذا لا يعني الرفض أو الإنكار أو التضاد) . كما أن السياسة الإسلامية الفعلية لا تقر بها لأنها تعتمد الشريعة الإسلامية بشكلها الروحي فقط ، بدون قيام ونشوء نظام الدولة . كما أن السياسة البحتة المجردة أيضاً لا تعترف بها ، لأن السياسة المجردة قد لا تشترط ضمن قوانينها و أسسها وجود الدين .

من هنا يمكن أن نطلق على السياسة الأولى سياسة الدولة الإسلامية . والثانية سياسة الشريعة الإسلامية، وبما أن السياسة الثانية غير موجودة منطقياً ، إذاً لا يوجد تاريخياً سوى سياسة الدولة الإسلامية ، والسياسة البحتة بمفهومها المجرد .

وإذا عدنا إلى الأحداث العربية الحاصلة منذ تلك الفترة وإلى الآن ، نرى أنه كان هنالك علاقة مشتركة بين السياسة الإسلامية والسياسة البحتة ، وأن السياسة الإسلامية الناشئة هي في الأصل عبارة عن جزء من السياسة المجردة التي لم تكن قد توضحت للعرب بشكل كافٍ ، مع أنها كانت موجودة لدى الشعوب والأمم المجاورة لهم . هذا الأمر يقودنا إلى تساؤل وهو ، هل أن السياسة الإسلامية التي تشكلت بعد العصر الإسلامي في الإمبراطورية الإسلامية ، جاءت نتيجة عفوية للأحداث والمعارك التي سبقتها ، أم أن تلك الأحداث كانت أداة مقصودة للوصول للسياسة الإسلامية وتشكيل الإمبراطورية الإسلامية ولو بشكل غير مباشر . في الحقيقة يصعب التكهن بذلك بالضبط ، ولكن هذا ما يقودنا إلى مناقشة موضوع آخر وهو موضوع المجتمع الإسلامي والدولة الإسلامية .

إذاً مما سبق نستنتج أن مفهوم سياسة الشريعة الإسلامية التي ذكرها المؤرخون والمفكرون العرب هو مفهوم وهمي غير موجود ويختلف اختلافاً جذرياً عن السياسة الإسلامية و مفهوم الشريعة الإسلامية .

المجتمع الإسلامي
و الدولة الإسلامية

جاء الإسلام إلى الجزيرة العربية فغير النظام السائد فيها من الشكل القبلي المشتت إلى مجتمع عربي موحد تجمعه الرابطة الإسلامية والعروبة .

ففي الجاهلية كان العرب قبائل متفرقة تعيش في منطقة متجانسة وبيئة واحدة هي الأرض العربية ،ويتكلمون اللغة العربية وتجتمع بينهم عادات وتقاليد مشتركة تميزهم عن غيرهم من الشعوب والأمم الأخرى ، أي أنهم كانوا شعباً واحداً ليس لديهم لا دولة ولا مجتمع.

ومفهوم الدولة هو غير مفهوم المجتمع ، فالمجتمع هو عبارة عن مجموعة من الناس يعيشون ضمن إطار ثقافي واجتماعي وديني واحد ولهم تراث وتاريخ مشترك وكيان متماسك ورأي واحد وقيادة صورية أو روحية واحدة ، ولكن ليس لديهم نظام سياسي خاص بهم ونابع من إرادتهم ، أو يمكن أن يكونوا خاضعين لنظام سياسي غريب عنهم ولا يمتون إليه بصلة ، أو يكونوا جزءاً من نظام سياسي. أما الدولة فهي عبارة عن مجتمع له نظامه السياسي وقوانينه الناظمة لشؤونه الاجتماعية والاقتصادية والعسكرية النابعة إما من المجتمع نفسه أو من نظام حكومي خارجي .

والعرب في تلك الفترة لم يكونوا يشكلون مجتمعاً ولا يمكن وصفهم بأنهم مجتمع وذلك بالرغم من وجود لغة واحدة وتاريخ واحد وأرض واحدة ، فهم أولاً كانوا منقسمين إلى .

قبائل متعددة ، وكل قبيلة لها نظامها الخاص بها ، وثانياً فإن هذه القبائل نفسها لم تكن مجتمعة فيما بينها لتشكل نظاماً متماسكاً واحداً وبنية اجتماعية موحدة ، بل على العكس ، كانت هذه القبائل في معظم الأحيان تغزو بعضها البعض وكانت أحياناً في حالة تنافر وتناحر. ثالثاً إن هذه القبائل كانت بعضها خاضعاً إلى دولتين أجنبيتين هما الدولة الفارسية والإمبراطورية الرومانية . فقسم منها كان خاضعاً للفرس والآخر للرومان ، وكل قسم كان يخضع لسياسة الدولة التي تحكمه .

والعرب أيضاً لم يكونوا دولة ، لأنهم أولاً لم تكن لديهم مقومات المجتمع ، على اعتبار أن الدولة هي شكل متطور وراقٍ من أشكال المجتمع وثانياً لم يكن لديهم نظام سياسي وقانوني ينظم أمورهم أو نظام قيادة موحد يتحكم بهم مباشرة .

ولما جاءهم الإسلام ، غير من تركيبتهم الاجتماعية و ألغى نظام القبائل لديهم و جعلهم مجتمعاً واحداً ، فأصبحت عقيدتهم واحدة و دينهم واحد . وقد اكتمل تشكيل المجتمع الواحد لدى العرب بعد فتح مكة على يد الرسول (ص) ، فالعرب في هذه المرحلة قد أصبحوا مجتمعاً واحداً لأنهم أولاً أصبح لديهم كيان واحد و نظام واحد و هو الإسلام و الشريعة الإسلامية ، و لديهم قيادة روحية تمثلت في شخصية الرسول (ص) ، ولكن نظام الدولة لم يكن يوجد لديهم بالرغم من كل تلك الميزات الجديدة . وبالرغم من وجود ذلك النظام في الدول المجاورة لهم . وهذا لم يكن عن جهل أو عدم إدراك ، بل عن وعي كامل لأن الرسول (ص) أراد فقط بناء المجتمع الإسلامي ، ولو أراد تشكيل نظام دولة سياسية لفعل ذلك ، ولكنه لم يشأ أن يدمج الإسلام مع السياسة . وحتى في القرآن عندما نزلت الآية (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً) (المائدة ٣) .

ففي هذه الآية لم يتم التطرق إلى مسألة الدولة أو الكيان السياسي . فلم يرد القول مثلاً ، اليوم أكملت لكم دينكم ودولتكم . وفي المنطق عندما يكتمل شيء ما ، يكون قد شمل جميع ما يحتاجه ولم يعد هناك مجال للزيادة ، أو الإضافة ، لأن كلمة الاكتمال والإتمام تعني النهاية ، أي أن هذا الشيء أو المصطلح قد أخذ جميع عوامله ومقومات وجوده ، وتوفرت فيه جميع الشروط والعناصر التي تلازمه أو تعد من مستلزماته حتى وإن كانت ثانوية .وكل ما يضاف إليه فيما بعد يصبح فائضاً لا حاجة له ، فعندما نقول : فلان أتم عمله ، أي أنهاه وقام بجميع ما يحتاجه ذلك العمل . ونقول أن فلاناً أكمل شيئاً ما أي أنهاه أيضاً وجعله كاملاً . وكلمة كامل تعني الشمولية وعندما قال سبحانه وتعالى (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا) يعني أن الله سبحانه وتعالى قد أعطى كل ما يريد أن يعطيه سواءً بالدين أو بالنعمة ولم يعد هناك مجال لإضافة شيء جديد . وطالما أن الدين قد اكتمل فإنه قد شمل كل ما يريد أن يشمل . وطالما أنه لم يُرد ذكر الدولة أو السياسة في الدين الإسلامي والشريعة الإسلامية فإن ذلك يعني أن الدولة ليست داخلة في نطاق الدين ولا بشكلٍ من الأشكال . ونستطيع أن نلاحظ ذلك في القرآن وفي جميع أحاديث الرسول (ص) ونهجه ، بعد خضوع الجزيرة العربية له ، حيث كان هدفه الأول والأساسي هو نشر الإسلام بالدرجة الأولى وبناء المجتمع الإسلامي القائم على المساواة والعدل والتسامح .

وقد أوضحَ الرسول (ص) منهج وطريقة المجتمع الذي أراد إنشاءه ، في أول نص وكتاب وضعه للمسلمين وذلك في المدينة المنورة عندما آخى بين المهاجرين والأنصار . وكان ذلك الأساس لبناء المجتمع الإسلامي حيث قال : ((بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من محمد النبي (ص) بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد

معهم ، إنهم أمة واحدة من دون الناس ، والمهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدي عاينها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو جشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة منهم تفدي عاينها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وإن المؤمنين لا يتركون مغرماً بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل . ولا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه ، وإن المؤمنين المتقين على من يغى منهم أو ابتغى دسيعة ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين وإن أيديهم عليه جميعاً لو كان ولد أحدهم . ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر ، ولا ينصر كافر على مؤمن . وإن ذمة الله واحة يجير عليهم أدناهم وإن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس . وإنه من اتبعنا من يهود فإن له النصرة والأسوة غير مظلومين ولا متناحر عليهم ، وإن سلم المؤمنين واحد ، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم .

وإن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضاً ، وإن المؤمنين يبيء بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله . وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه وإنه لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفساً ولا يحول دونه على مؤمن وإنه من اعتبط مؤمناً قتيلاً عن بينة فإنه قود به ألا يرضى ولي المقتول ، وأن المؤمنين عليه كافة ، ولا يحل لهم إلا قيام عليه ، وإنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثاً ، ولا يأويه . وأنه من نصره أو آواه ، فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل ، وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد (ص) . وإن اليهود يتفقون مع

المؤمنين ما داموا محاربين ، وإن يهود بني عوف أمة من المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم ، فإنه لا يوتغ نفسه وأهل بيته . وإن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف ، وإن ليهود بني الحرث ويهود بني ساعدة ويهود بني جشم ويهود بني ثعلبة ويهود بني الأوس ، مثل ما ليهود بني عوف ، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته، وأن الله على من أبر هذا ، وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم وإن بينهم النصر على من حارب هذه الصحيفة وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم ، وأنه لم يأثم امرؤ بحليفه وأن النصر للمظلوم وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين . وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة . وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم ، وإنه تجار حرمته إلا بإذن أهلها ، وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو استجار يخاف فساد ، فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله ، وإن الله على من اتقى ما في هذه الصحيفة وأبره وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها ، وإن بينهم على من دهم يثرب وإذا دعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين ، إلا من حارب في الدين على كل الناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم .

وإن البر دون الإثم ، لا يكسب كاسب على نفسه ، وإن الله على من أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره وأنه يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم . وأنه من خرج آمن ومن قعد آمن إلا من ظلم وأثم وأن الله لمن بر واتقى ومحمد رسول الله (انتهى) "[1] .

نلاحظ من موضوع هذا الكتاب أنه قد خاطب العرب على أساس أنهم مجتمع ، ولم يرد فيه ذكر الدولة أو السلطة وكل بنوده كانت اجتماعية وأخلاقية بالدرجة الأولى وهي توضح علاقة المسلمين مع بعضهم البعض ضمن الإطار الاجتماعي الخاضع للشريعة الإسلامية من

[1] سيرة ابن هشام ج٢ - الطبقات الكبرى ج١ - تاريخ الإسلام ج١ – الوثائق السياسية للعهد النبوي و الخلافة الراشدة .

مكارم الأخلاق وما يتوافق مع الإسلام وكل ما هو لأجل خدمة الدين الإسلامي . كما ركز على أن موضوع القصاص هو شأن من شؤون الله سبحانه وتعالى .

وعندما عين الرسول (ص) مبعوثين من عنده على المناطق كانت كل تعليماته لهم تدخل ضمن نطاق الشريعة الإسلامية وتركز على العلاقات الاجتماعية التي تدخل ضمن نطاق الحقوق والآداب الإنسانية ، وتنهي عن ارتكاب المعاصي و الموبقات وتعمل على تبيان أصول ومفاهيم الدعوة الإسلامية .

فحين بعث عمر بن حزم إلى اليمن ، بعث له في كتاب يقول فيه " بسم الله الرحمن الرحيم . هذا بيان من الله ورسوله ، يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعهد ، عهد من محمد النبي رسول الله (ص) لعمرو ابن حزم حين بعثه إلى اليمن أمره بتقوى الله في أمره كله "فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون " .أمره بأن يأخذ بالحق كما أمره الله وأن يبشر الناس ويأمرهم به ويعلم الناس القرآن ويفقههم فيه وينهي الناس ، فلا يمس القرآن إنسان إلا وهو طاهر ، ويخبر الناس بالذي لهم والذي عليهم ويلين للناس بالحق ويشتد عليهم في الظلم فإن الله كره الظلم ونهى عنه ، ويبشر الناس بالجنة وبعملها وينذر الناس بالنار وبعملها ، ويستألف الناس حتى يفقهوا في الدين ، ويعلم الناس معالم الحج وسنته وفريضته " انتهى[1] .

وعندما بعث الرسول (ص) معاذ بن جبل ، زوده بكتاب يعمل على تطبيقه قال فيه " يا معاذ ، علمهم كتاب الله وأحسن أدبهم على الأخلاق الصالحة،وانزل الناس منازلهم ـ خيرهم وشرهم ـ وأنفذ فيهم أمر الله ولا تحاشي في أمره ولا ماله أحداً ، فإنها ليست بولايتك ولا مالك ، وأد لهم

---

[1] المصادر السابقة .

الأمانة في كل قليل وكثير وعليك بالرفق والعفو في غير ترك للحق ، يقول الجاهل قد تركت من حق الله ، واعتذر إلى أهل عملك من كل أمر خشيت أن يقع إليك منه عيب حتى يعذروك . وأمت أمر الجاهلية إلا ما سنه الإسلام . واظهر أمر الإسلام كله ، صغيره وكبيره ، وليكن أكثر همك الصلاة فإنها رأس الإسلام بعد الموعظة فإنه أقوى له على العمل بما يحب الله ثم بث فيهم المعلمين واعبد الله الذي إليه ترجع ولا تخف في الله لومة لائم .أوصيك بتقوى الله وصدق الحديث والوفاء بالعهد وأداء الأمانة وترك الخيانة ولين الكلام وبذل السلام وحفظ الجار ورحمة اليتيم وحسن العمل وقصر الأمل وحب الآخرة والجزع من الحساب ولزوم الإيمان والفقه في القرآن وكظم الغيظ وخفض الجناح . وإياك أن تشتم مسلماً أو تطيع آثماً أو تقصي إماماً عادلاً أو تكذّب صادقاً أو تصدق كاذباً . واذكر ربك عند كل شجر وحجر . واحدث لكل ذنب توبة . السر بالسر والعلانية بالعلانية " انتهى[1] .

هنا أيضاً نلاحظ وبشكل واضح كيف ركز رسول الله (ص) على العبادات والتقوى ومكارم الأخلاق والآداب الإنسانية السامية الرفيعة ولم يتطرق أبداً ولا بشكل من الأشكال إلى الأمور السياسية أو أشار إلى وجود كيان الدولة والسلطة . فلقد كان عمل الرسول (ص) الإسلامي هو نشر الإسلام وبناء المجتمع الإسلامي والأمة الإسلامية ، وهذا ما نلاحظه جلياً في أحاديثه وخطبه وأعماله .

و عندما نشر الإسلام في الجزيرة العربية و استتب له الأمر فيها ، بعث إلى الملوك والحكام في المناطق والدول المجاورة يدعوهم إلى الإسلام[2] ، كانت رسالته دعوة لهم إلى

---

[1] المصادر السابقة .

[2] السيرة الحلبية – الطبقات الكبرى ج١ – تاريخ الإسلام ج١ .

الإسلام والإيمان بالله . فقد بعث إلى كسرى ملك الفرس رسالة جاء فيها ((بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس . سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله . أدعوك بدعاية الله فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين ، أسلم تسلم فإن أبيت فعليك إثم المجوس)) .

كما بعث إلى المقوقس ملك الأقباط في مصر رسالة جاء فيها ((بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط . سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد : فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإنما عليك إثم القبط ، يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا أشهد بأنا مسلمون)) .

كما بعث الرسول (ص) برسالة إلى قيصر الروم جاء فيها : ((بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد بن عبد الله إلى هرقل عظيم الروم . سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد : فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين ن فإن توليت فإنما عليك إثم الإدريسيين، و يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعض أرباب من دون الله ، فإن تولوا فقولوا أشهد بأنا مسلمون)) .

وبعث أيضاً إلى النجاشي ملك الحبشة يدعوه فيها إلى الإسلام قال فيها : ((بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى النجاشي ملك الحبشة . سلام عليك .فإني أحمد إليك الله الملك القدوس المؤمن المهيمن وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته التي ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة فحملت بعيسى فخلقه من روحه ونفخه كما خلق آدم

بيده ونفخه وإني أدعوك إلى عبادة الله وحده لا شريك له والموالاة على طاعته وأن تتبعني فتؤمن بي وبالذي جاءني فإني رسول الله وقد بعثت إليكم ابن عمي جعفر ومعه نفر من المسلمين فإذا جاؤوك فأقر ودع التجبر وإني أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل وقد بلغت ونصحت فاقبلوا والسلام على من اتبع الهدى)) . كما بعث إلى جميع أمراء وحكام العرب التابعين للإمبراطورية الفارسية والرومانية يدعوهم فيها إلى الإسلام بنفس ما دعا إليه الملوك .

ومن خلال نصوص تلك الرسائل التي بعث بها الرسول (ص) إليهم نرى أنه لم يطلب من أولئك الملوك والحكام في تلك الدول والإمبراطوريات التنازل عن العرش والسلطة كما لم يطلب منهم تغيير النظام السياسي لمجتمعاتهم بل اكتفى فقط بدعوتهم إلى الإسلام وإلى الإيمان بالله سبحانه وتعالى ولم يتطرق إلى الشؤون السياسية لديهم ولا إلى مشاكل السياسة بل ولم يتطرق أصلاً إلى السياسة في خطاباته وكتبه إليهم لأن موضوع السياسة عنده هو موضوع منفصل تماماً عن موضوع الدين وليس هناك مجال للاحتكاك بينهما .

كما أن الرسول (ص) ومن خلال كتبه و رسائله إلى الملوك والحكام وأرباب السياسة لم يطلب إليهم تغيير لغة شعوبهم وبلدانهم إلى اللغة العربية ولم يطلب إليهم التقيد بالعادات والتقاليد العربية. ولا يوجد في كتاباته ورسائله تلك ما يشير إلى تلك الأمور ولو من باب التلميح ، بل على العكس إننا لنلحظ أن نصوص الرسائل هي محكمة بشكل يدل على أن ذلك كان مقصوداً وليس من باب الصدفة .

فالغاية إذاً كانت أن تتبع الشعوب والأمم الأخرى الدين الإسلامي وتبقى على تراثها وحضارتها ولغتها وحكامها ، خاصة وأن الرسول (ص) خاطبهم كدين إلى دين حين قال لهم يا أهل الكتاب ولم يقل لهم يا أهل دولة كذا وكذا . أي أن المقصود هو أن يبقى كل شيء على

ما هو بالنسبة لتلك الشعوب والدول ما عدا الدين والإيمان والأمور التي تنتج عنهما وهي الشريعة الإلهية . إذاً فالهدف هو إقامة المجتمع الإسلامي في الدولة الرومانية أوالفارسية على سبيل المثال ، دون الحاجة إلى تغيير النظام السياسي أو الهيكل الإداري والقيادي القائمة عليه تلك الدول والمجتمعات.

إذاً يمكن القول أنه في عهد الرسول (ص) أصبح العرب يشكلون مجتمعاً إسلامياً واحداً ألغيت فيه كل أشكال القبلية والتجزئة . مجتمعاً لم يرتبط فيه الدين الإسلامي مع السياسة ، بل أصبحت فيه السياسة الاجتماعية إن صح التعبير ، خاضعة للشريعة الإسلامية خضوعاً مطلقاً ، ولم يكن هناك أي وجود فعلي وعملي للسياسة كما أنه لم يكن هناك أي نوع من أنواع القيادة السياسية ولا الممارسة السياسية .

أي إن مفهوم الدولة بمعناها المجرد وأنظمتها وقوانينها لم يكن موجوداً ، والسبب هنا هو أن الدين الإسلامي الذي هو دين سماوي ، ليست الغاية منه إنشاء كيان سياسي أو دول أو ممالك ، ولم يأتِ ليقيم الإمبراطوريات والدول الإسلامية بقدر ما أتى ليعلم الناس ويدلهم على خالقهم ويضع لهم قواعد وأمور دينية وأخلاقية بدون التدخل في الشؤون السياسية أو الاقتراب منها .

وجميع الأديان السماوية الثلاث ، اليهودية والمسيحية والإسلام ، نحت هذا المنحى ، فكلها أتت من أجل هداية المجتمعات البشرية الإنسانية ، ولم تأتِ من أجل قلب الإمبراطوريات أو إنشاء كيانات سياسية . فالنبي موسى (ع) بعثه الله في مصر ليهدي قومها ويدعوهم إلى الله ، وبعد ذلك عبر البحر باتجاه سيناء هو وقومه . وبالرغم من كل ذلك لم ينشئ دولة أو مملكة ليحكمها .وعيسى (ع) أيضاً لم يسع لإنشاء دولة أو يقيم كياناً سياسياً .

ومحمد (ص) عندما استتب له الأمر في الجزيرة العربية ، لم يسع لإنشاء دولة أو إمبراطورية، ولو شاء لفعل ذلك بكل سهولة ، كما أنه لم ينصب نفسه ملكاً على المسلمين ، والتاريخ الإسلامي كله لم يذكر أي صفة سياسية للرسول (ص) . وإذا عدنا إلى الرسائل التي كان يبعثها إلى الملوك والأباطرة والحكام ، نرى أنه لم يذكر نفسه فيها بأي صفة سياسية كالملك أو الحاكم ، ودائماً كان يبدأ كتابه بعبارة " من محمد رسول الله إلى الملك فلان عظيم كذا " ولم يقل مرة من محمد حاكم الجزيرة العربية أو عظيمها أو ملكها ، إلى الملك فلان . علماً أنه كان يخاطب المرسل إليه بصفته السياسية كالملك أو الحاكم .

إذاً فالرسل والأنبياء بشكل عام ، ورسل الديانات السماوية الثلاث بشكل خاص ، لم يبعثوا ليقيموا الممالك وينشئوا الدول ويحكموا البلاد ، بل بعثوا لهداية البشر وإرشادهم إلى الطريق الصحيح ، وهم لم يكونوا قط في حياتهم حكاماً أو ملوكاً أو أمراء ، كم لم يكن لهم أي منصب أو نوع من أنواع الزعامة والوجاهة ، بل على العكس من ذلك كانوا من طبقة فقراء العالم ومروا بأنواع عديدة من الظلم والاضطهاد ، وقاسوا من العذاب والجور . الكثير وحتى بعد تمكنهم من نشر دعوتهم و إتباع قومهم لهم ، لم يتخذوا أي نوع من أنواع الحكم السياسي أو المباشر ، كما أنهم لم يتخذوا أي لقب أو صفة سياسية أو قيادية ، إلا الذين ورد ذكرهم بالقرآن والكتب السماوية على أنهم كانوا أو أصبحوا حكاماً وملوكاً ، كداود وسليمان ويوسف عليهم السلام . ومن تلك الآيات:

- " واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان " [البقرة ١٢٠] .

- " وقتل داود جالوت وأتاه الله الملك والحكمة " [البقرة ٢٥١] .

- " فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً " [النساء ٥٤] .

وعن النبي داود عليه السلام جاءت الآية :

- " وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب " [ص٢٠] .

- " يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق " [ص٢٦] .

في حين لم يذكر الأنبياء أصحاب الديانات السماوية الثلاث بتلك الصفات بل على العكس ، حجبت عنهم وحدد دورهم فقط بتبليغ الرسالة .

- " وما محمد إلا رسولٌ قد خلت من قبله الرسل " [آل عمران ١٤٤] .

- " وما المسيح بن مريم إلا رسولٌ قد خلت من قبله الرسل " [المائدة ٧٥] .

ولو أراد الله سبحانه وتعالى أن يجعل من رسله ملوكاً وحكاماً ، لكان قد حدد ذلك في القرآن ووصفهم جميعاً بأنهم ملوك . وطالما أن الإسلام هو دين شامل واسع أتى للبشرية جمعاء ، فإن الغاية منه ليست إنشاء دولة أو كيان سياسي بل إنشاء مجتمع إسلامي عام وشامل .

لقد كان من الممكن قبول فكرة أو نظرية أن الإسلام أتى ليقيم وينشئ كيانات سياسية ، لو أنه جاء فعلاً وأصلاً إلى فئة معينة من البشر ، ومن هنا نستطيع أن نميز بين المجتمع الإسلامي الذي كان قائماً في عهد الرسول (ص) والخلفاء الراشدين ، وبين الدولة الإسلامية التي بدأت بالعهد الأموي وانتهت بالعهد العثماني . ففي العهد الراشدي كانت صيغة المجتمع الإسلامي هي الطاغية على صيغة الدولة الإسلامية التي لم تكن قد ظهرت بعد . فبعد وفاة الرسول (ص) لم تتغير هيكلية نظام القيادة الإسلامية سواء من حيث الشكل أو المضمون ، وإن

كانت قد أصبحت أقل روحية من عهد الرسول (ص) ، فقيادة الرسول (ص) للمجتمع الإسلامي العربي كانت قيادة روحية خالصة ومطلقة ومرتبطة بتعليمات إلهية عن طريق الوحي ، بينما القيادة الاجتماعية في العصر الراشدي لم تكن كذلك كما في عهد الرسول (ص) ، فهي لم تكن إلهية أو روحية مطلقة كما كانت قيادة الرسول (ص) التوجيهية بل كانت امتداداً لها وتطبيقاً لتعاليمها .

فالخليفة أبو بكر الصديق عندما تولى الخلافة بعد الرسول (ص) سمي خليفة الرسول ولم يسمَّ أو يلقب بملك أو حاكم ، وجاء الخلفاء الراشدون بعد أبي بكر واتبعوا نفس الأسلوب والطريقة في قيادة المجتمع الإسلامي الوليد .

وكلمة الخليفة هنا تعني خلافة الرسول (ص) وليس الله سبحانه وتعالى ، أي أن الخلفاء هنا خلفاء الرسول (ص) وينوبون عنه ولا ينوبون عن الله سبحانه وتعالى ، ولا يتمتعون بصفة الحكم والقيادة السياسية بل التوجيه والإرشاد والقيادة الدينية الاجتماعية ، لأنه كما ذكرنا فإن الله سبحانه وتعالى قد حدد من هم الحاكمون أو الملوك أو الخلفاء في الأرض وربط بهم صفة الحكم المباشر " يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق " . أي أن صفة الحكم هنا قد ارتبطت بالخلافة المنصوص عليها مباشرة ، وهنا تبرز لدينا قضية الحكم بنوعيه الديني والسياسي ، وقضية التوجيه أو القيادة الدينية الاجتماعية .

إن الأديان السماوية الثلاث عندما نزلت إلى البشر ، نزلت لهداية الإنسانية وتعريف الإنسان بربه وخالقه بالدرجة الأولى ، ووضع قواعد وتعاليم اجتماعية وروحية لعلاقة ذلك الإنسان بربه . فالحكم الديني البشري الذي لم يحدده الله سبحانه وتعالى ، هو بشكل من الأشكال حكم سياسي حتى ولو كان هذا الحاكم الديني يحكم دينياً بشكل صرف ، لأن الحكم

المباشر حتى ولو كان دينياً صرفاً فإنه غير موجود ولا معترف به في الأديان السماوية ، إلا للأنبياء الذين جعلهم الله سبحانه وتعالى حكاماً وملوكاً . فهو سبحانه وتعالى لم يقل للنبي داود احكم بين الناس إلا بعد أن قال له إني جعلتك خليفة ، أي أن الله سبحانه وتعالى قد حدد دور النبي داود بالملك والحكم وأعطاه تلك الصفة .

فالرسل والأنبياء كانوا لا يتخذون أي نوع من أنواع الحكم المباشر ، بل كانوا ينحون نحو التوجيه والإرشاد والقيادة الروحية ، و الرسول (ص) لم يحكم الناس حكماً مباشراً ، بالرغم من أنه كان يقيم حدود الله ولا يتهاون فيها إطلاقاً ، وهو من النواحي الإنسانية والاجتماعية لم يكن يميل بشكل عام إلى إصدار قرارات أو تعاميم أو أوامر ، بل كان يكتفي بالحض والتشجيع والترغيب الإلهي ، أو بالترهيب الإلهي والعقاب في الآخرة ، كأمور الرشوة والرفق بالحيوان وصلة الرحم والبر بالوالدين والمساعدة والكيل والبيع والشراء . وهذا ما نراه أيضاً إذا ما رجعنا إلى كتب الرسول (ص) إلى الملوك والأباطرة ورسائله إلى عماله ومبعوثيه إلى الأمصار والمناطق .

فالأديان السماوية لا تعتمد صيغة الحكم وطبيعته ، وذلك ليس من باب الرفض والنفي والمخالفة للقوانين ، بل من باب علاقة الإنسان بربه والتي هي عماد وأساس الأديان السماوية ، ولا تعتمده أيضاً من باب الارتباط بها والاندماج معها .فالأديان السماوية لا تطالب بإلغاء طبيعة ودور الحكم في الحياة البشرية ، ولكنها أيضاً بنفس الوقت لا تطالب به ولا تربطه معها ، بل تعتبره منفصلاً عنها تماماً ولا علاقة له بها ، تماماً كما تعاملت مع مفهوم السياسة وطبيعتها .

لقد اتجهت الأديان السماوية إلى صيغة التوجيه الاجتماعي والقيادة الروحية ، وهذا ما نلاحظه من خلال الكتب السماوية نفسها وما أقرت به . وهنا يبرز لدينا السؤال التالي : طالما أن الأديان لا تقبل بأي نوع من أنواع الحكم والسلطة المباشرة والارتباط به ، فلماذا لم تحسم أمر هذه القضية وتحددها ، ولماذا تجاهلت مفهوم الحكم ودوره في الحياة الاجتماعية والسياسية . ولم تتطرق إليه بشكل مباشر وتعالجه بشكل أوسع و تعطي رأيها الصريح به ؟ .

إن الجواب الأقرب إلى المنطق يجب أن يكون بأن الأديان كان غايتها الأساسية بشكل عام علاقة الإنسان بالله وسمو الإنسان إلى معرفة الله والتقرب منه . فالغاية هنا هي غاية علم وليست غاية حكم . ففي عهد الرسول (ص) وعهد الخلفاء الراشدين لم تكن هناك أي ظاهرة أو أمر يشير إلى وجود دولة أو كيان سياسي بالرغم من وجود ذلك في المجتمعات المجاورة وهذا لم يكن عن جهل بأمور السياسة والدول ، ولكنه كان عن وعي وإدراك خاصة وأنه كان يجاور العرب حينذاك أكبر نظامين سياسين لأكبر دولتين في العالم وقتها وهما الدولة الفارسية والرومانية . وكان من المفترض بالعرب الإلمام والتأثر بنظم السياسة والدولة نتيجة الاحتكاك المباشر بهاتين الدولتين . لكن الغاية من الدين الإسلامي لم تكن تسمح بذلك ولهذا لم يكن نظام الدولة موجود في ذلك العصر . فالرسول والخلفاء الراشدين على سبيل المثال لم يكن لديهم حُجاب ولا جيوش نظامية أو مناصب سياسية كوزير أو قائد شرطة وما إلى ذلك وكل هذه الأمور هي من المقومات الثابتة والأساسية لكيان وهيكلية أي دولة .

ففي كل غزوة وكل معركة أثناء عهد النبي أو أثناء الفتوحات لم يكن هناك قائد حملة ثابت لجيش المسلمين أو قائد مختص بل كان يتغير في كل مرة كما أنه لم يكن مثلاً جيش نظامي ومعين للعمليات العسكرية . وكانت العلاقة بين القواد والجنود علاقة تتميز بالتبعية

الروحية الدينية حيث كان قائد الجيش أو الحملة إماماً لهذا الجيش .إذاً فإن مقومات وعناصر وظواهر الكيان السياسي والدولة ، لم تكن موجودة في تلك الفترة . إذاً يمكن القول أن نظام الدولة لم يكن موجوداً في ذلك الوقت .

ولكن ومع انتهاء عصر الخلفاء الراشدين بمقتل الإمام علي آخر الخلفاء الراشدين واستلام معاوية زمام الأمور بدأ ظهور ما يسمى الدولة الأموية وهنا وفي تلك المرحلة بالذات انتقل العرب من نظام المجتمع الإسلامي إلى نظام الدولة الإسلامية وبرز تبعاً لذلك مفهوم النظام السياسي للدولة الإسلامية. ففي تلك المرحلة أصبح العرب يخضعون لسلطة الدولة الإسلامية التي يمثلها الخليفة الأموي . وظهرت أيضاً قوانين سياسية منبثقة عن الشريعة الإسلامية ولكنها ليست هي الشريعة الإسلامية كما كان الأمر في عهد الخلفاء الراشدين . كما ظهرت بالإضافة إلى ذلك مناصب ووظائف جديدة لم تكن موجودة في عهد الرسول (ص) وعهد الخلفاء الراشدين كالوزارة والحجاب والشرطة والكتاب والمراسلين ، وتم تنظيم جيش نظامي كامل . وباختصار تم إنشاء وقيام جميع الأطر الخاصة بكيان وهيكلية الدولة السياسية . وإنشاء نظام سياسي .هذه الأمور جميعها ارتبطت بالحاكم العام وهو الخليفة الأموي الذي أطلق عليه أيضاً لقب ملك العرب . وبالإضافة إلى الأمور الدينية فقد كانت الخلافة تجمع بين أمور السياسة و أمور الدين .

لقد كان العهد الأموي بداية تشكيل الكيان السياسي للدولة الإسلامية . ولكن هذا التغيير الحاصل من نظام المجتمع الإسلامي إلى كيان الدولة ، لم يكن تغييراً عفوياً لظروف طبيعية . بل كان بمثابة تغيير فجائي مقصود حصل في فترة قصيرة جداً ، وهو نتيجة لظروف

وأحداث سياسية دينية طرأت على المجتمع العربي وتمثلت في الصراع والنزاع الذي حصل بعد مقتل الخليفة عثمان بن عفان واستلام الإمام علي الخلافة الرابعة.

ويمكن القول هنا أنه بعدما حصلت تلك المعارك بين العرب المسلمين وبعد مقتل الإمام علي ، لم يجد معاوية بداً من تحويل المجتمع الإسلامي إلى دولة إسلامية وقيادة هذه الدولة قيادة سياسية . والسبب هنا هو أنه بعد كل هذه المعارك الدامية التي وقعت بينه وبين الإمام علي والتي ذهب ضحيتها الكثير من المسلمين ، فإن معاوية بعد ذلك لم يعد يستطيع أن يظهر بمظهر الموجه الروحي للمجتمع الإسلامي ، أي أنه لم يعد يستطيع قيادة ذلك المجتمع الإسلامي قيادة روحية كما فعل الخلفاء الراشدون ، بعدما وصلت الأمور إلى هذا الموصول ، ولو أنه فعل ذلك وحاول بعد استلامه زمام الأمور أن يقلد الخلفاء الراشدين وأن يفترش الأرض وحيداً بلا حرس وحجاب تحت شجرة نخيل وينام كما كان الخليفة عمر بن الخطاب يفعل ، لكان سقط حكماً ولما بقي في موقع القيادة وربما على قيد الحياة يوماً واحداً .

ولذلك فعندما رأى معاوية أن الأمور قد وصلت إلى نقطة حرجة وأن الخلافة والنزاع بين المسلمين قد جرت فيه دماء كثيرة ووصل إلى نقطة اللاعودة ، وأن أكثر من نصف المسلمين ومعظم الصحابة ضده ويريدون إسقاطه و عدم مبايعة ابنه يزيد [1] . رأى أنه لا يستطيع أن يقود الناس روحياً ، ولذلك اضطر لأن يحكمهم سياسياً بدلاً من توجيههم دينياً ، لأنه أصلاً لا يستطيع ذلك ، ولذلك أدخلت السياسة في الدين . وهو اضطر بعد ذلك لأن يفرض رأيه بالقوة وبحد السيف على المعارضين لحكمه وكانت أحاديثه كلها تشير إلى أنه مهتم فقط بالسلطة[1] ، وهذا

---

[1] كتاب المحن – الإمامة و السياسة – أحداث التاريخ الإسلامي ج١ ص/٨٥/ .

[1] تاريخ الإسلام السياسي ص/٤١٢/ - تاريخ الدول العربية ص/٦١١/ - تاريخ الخلفاء للسيوطي .

الشيء قد عززه وفرضه فيما بعد قيام الثورات ضد الحكم الأموي ، وهذه الثورات كانت في أغلبها ثورات سياسية هدفها بالدرجة الأولى الوصول إلى سدة الحكم ، وبالمقابل قام الأمويون بقمع هذه الثورات ، وهذا الأمر استدعى بالضرورة اللجوء إلى الحكم السياسي . فالأمويون والأطراف المناوئة لهم قد وصلوا إلى نقطة اللاعودة خاصة بعدما دخلت عمليات الإبادة والتصفية فيما بينهم ، وهذا يعني أنه ولا طرف من تلك الأطراف يستطيع أن يعتمد على الدين وحده للقيادة والسيطرة ، ولا أن يكون قدوة روحية للطرف الآخر ، فلا الأمويون يستطيعون أن يكونوا قدوة روحية لباقي الأطراف ، ولا المعارضون أيضاً يستطيعوا أن يكونوا قدوة للأمويين . ولذلك وفي تلك الظروف بالذات كان لا بد من الاستغناء عن الإسلام الروحي ، والاعتماد على الإسلام السياسي ، والاستغناء عن المجتمع الإسلامي وإنشاء الدولة الإسلامية .

ومنذ إنشاء الدولة الإسلامية الأموية وظهور التناحرات السياسية (حيث أن الخلافات الدينية والمذهبية لم تكن قد ظهرت وتبلورت بالشكل الكامل) نرى أن السياسة قد دخلت في مجال التعامل العربي وبالتالي اندمجت بالدين الإسلامي وحورته على مقتضاها .

ومع تطور مفهوم السياسة عبر الأزمنة والعصور الإسلامية وإلى الآن ، نرى أن الدين الإسلامي قد تماشى مع هذا التطور ورافقه وظهرت أبواب الاجتهاد وتشكيل المذاهب ، لأن الدين الإسلامي منذ تلك الفترة قد خضع للسياسة واندمج معها ليشكلا مفهوم السياسة الإسلامية ، وهذا ما نلاحظه عند كثير من المفكرين العرب .

إن الملفت للنظر أن البعض يدعو إلى مبدأ إغلاق باب الاجتهاد المطبق منذ قرون عدة ، و في الوقت عينه يدعو إلى عدم فصل الدين عن السياسة .. و السوآل هنا : كيف نغلق باب الاجتهاد

و الدين مدمج مع السياسة ؟؟!! إن هذا يستوجب إغلاق باب الاجتهاد السياسي أيضاً و هذا هو المستحيل بعينه . إننا لا نستطيع في حالة مفهومين مندمجين بعضهما ببعض أن نغلق باب اجتهاد واحد و نترك باب الآخر مفتوح .

ومن يتبع التاريخ العربي بدقة يلاحظ بكل سهولة أن الخلافات والتناحرات العربية الإسلامية قد نشأت وقامت خلال ظهور مفهوم السياسة الإسلامية ونظام الدولة ، وهذا النظام السياسي للدولة الإسلامية هو الآخر بدوره قد نشأ نتيجة لحوادث ومعارك دموية ، إذاً فهناك نوع من العلاقة القائمة بينهما ونوع من الترابط ظهر وامتد على مدى العصور وحتى الآن .

ومن هنا يمكن القول أن الدولة الإسلامية هي غير المجتمع الإسلامي وأن مفهوم الإسلام السياسي هو مفهوم غير دقيق ، ودخيل على الدين الإسلامي ، وكثيراً ما نلاحظ في معظم الكتب عبارة أن " سياسة الدين الإسلامي قد اعتمدت كذا وكذا ، أو أن الدين الإسلامي قد اتبع سياسة واضحة في مجال كذا وكذا ، أو أن الإسلام قد تبنى سياسة كذا وكذا . هذا المفهوم هو غير دقيق على الإطلاق وهو بعيد عن الواقع والصحة ، لأن الدين ليس له سياسة ولم يكن له في يوم من الأيام سياسة ، بل شريعة وتعاليم واضحة محددة . والأكثر منطقية هنا هو مفهوم وعبارة السياسة الإسلامية . فالسياسة الإسلامية هي موجودة فعلاً وقد ظهرت بظهور الدولة الإسلامية .

ولكن كلمة السياسة الإسلامية هي كلمة دقيقة وهي تعني في جملة ما تعنيه دخول السياسة في مجال الدين وارتباطها به وإخضاعه لها ، وبمعنى آخر اكتسابها الصفة الدينية . ولكن أن نقول الإسلام السياسي فهذه عبارة غير دقيقة وغير منطقية ، لأن الإسلام ليس له سياسة بل

هو دين سماوي منزل لا علاقة بالسياسة وهو ليس مسيس ولم ينزل ليسيس الناس بل ليهديهم إلى ربهم .

لقد خلط البعض وظن أن عبارة الإسلام السياسي هي نفسها السياسة الإسلامية ، ولكن هناك فرق شاسع وكبير وهو أنه إذا كانت السياسة الإسلامية موجودة فعلاً فإن الإسلام السياسي هو منطقياً ونظرياً غير موجود . فالسياسة يمكن أن تكون إسلامية ، أي أن تأخذ الطابع الإسلامي لأنه من طبيعتها ذلك ، أي أنها ممكن أن تدخل في أي شيء وتأخذ عدة وجوه وأشكال لأنها غير منظورة وملموسة وغير ثابتة ومقيدة بشيء ، بينما الدين لا يمكن أن يكون سياسياً ، لأن صفاته وميزاته وغايته لا تسمح بذلك.

السياسة ممكن أن تدخل في الدين بشكل عام . ولكن الدين لا يمكن أن يدخل في السياسة .ويتضح الأمر أكثر إذا عدنا إلى كلمة ومفهوم الإسلام والتي تعني التسليم لله ولقضائه وقدره وهذه النقطة بالذات بعيدة كل البعد عن السياسة إذاً الدين من عند الله والسياسة ..... ليست من عند الله . وعندما نقول أن السياسة يمكن أن تدخل في الدين ، فهذا لا يعني أن السياسة يحق لها الدخول في الدين أو أننا نبيح ذلك الارتباط ، بل على العكس فإن السياسة إذا دخلت في الدين فإنها ستؤدي إلى نتائج وخيمة ، وهذا ما حصل منذ بداية العصر الأموي .

إن الله سبحانه وتعالى لا يعرف الناس به عن طريق السياسة بل يدل على ذاته عن طريق الرسل والأنبياء ، وهو يخيرهم و لا يجبرهم ، ومن يسيس الناس هو غير الله . ومن صفات الله الحكمة وليس السياسة . ومن كل هذا نستطيع أن ندرك ونفهم الأحداث التي ألمت بالأمة العربية وبالدين الإسلامي منذ عهد الأمويين ومروراً بالعهد العباسي إلى العهد العثماني إلى الوقت الحاضر . ومنذ دخول السياسة في الإسلام تكاملت الخلافات والنزاعات الدينية مع

النزاعات السياسية ورافقتها جنباً إلى جنب ، ومن الطبيعي أن تنعكس الخلافات السياسية التي حصلت في نهاية العهد الراشدي وبداية العصر الأموي واستمرت فيما بعد ، من الطبيعي أن تنعكس على الدين الإسلامي وتجره معها وأن يؤدي ذلك إلى انقسام الدين الإسلامي إلى طوائف ومذاهب متعددة .

ومن الأمور التي نتجت أيضاً عن دخول السياسة في الدين الإسلامي هو فتح باب الاجتهاد (السياسي الديني) [1]على مصراعيه وظهور الفتاوى الدينية ومن مختلف المذاهب . وربما تكون عملية الاجتهاد قد أدت هي الأخرى أيضاً إلى دخول السياسة نفسها ، أي أن العملية متبادلة ، فالدين كما أسلفنا هو محدد وثابت وبنفس الوقت شامل يشمل جميع نواحي الأمور الروحية والأمور التي أرادها الله سبحانه وتعالى من عباده . وعملية دخول السياسة في الدين ، وعملية إنشاء الدولة الإسلامية كل ذلك قد أوجد مفاهيم ونظريات جديدة تحتاج إلى برهان ديني وإلى رأي ديني فيها ، وذلك كله ترافق مع ظروف مضطربة جداً . وهذه المفاهيم والنظريات الجديدة لم تكن بالطبع موجودة في زمن الرسول (ص) والخلفاء الراشدين لأن نظام الدولة السياسي والذي قد أوجد تلك النظريات والأفكار لم يكن موجوداً .

وطالما أن الدين الإسلامي والشريعة الإسلامية عبارة عن تعاليم واضحة ومحددة وبما أن ذلك لا يتفق مع تلك الظروف والأحداث المتسارعة التي رافقت ظهور الدولة الإسلامية ولذلك كان لا بد من عملية إدخال السياسة بالدين الإسلامي لكي يفتح باب الاجتهاد السياسي الديني على مصراعيه ليستطيع كل طرف من الأطراف المتنازعة التحرك بحرية

---

[1] هو الاجتهاد الذي يخدم أغراضاً سياسية و مصالح فردية بحتة ، و هو ليس الاجتهاد العقلي الذي يستنبط الأحكام الفقهية الدينية المحضة و يقرأ النص قراءة عقلية منطقية **بإتباع القواعد** .

فالسياسة واسعة متشعبة وهي حررت الدين وجعلته قابلاً للنقاش والجدل ، لأنه في زمن الرسول (ص) والخلفاء الراشدين كان الدين لا مجال للاجتهاد فيه إلا في نطاق محدود وضيق جداً ، وحتى بعد وفاة الرسول (ص) كان الاجتهاد يتم ضمن إطار الشريعة الإسلامية وفي نطاق ضيق جداً وعند الضرورة القصوى ولفترة مؤقتة وعند وجود أمر طارئ خارج عن الإرادة الإنسانية ولا يمكن التحكم بمجرى سيره . كما فعل الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب حين اجتهد بعدم قطع يد السارق أيام المجاعة والقحط .

واستمر ذلك حتى نهاية عصر الخلفاء الراشدين تقريباً ، ولكنه بعد ذلك أخذ يتسع ويكبر حتى أصبحت روتينياً عادياً واتسع نطاقه بشكل كبير على مختلف نواحي الحياة ولأمور كثيرة وأصبح أي رجل دين يتصف بصفات معينة يجوز له الاجتهاد وأصبح اجتهاده هذا أبدياً ومنطقياً في بعض الحيان .

إذاً فإن عملية دخول السياسة في الدين كان لا بد لها أن تفتح باب الاجتهاد ، لأنها ليست موجودة لا في القرآن و لا في سنة الله وبالتالي فعند اندماجها بالدين ظهر وكأنه هناك أمور جديدة لم يتم البت فيها من حيث التحريم أو التحليل أو النقاش ، حيث بدا وكأن هناك نوعاً من الفراغ الديني الإيديولوجي يحتاج إلى التنظير والتحديد من جديد . و للأسف الشديد (و هذا نقطة هامة جداً) فقد فتح في الماضي باب الاجتهاد الديني بنوعية السياسي و العقلي و فيما بعد أقفل باب الاجتهاد العقلي و بقي الاجتهاد السياسي ، و كأنه مراد للعرب أن يبقوا كما هم .

و المشكلة الكبيرة أنه و حتى الآن لازالت الخطب المنبرية و في معظم (إن لم يكن كل) المساجد الإسلامية و بعض القنوات الفضائية الإسلامية تتحدث عن السياسة و الحرب و

القتال و لا نسمع من كل المحاضرات و الخطب الدينية إلا الحرب و القتل و السيف و الغزوات و عبارات مثل (ضرب – قتل – ضربه بالسيف – و كان المسلمون يشحذون السيوف في شهر كذا استعداداً للغزو – فقتلوهم جميعاً – أبادوهم – و كروا عليهم بالسيوف و الرماح – قتلوهم عن آخرهم – و كان الصحابة إذا أرادوا الغزو قصروا أو طولوا الصلاة – فضرب قوائم فرسه فقطعها) . و عندما يتم الحديث عن أي صحابي جليل أو تابعي لا يذكر سوى سيرته القتالية و العسكرية (فقأت عينه في عزوة كذا ، ثم فقأت عينه الأخرى في الغزوة الذي بعدها – و كان رحمه الله في الغزوة الفلانية قد أمسك السيف بيمينه و سيف آخر بيساره و القوس على كتفيه و عندما قطعت يده أمسك السيف بالأخرى فلما قطعت أمسكه بذراعه فلما قطعت أمسك الرمح بأسنانه) و سيرة أو حياة أي صحابي أو تابعي تتحدد بالقتل و الضرب و السيف و الغزو . و لا نسمع من الدين سوى القتل و الضرب و سفك الدماء و بتر الأعضاء . حتى الرسول الكريم يزج به دائماً في الغزو و السيوف و القتال ، فلماذا ؟؟ .... (ضرب – قتل – فقأ عينه – قطع رأسه – بتر قوائمه – سلخ جلده – كسر رأسه – قصمه نصفين – أهوى عليه بالسيف – باغتوهم ليلاً – أسروا منهم الكثير – توزيع الغنائم – جيش – ميمنة – ميسرة – سار بجيشه – فتح – أشر – سبى – غَنَمَ – رمح – قوس – سيف – خنجر – درع – سكين – كر – فر – غزوة – هجوم – التحام – صليل السيوف – صوت الرماح) ..... ارحمونا يا أخي .... ارحمونا رحمكم الله ... اعتقونا لوجه الله ..... هذا يا عمي ليس دين .. و الله العظيم ليس دين ... و الله العظيم نشتهي أن يخرج واحد من هؤلاء و يلقى خطبة واحد مرة في هذا الزمن المظلم المدلهم و يتحدث عن المحبة و توحيد المذاهب أو الحديث عن القواسم المشتركة بينها أو أن يحب الإنسان أخيه الإنسان من الطائفة الأخرى . يرد عليك أحدهم و يقول : و لكن كيف سنحارب إذن و ندفع عن أنفسنا هجوم المستعمر ؟؟ و الجواب هو

أننا لا نستطيع الدفاع عن أنفسنا و مقاومة المحتل إلا إذا زجينا بالدين في الحرب و جعلناه متراساً لنا أو نسخنا كل آيات الموعظة الحسنة و الأخلاق و الصبر و الموعظة الحسنة بآية السيف ؟؟؟!! و لماذا نحن بالذات من يفعل ذلك ؟؟؟!!! لماذا في كل أديان العالم لا يتكلمون عن أنبيائهم و مؤسسوا حركاتهم الدينية كما نتكلم نحن ، بل يعطونهم صفات المحبة و الرحمة ؟؟ هل تطورت اليابان و أصبحت من مصاف الدول العظمى عندما جعلت ديانة الشنتو عدوة لكل أديان العالم ؟؟ و هل جعلت الهند ديانتها الهندوسية عدوة لباقي الأديان و جعلت من بوذا رجل حرب ؟؟ أو الصين جعلت من كونفوشيوس مثلاً رجل محارب ؟؟ أو ألمانيا أو فرنسا أو انكلترا أو حتى أميركا هل جعلوا المسيح رجل حرب و قتال ؟؟؟ حتى إسرائيل التي أساس نشوؤها الدين لا يزجون بدينهم كما نفعل نحن . و كيف وصل الاتحاد السوفيتي السابق إلى مصاف الدول العظمى و هو ينكر الدين كله من أساسه ؟؟ و هل روسيا الحالية حولت خطبها الدينية في الكنائس إلى خطب حرب و قتال ؟؟!! . انظر الآن في كل محطات و مراكز العالم الدينية ، لا ترى أية قناة فضائية أو مجمع ديني يلقي خطاباً دينياً حربياً سوانا نحن . فلماذا ؟؟؟!!! و هل جميع العالم المتحضر الآن غفل عن هذه النقطة و نحن الوحيدين الذين انتبهنا إليها ؟؟!!!

لقد وقع العرب في مطب السياسة بدون أن يعو ذلك خاصةً وأنه في تلك الفترة وبالرغم من كونها بداية العصر السياسي وعصر نشوء الدولة الإسلامية العربية بمفهومها السياسي ، فإن مفهوم السياسة بمعناه الحقيقي لم يكن قد ترسخ وتبلور في ذهن وتفكير الإنسان العربي . ومن باب الاجتهاد فتح باب الفتاوى الدينية في أوج الصراع السياسي على السلطة وكل ذلك خدمةً

للسياسة . وقد فعل ذلك الأمر فعله في تحويل الدين الإسلامي إلى مذاهب وطوائف عديدة ، ليس هذا فقط بل أن هذه الطوائف والمذاهب تناصر بعضها العداء لدرجة الإبادة .

ويلاحظ من خلال التتبع لأحداث التاريخ أن جميع الحركات والمذاهب الإسلامية قد نشأت لتكون ضد بعضها البعض ، و العداء برز فيما بينها منذ لحظة نشوئها . بمعنى أن تلك الفروق والمذاهب الإسلامية لم تنسأ لفترة معينة ، ثم بعد ذلك اختلفت فيما بينها أي أنها لم تكن في البداية متوافقة ثم بعد ذلك اختلفت فيما بينها . بل في الحقيقة والواقع أن الاختلاف هو الذي كان سبب نشوئها وهذا الخلاف كان في البداية خلافاً سياسياً ثم تحول بعد ذلك إلى خلاف ديني .

وإذا رجعنا إلى التاريخ مرة أخرى فإننا نرى أن تلك الخلافات الدينية السياسية هي التي دمرت الأمة العربية بمجملها وجعلت الدول الأخرى تغزوها وتحتل أرضها وتحكم شعبها ، طيلة قرون عديدة ، وهذا التفاعل الخطير وغير المضبوط بين الدين والسياسة أدى إلى نسف الرابطة الدينية بين المسلمين ، لأن الدين الإسلامي عندما دخل في هذه المتاهات السياسية وهو الجهاز العصبي للمسلمين العرب أدى ذلك إلى خلخلة في الرابطة الروحية لديهم وهذا ما أدى إلى ضياع القيادة الإسلامية الواحدة وجهاز التحكم الآلي الذي يضبط المجتمع الإسلامي ويسيره .

إن الدين الإسلامي قد تميز بميزات عديدة أهمها أنه تطرق إلى تفاصيل صغيرة ومحددة في حياة الإنسان الاجتماعية إنه يرتقي إلى مسائل حساسة دقيقة ومحددة في الحياة الاجتماعية ، ولعل هذا ما جعل تلك الأمور بمثابة ثغرة وجواز سفر يمكن العبور منه إلى السياسة

.والدين الإسلامي عندما أخضع لهذه المتغيرات السياسية فقد قوته المعنوية في السيطرة على المجتمع العربي الإسلامي ، وتوقفت مهمته الأساسية وهي توجيه الناس وتنظيم علاقتهم مع الله .

لقد تحول الدين الإسلامي إلى أداة لتثبيت الأفكار السياسية والمصالح الفئوية لكل طائفة وجماعة ، ونستطيع أن نلاحظ تاريخيا أنه كلما اشتدت حدة الصراعات السياسية كانت الصراعات الدينية تقوى هي الأخرى بدورها وتشتد ومن هذا التفاعل اكتسب الدين من السياسة ميزة المناورة و التغيير والتبديل واكتسبت السياسة من الدين الشرعية و الثبات . ومن هذا التفاعل تولد ما يسمى السياسة الإسلامية ،وبما أن السياسة لم تكن مفهومة ومعروفة بالنسبة للإنسان العربي العادي فإنها لم تظهر له عندما دخلت في الدين ، لأن الإنسان العربي في الجاهلية كما ذكرنا لم يعرف أو يمارس السياسة لأنه لم يكن يتعامل بها وذلك نظرا لطبيعة بيئته والحياة التي كان يعيشها . وعندما جاء الإسلام بعد ذلك لم يسمح للسياسة بالظهور نهائيا ، وألغاها ، وطرح على الإنسان العربي مفهوماً جديداً للحياة ، وفجأةً حدثت تلك الأحداث في نهاية العصر الراشدي وانتقلت به فجأة إلى نظام الدولة الإسلامية بمفهومها السياسي وأنظمتها وقوانينها الجديدة ، فلم تكن هناك فترة كافية لتأخذ السياسة فيها مكانها ومفهومها في عقلية الإنسان العربي ولذلك فعندما ظهرت السياسة الإسلامية لم يحس العرب بذلك لأنهم لم يكونوا قد عرفوا السياسة بعد ولهذا السبب أيضاً فقد وقعوا في ذلك الفراغ والاضطراب الاجتماعي ، فلقد مرت فترة في تاريخ العرب لم يكونوا يعرفون ماذا يحدث لهم وبالذات خلال فترة بداية الصراعات . كانوا يحسون بأن هناك شيئاً ما ولكنهم لم يكونوا يعرفون ما هو حتى أصحاب الحركات والقيادات في تلك الفترة . كانوا أحياناً ينجرون في تصرفاتهم وكأنهم مسيرون لا خيار

لهم في ذلك ، وكل هذا بسبب هذه الهندسة الذكية المحكمة لهذا التفاعل بين الدين والسياسة .

و نستطيع أن ندرك ذلك عندما نعرف كيفية العلاقة بين الدين والسياسة ، فرجل الدين وبغض النظر عن دينه يستطيع أن ينشئ حزباً دينياً ، ومن السهل عليه ذلك بينما من الصعب ذلك الأمر على رجل السياسة ، فالفكرة السياسية مهما كانت دقيقة وملمة وبغض النظر عن صوابيتها وخطأها ومصداقيتها ، لا بد أن تكون خاضعة للجدل والنقاش ، للرفض أو القبول ، للمعارضة أو التأييد . بينما المفاهيم والأفكار الدينية لا تخضع لذلك مطلقاً لأنها سلفاً قد خضعت للنقاش في الماضي وأثبتت صوابيتها وشرعيتها وقبولها من عامة الشعب ومجرد فكرة نقاشها أو معارضتها أو بها تعرض صاحبها لتهمة التشكيك بالدين وبالله . وبالتالي لا مجال للمناورة هنا حيث أنها وإن وجدت فإنها ستكون محددة وصارمة جداً وخاضعة للتعاليم والقيود الدينية ، و قد ذكرنا سابقاً أنه في العالم العربي الآن يتمتع رجل الدين بمصداقية كبيرة و عالية و شيك على بياض مهما فعل ، بعكس رجل السياسة أو الحاكم الذي هو الآن مكسر عصا الانتقادات .

من السهل والحالة هذه الانطلاق من الدين إلى السياسة ولكن من الصعب الانطلاق من السياسة إلى الدين بدون أن يكون الأمر واضحاً ومكشوفاً . وعملية الانطلاق من الدين إلى السياسة لا تعني بمطلق الأحوال أنها نقض لفكرة ومقولة أن الدين لا يقبل السياسة لأن العملية هنا هي من صنع ومشيئة الإنسان واختياره وهي بشكل غير مباشر عملية دخول السياسة في الدين حتى ولو كان ذلك الانطلاق من الدين إلى السياسة . والمسألة هنا مرتبطة بعاملين اثنين أولهما إخضاع الدين للسياسة لأن عملية الانطلاق من الدين إلى السياسة هي عبارة عن عملية إخضاع الدين للسياسة وربطه بها . وثانيهما كيفية المناورة والحركة ، حيث أن عملية الانطلاق

من مفهوم ثابت واضح ومحدد إلى مفهوم متغير ومبهم تكون المناورة فيها تصاعدية ومطردة تماماً ، كالانتقال من مساحة محددة إلى مساحة أوسع . والعكس هنا صحيح فعملية الانتقال من السياسة إلى الدين هي عملية يكون مجال المناورة فيها متناقصاً وبشكل تنازلي . وهذا ما يفسر لنا بعض الشيء تسارع وتيرة الأحداث الماضية وشرعيتها ، لأنها كانت في الحقيقة عملية انتقال وانطلاق من الدين إلى السياسة ، وذلك بدون أن تنكشف العملية برمتها بشكل واضح وبدون أن تكون مفهومة للعرب .

ولكن كلا العمليتين عملية الانطلاق من الدين إلى السياسة أو الانطلاق من السياسة إلى الدين تشتركان في مفهوم واحد هو إخضاع الدين للسياسة . وعملية دخول السياسة في الدين هي عملية من الصعب كشفها لأن السياسة في تلك الحالة تكون بهيئة الدين ، فعندما يتبنى رجل دين ما موضوعاً سياسياً ما فإنه من الممكن أن لا يبدو الموضوع سياسياً بل عبارة عن تسيير حياة الناس الدينية ، ومن الصعب الإحساس بذلك وهذا ما نراه واضحاً وجلياً وبالذات في العصور الوسطى في أوربة عندما كانت الكنيسة في روما تحكم سياسياً . ولكن عندما يتبنى رجل السياسة موضوعاً دينياً فإن ذلك يبدو واضحاً ومكشوفاً تماماً . ويبدو الأمر بأنه فعلاً قد أخذ منحى دينياً بينما الحالة في الأولى لا نستطيع أن نقول أن الأمر قد أخذ منحى سياسياً .

وهنا يجب التفريق بين أن الدين يتبع للسياسة أو أن السياسة تتبع للدين . فعندما تخضع السياسة للدين فإنها تتأثر به ، تماماً كما نخلط لونين مختلفين ببعضهما البعض ، فعندما يكون أحدهما أكبر وأكثر من الآخر فإن المزيج الناتج من هذا التفاعل والاختلاط سيكون له لون قريب للون الأكثر حجماً . ولهذا فإنه أي الدين عندما يكون هو الطاغي على السياسة فإنها

ستخضع له وسيحورها بمادته لأنه قائم على أساس ثابت وتعاليم محددة وهو لا يتأثر بالظروف والزمن ، على عكس السياسة وبالتالي فإن السياسة هنا ستفقد معناها الأصلي .

أما عندما يخضع الدين للسياسة أو يتبع لها فإنه سيتأثر بها حتى ولو كان يقوم على أسس ثابتة لأنه والحالة هذه ستكون السياسة هنا هي الطاغية وستحور الدين وتكسبه حلتها .

وإذا عدنا إلى فكرة خلط الألوان ، فيمكننا هنا أن نشبه الدين بالذهب وهذا تشبيه فقط على اعتبار أن الذهب لا يتأثر بالظروف والعوامل الجوية . ويمكن أن نشبه السياسة بالحديد أو النحاس . فإذا أردنا مثلاً أن نصنع قطعة معدنية من هذين المعدنين ، فإن هذه القطعة إذا كانت تحتوي على كمية كبيرة أو نسبة أو عيار كبير من الذهب وبنسبة أكبر من النحاس هنا سيتأثر بالذهب وستكون هذه القطعة ذهبية بالرغم من وجود النحاس بها ، وإذا كانت تلك القطعة تحتوي على كمية أو نسبة أو عيار كبير من النحاس وبنسبة أكبر من الذهب ، فإنها ستكون قطعة نحاسية بالرغم من وجود الذهب بها . وعندما نأتي بقطعة نحاسية صرفة ونطليها بقشيرة من الذهب ، فإنها ستأخذ شكل الذهب وسينخدع الناس العاديون بها ، وعلى هذا الأساس لن يستطيعوا تمييزها عن الذهب بينما الصيارفة الماهرون ذوي الخبرة و الباع و التجربة يستطيعون ذلك ، وبعد فترة ستفقد هذه القطعة لونها وربما تصدأ . وإذا عممنا هذه المقولة بشكل أكبر وأخذنا بدلاً من قطعة واحدة الآلاف من القطع وعلى مستوى بلد يتعامل بالذهب مثلاً فسنرى أن القطع النحاسية قد أثرت على اقتصاد ذلك البلد كون الذهب بها قليل .هذه الحالة يمكن إسقاطها على العلاقة بين مفهومي الدين والسياسة ولكن يبقى هنا سؤال وهو : متى خضعت السياسة للدين ومتى خضع الدين للسياسة ؟؟ .

في التاريخ العربي نرى أن السياسة خضعت للدين مرة واحدة فقط وذلك في عهد الرسول (ص) فهو رسول من عند الله سبحانه وتعالى وكانت وقتها الهوة بين أو المسافة كبيرة بين الدين والسياسة ، ولكن وبعد وفاة الرسول (ص) بدأت المسافة تضيق بين الدين والسياسة وازداد التقارب شيئاً فشيئاً حتى تم الالتقاء والاندماج لقد كانت فترة الرسول (ص) فترة ضبط وتحكم صارم وشديد في العلاقة بين الدين والسياسة ، حيث كان هناك حاجز فاصل أو مانع بينهما تمثل بشخصية الرسول (ص) الروحية ، وبمنهجيته وقيادته للمجتمع العربي الإسلامي والتي كانت التعبير والتمثيل للوحي الإلهي . ولكن بعد أن غاب وتوارى ذلك الضابط بدأ ميزان القوى إذا صحت التسمية يتغير لصالح المفهوم السياسي الذي أخذ يسود شيئاً فشيئاً . ولكن بدون أن يعي العرب ذلك ، فهل هذه كانت مصادفة أم العكس .... ذلك من الصعب التكهن به .

وبعد أن خضع الدين للسياسة بدأ الخلاف الديني حيث أصبح هناك معارك وحروب دينية بين المسلمين إذاً نستطيع أن نقول هنا أن السياسة لا تخضع للدين إلا إذا كان هناك مؤثر روحي إلهي موجود وملموس بشكل مادي . يؤثر في تلك العلاقة ، فالآن لا يمكن أن تخضع السياسة للدين لأنه من المستحيل بل من رابع المستحيلات ذلك ، إلا إذا كان رجل الدين هو من عند الله أو هو نبي الله أو رسوله أو خليفة رسول الله وهذا غير وارد و لن يكون أبداً . وبالتالي يجب فصل الدين عن السياسة . وعملياً فإنه حتى لو لم يحدث الصراع والخلاف الديني بين المسلمين فإن خضوع السياسة للدين سيكون بعد فترة غير واقع عملياً وذلك تبعاً لتطورات الزمن .

إن هذا التأويل يقودنا إلى نتيجة مهمة وهي أن السياسة لم تكن معدومة أيام الجاهلية أو غير موجودة في فترة الرسول (ص) ، حيث أنها في الجاهلية لم تكن معروفة بهذا الوضوح أو تمارس كما في الدول المجاورة ، وفي فترة الرسول (ص) استمر تحجيمها وضبطها بشكل أزالها تماماً من الحياة الاجتماعية ، لأنه في فترة ظهور الإسلام وتشكيل المجتمع الإسلامي ، كان من الممكن جداً أن تظهر السياسة وتأخذ مداها الواسع والمعروف لدى العرب ، خاصة بعد تغيير النظام الاجتماعي القبلي المتعدد للعرب ، إلى نظام المجتمع الواحد . وشيء طبيعي عندما يتطور النظام الاجتماعي لشعب ما إلى نظام المجتمع الواحد فإنه لا بد أن يأخذ الكيان السياسي لهذا المجتمع حجمه ومداه ويظهر له طابع الدولة والسلطة . ولكن شيئاً من هذا لم يحدث عندما وحد الرسول (ص) الجزيرة العربية تحت قيادته الروحية .

إذاً فإن السياسة لم تكن معدومة من الوجود ثم جاء العرب فخلقوها وأوجدوها ، بل كانت كامنة مستترة فجاء من أظهرها وأوجدها وستر بها الدين وأيضاً لم يشعر العرب بذلك .

التعصب

مع تطور الخلافات العربية وانقسام المجتمع العربي إلى مذاهب وطوائف متعددة ، وبتأثير الأحداث الحاصلة مع مرور الزمن وصل الأمر فيما بعد إلى بروز مفهوم جديد في حياة الإنسان العربي وهو مفهوم التعصب الديني ، والذي هو النتيجة النهائية للخلافات والصراعات الدينية بين العرب . وقد ساعد التعصب الديني على تكريس التجزئة والتناحر بين مختلف الطوائف الإسلامية وأدى نتيجة لذلك إلى فسخ الرابطة الإسلامية وإراقة دماء كثيرة .

ويختلف التعصب الديني عن العصبية القبلية في الجاهلية بمسألتين ، الأولى هي أن العصبية القبلية ارتكزت في الأساس على الولاء للقبيلة وهذا الولاء لم يكن ولاءً عقائدياً أو فكرياً أو دينياً بل كان عبارة عن ولاء اجتماعي مقوماته رابطة الدم والقرابة والطاعة لشيخ القبيلة الذي يدير شؤون قبيلته أي أنه نوع من الولاء الإداري أيضاً أو ولاء الجماعة . والتحمس للقبيلة في العصبية القبلية هو تعصب أفضلية أي لإبراز محاسن القبيلة والسعي لأفضليتها وتفوقها بين القبائل الأخرى . بينما التعصب الديني هو تعصب ومغالاة فكرية عقائدية دينية متشددة للفرقة أو الطائفة أو المذهب الديني ، وهو تعصب حق ومبدأ ، تنتفي فيه الأفضلية، ويرتكز على الصواب والخطأ ، على الوجود أو عدم الوجود ، بينما لا نلحظ ذلك في العصبية القبلية .

المسألة الثانية هي أن التعصب الديني الطائفي ، اقترن بالكره و الحقد على الغير والإبادة ، بينما العصبية القبلية في الجاهلية لم تقترن بهذه الأمور ، حيث أن الصراع بين القبائل العربية لم يكن صراع وجود أو إبادة جماعية أو قتل لمجرد أن الغير ليسوا من القبيلة نفسها ، بل كان صراعاً مؤقتاً حيث أنه

كان مقترناً بالغزو من أجل الماء أو الرعي أو الغنيمة وأحياناً الثأر ، أو لأجل خلاف معين وينتهي الصراع بانتهاء مسبباته وتعود الأمور بعد ذلك إلى طبيعتها ، كما أن القبائل العربية لم تكن لتكره أو تحقد على بعضها البعض أو تُحرِم الزواج من خارج القبيلة ، فقد كانت هناك مناسبات عدة لالتقاء تلك القبائل ووجدت بينها قواسم مشتركة حيث كان أي فرد من أي قبيلة إذا ما مر بقبيلة أخرى ينزل فيها ضيفاً معززاً مكرماً. وكان الزواج بين القبائل العربية شائعاً ومألوفاً . وهذا ما ليس له وجود في التعصب الديني . ومن هنا نستطيع أن نلمس الفارق بين التعصب الديني والعصبية القبلية .

إن التعصب الديني عندما يبلغ مرحلة متقدمة أو إذا صح القول المرحلة النهائية من مراحله حيث يشتد التزمت و يفقد الإنسان صلاته بالغير ، فإنه في ذلك يكون قد أدخل هذا الإنسان في مرحلة من الشلل الفكري ، وفي هذه الحالة فإنه يأخذ مفهوماً آخر غير مفهوم الانتماء الديني أو المذهبي بل مفهوم السيطرة الدينية المذهبية الطائفية على فكر الإنسان وتصرفاته ، فتنتفي بذلك كل إمكانات الوعي لديه كما تنتفي إمكانية التحليل والمحاكاة العقلانية والمنطقية لديه ، ويصبح الإنسان في تلك الحالة ليس فقط مقيداً اسمياً للطائفة أو المذهب الذي ينتمي لهما بل مقيداً فكرياً وعقلياً وخاضعاً تماماً وبدون إرادة لعلاقات طائفته أو مذهبه مع الطوائف أو المذاهب الأخرى . وهذه المرحلة النهائية من التعصب قد انتشرت في جميع المناطق العربية منذ أن أفرزت الخلافات والصراعات العربية الفِرق والمذاهب الدينية ، وحصلت بينها عمليات تصفية وتكفير وإبادة .

والجذور الأولى لها بدأت منذ نشوء الكيان السياسي للدولة الإسلامية ونستطيع القول وبدون مواربة ، أن التعصب هو السبب الرئيسي لكل الصراعات والفتن وعوامل التخلف التي ألمت بالإنسان العربي فيما بعد وحتى الآن . فالإنسان المتعصب و بغض النظر عن دينه ومذهبه ، هو أشبه بالحجر ، إنه عبارة عن قطعة من الحجر لا تنطق ولا تتحرك ولا يمكن تحويلها أو تليينها ، وإذا ما حاولنا أن نغير في شكلها انكسرت فوراً .

ولعل العامل الأساسي الذي نشأ عليه التعصب الديني عند العرب إنما يعود إلى بداية نقطة اللاعودة تلك ، التي وصلت إليها الخلافات والأحداث الدينية الأولى في بداية عصر نشوء الدولة الإسلامية حيث وصلت المعارك والثورات والنزاعات والحروب في تلك الفترة إلى وضع لا يمكن إصلاحه أو إيجاد قواسم مشتركة فيه بين الأطراف المتنازعة لعدة أسباب منها : أن تلك الخلافات كانت بالدرجة الأولى خلافات عقائدية دينية روحية أساسها القتل وأول ما ابتدأت بمقتل الخليفة عثمان بن عفان ثم تلا ذلك مقتل الإمام علي بن أبي طالب ثم مقتل الحسين بن علي ، وارتباط كل هذه الحوادث بمعارك وحروب دامية كانت في البداية حروب آراء وعقائد ووجهات نظر ، انتهت بعد دخول السياسة بالدين ، بحروب أساسها السيطرة والحكم والدفاع عن الوجود والمصالح .

فأساس وبداية تلك الخلافات هو قضية الخطأ والصواب ضمن أمور معينة ، وهذه الخلافات كانت لها جذور (ذكر ذلك في بداية الكتاب) وكانت ترتكز على أمور دينية أساسية على الأقل في نظر أصحابها ، ولكنها ومع ذلك كانت هامدة ولم تظهر للعلن إلى أن جاء مقتل الخليفة عثمان بن عفان ، ففجر تلك الخلافات وأخرجها للعلن ، ولكنها ومع ذلك بقيت خلافات خطأ وصواب ، عقيدة ومبدأ ، وجاءت الحروب المرافقة لها لتثبت تلك العقائد والآراء المتضاربة المتنافية مع بعضها البعض وترسخها في أذهان أصحابها ولتبرهن على صحتها ومصداقيتها وشرعيتها في نظر أصحابها .

والسبب الثاني والذي هو كما ذكرنا ، دخول السياسة في النزاعات وظهور الدولة الإسلامية . فقد برز عن ذلك معطيات وأحداث ساهمت بشكل مباشر في تكريس التعصب وزيادة حدته وتحويله إلى قضية جوهرية وأساسية في وجود الإنسان العربي حيث أصبح التعصب لجماعة ما هو من أمن تلك الجماعة وأمن الفرد فيها ، فالسياسة والسلطة والحكم جعلت وجود فئة ما ينفي وجود فئة أخرى أو على الأقل يهمشها بشكل كبير ، وهذا ما حصل بالذات من خلال تعاقب الخلافة من العصر الراشدي إلى العصر

الأموي ومنه إلى العصر العباسي وما بعده ، كما أن الاحتلال الأجنبي فيما بعد للأمة الإسلامية قد جاء أيضاً ليكرس هذه المقولة ويطورها .

ونحن هنا لن نعيد ذكر الأحداث التاريخية لتلك الفترة حيث أنه عند وصول كل فئة من الفئات المتنازعة إلى السلطة كانت الفئة الأخرى تتعرض للقتل والتنكيل والاضطهاد . وبالتالي فإنها (أي تلك الفئة المضطهَدة) تلجأ إلى رد الفعل إما من خلال الثورات أو تشكيل الجماعات السرية للإطاحة بسلطة الفئة الأولى وحالما يتم لها ذلك فإنها أول ما تبتدئ به هو تصفية الحساب مع الفئة الأخرى .

وخلال القرون التي تلت العصر الراشدي حصل الكثير من التعاقب على السلطة بين الفئات و الطوائف الدينية العربية وحصل معه بالتالي الكثير من عمليات تصفية الحساب الدموية والتي طالت الكثير من الناس .

لقد أبعد التعصب العرب عن كل شيء ، أبعدهم عن دينهم وعن أنفسهم ، وغفلوا بالتالي عن الأجانب الذين احتلوا أرضهم واستعمروهم مئات السنين وأعملوا السيف في رقابهم .

لقد جعل التعصب العرب في غمرة صراعهم وأوج معاركهم يبتعدون عن دينهم الأساسي ويلتفتون إلى طوائفهم ومذاهبهم . جعلهم ينسون شريعتهم ودينهم الذي يدعوهم إلى المحبة والتسامح (حتى مع الغرباء) ، ويدعوهم إلى الاتحاد ونبذ التفرقة والقتال . جعلهم ينسون دينهم وعقيدتهم التي وحدتهم وجعلت منهم أمة قوية واحدة متماسكة كانت نداً لأعظم إمبراطوريتين في ذلك الحين فجاء التعصب وهدم هذا الصرح الكبير ، ومزق الأمة الواحدة إلى أشلاء متنازعة ، وفي نفس الوقت أيضاً ، فإن التعصب قد جعل العرب لا يعون الخطر المحدق بهم من جراء صراعاتهم وحروبهم الدموية ، ولا ينتبهون إلى تغلغل الأعاجم في السلطة والذين كانوا هم (أي العرب) السبب في ذلك .

وحتى بعد احتلال الأمم والشعوب الأخرى للأرض العربية ، فإن ذلك لم يغير أبداً من تأثير التعصب على عقلية الإنسان العربي أو يخفف من حدته ، بل على العكس ، لقد سَخَرَ العرب احتلال الأمم

والشعوب الأخرى للأرض العربية ، لخدمة تعصبهم وتثبيته ، فتغاضوا عن احتلال تلك الشعوب لأرضهم وتسلطها عليهم وتسخيرهم وتابعين لها ، بل و رحبوا بذلك ، وكل هذا إرضاء لغريزة التعصب لديهم ، وهم الذين كانوا يأنفون في الجاهلية تحكم الأعاجم بهم وتسلطهم عليهم .

وتحليل هذا الأمر يرجع بأنه في الجاهلية كان احتلال الأمم والشعوب الأخرى كالفرس والروم للعرب احتلالاً قومياً بحتاً لا وجود فيه للديانة الواحدة أو المذهب المشترك ، وبمعنى أصح كان احتلالاً أجنبياً لا وجود فيه لقواسم مشتركة بينهم وبين العرب . وهنا نستطيع أن ندرك ونلاحظ بأنه في عصر الجاهلية وبالرغم من احتلال الإمبراطوريتين الفارسية والرومانية الأرض العربية ، فإن القبائل العربية آنذاك كانت تقوم بغزو بعضها البعض ولكن لم يكن هناك دور قومي أو اجتماعي للاحتلال الأجنبي في ذلك أي أن القبائل العربية لم تكن تسخر الاحتلال الفارسي أو البيزنطي في صراعاتها القبلية (ونحن هنا نقول القبلية) ، باستثناء بعض الخلافات السياسية بين الإمبراطوريتين والتي لعب العرب في بعض الأحيان أدواراً معينة ونادرة لا تؤهلها لأن تكون (أي الخلافات) سبباً رئيسياً من أسباب غزو القبائل العربية لبعضها البعض .

فالسبب الرئيسي كما ذكرنا هو الرعي والماء والغنائم . والسبب في ذلك واضح جداً وهو أنه لا وجود لقومية مشتركة بين تلك الشعوب وبين العرب . ولو كان يوجد ولو قاسم مشترك واحد بينهم لربما كانت صراعاتهم وغزواتهم القبلية قد تطورت إلى أسوأ مما كانت عليه بكثير . وبالإضافة إلى ذلك فإن العرب لم يكونوا وقتها يدركون القومية بشكل واضح .إذاً فالتعصب القبلي في الجاهلية لم يكن مرتبطاً بالاحتلال الأجنبي مطلقاً .

ولكن وبعد مائة عام تخلص من العرب من ذلك الاحتلال ، والسبب في ذلك هو الإسلام . عاد ذلك الاحتلال نفسه وعن طريق الإسلام أيضاً إلى احتلال الأرض العربية احتلالاً امتد أكثر من ألف ومائتي سنة ، رافقه هذه المرة مجازر وحروب وأحداث دموية مريعة كان سببها تعصب العرب ضد أنفسهم . مما

مهد للغير التغلغل في الدولة العربية ومن ثم الاستيلاء على السلطة واحتلال الأرض العربية وحكم الشعب العربي من جديد .

والسبب هنا يكمن في وجود قاسم مشترك جديد طرأ على مسرح الأحداث بين تلك الشعوب وبين العرب وهذا القاسم المشترك الجديد هو ، الإسلام .

فالشعوب التي احتلت الأرض العربية هنا ، والتي هي شعوب أجنبية ، وأصبحت شعوباً إسلامية ، قد جمع بينها وبين العرب رابطة الإسلام ، فالاحتلال الأجنبي هنا قد أصبح في هذه الحالة طرفاً أساسيا ورئيسياً في الصراع العربي ـ العربي لا بل إن وجود هذا الاحتلال الأجنبي أصلاً سببه هو ذلك الصراع والاقتتال العربي الداخلي ، أما العامل الديناميكي المحرك لكل هذه الأمور هو التعصب .

لقد كان هناك نوع من التغذية والتغطية المتبادلة بين الاحتلال الأجنبي للأرض العربية وبين الصراع العربي الداخلي (الديني طبعاً) . وإذا عدنا إلى تاريخ الاحتلال الأجنبي الإسلامي للعرب لرأينا انه بالرغم مما رافق ذلك الاحتلال من قتل وخراب بحق الأمة العربية والشعب العربي فإن العرب قد تغاضوا بشكل كبير عما فعلته تلك الشعوب الأجنبية بحقهم وأعطوا جل اهتمامهم وتركيزهم على محاربة بعضهم البعض ، حيث أن كل طائفة عربية دينية اعتبرت أن الخطر الأكبر عليها ليس من الاحتلال الأجنبي الغريب والشعب العربي ، بل من الطوائف الدينية العربية الأخرى وهذا سببه بطبيعة الحال التعصب الذي كان مصحوباً بالكره والبغض .

وإذا عدنا مرة أخرى إلى التاريخ العربي في بداية تأسيس الدولة الإسلامية في العهد الأموي وما تلاه . نلاحظ أن بداية المعارك والحروب الدينية كانت في البداية عربية ـ عربية ابتدأت منذ أواخر العصر الراشدي ، وهذه الحروب الدينية كانت في مجملها حروباً دموية ضارية طويلة الأمد تمحورت جميعها بشكل عام حول الخلاف الديني ، وشكلت بذلك النواة الأولى والركيزة الأساسية الثابتة للتعصب لأنها

كما ذكرنا قد أوصلت العرب إلى نقطة اللاعودة أو العودة الصعبة وكانت السبب الرئيسي في ازدياد حدة التعصب العربي ـ العربي حتى على حساب التغاضي عن الاحتلال الأجنبي.

وفي غمرة تلك الصراعات وما رافقها من الفتوحات الإسلامية في العصر الأموي والتي أدت إلى نشر الإسلام في البلدان والأمصار المفتوحة ، بدأ العنصر الأجنبي يلعب دوراً في تلك الحروب والأحداث ، وأخذ دوره في التعاظم ، وانتقلت الخلافة من الأمويين إلى العباسيين ، والتي لعب فيها الموالي دوراً بارزاً . ونتيجة لذلك انتقلت صيغة الحروب الدينية من العربية ـ العربية إلى العربية ـ العربية ـ الأعجمية ، وكما ذكرنا فإن السبب الأساسي في تغاضي العرب عن التغلغل الأجنبي واحتلاله للأرض العربية هو أن الصراع الديني كان في البداية عربياً ـ عربياً ثم دخل فيما بعد العنصر العجمي .

وبمعنى أوضح وأدق ، أخذ الصراع العربي ـ العربي أولاً مداه وحجمه الكبيرين وفترته الزمنية الطويلة ، ثم اندمج معه منطقياً وكنتيجة حتمية وموضوعية العنصر الأجنبي ، خاصة وأنه ارتبط معه بقاسم مشترك هو الدين .

فمن غير المنطقي أن يستمر الصراع الديني العربي ـ العربي بهذه الفترة الزمنية الطويلة وهذا الانتشار الواسع والحدة الكبيرة من دون أن تتأثر شعوب البلدان المفتوحة بذلك ، خاصة وأن الخلاف كان خلافاً دينياً ـ عقائدياً ، فلو كان الخلاف العربي ـ العربي خلافاً قبلياً (من غير المنطقي أن يكون خلافاً قومياً لأن القومية العربية هي قومية واحدة) اجتماعياً ، لربما ما كان بإمكان العنصر الأجنبي أن يتغلغل ويتدخل في ذلك الصراع لأنه لا توجد قواسم أو عوامل مشتركة بينه وبين العرب ومن ناحية أخرى فإن ذلك الخلاف الديني ـ العقائدي يفسر لنا أيضاً لماذا كانت جميع الخلافات العربية ـ العربية في البداية دموية وغير قابلة للنقاش والجدل أو الحوار بين الأطراف المتنازعة ، حيث أن الصيغة العقائدية جعلت تلك الخلافات غير قابلة للنقاش أو التوسط أو الحل الوسط لأنها أولاً خلافات عقيدة ومبدأ . وثانياً لأنها ابتدأت أول ما ابتدأت بالقتل والمعارك وسفك الدماء وربما يفسر لنا هذا لماذا لم يحاول

الأمويون إقامة نوع من الحوار أو الاتفاق مع الأطراف المعارضة ، أو إقامة أسس وتفاهمات مشتركة تدرأ خطر الحرب والقتال ، ولماذا لم يفعل العباسيون وغيرهم فيما بعد ذلك . هذه الأمور كلها أوجدت وخلقت ما يسمى بالتعصب . ومن كل ما سبق نستطيع أن نفسر أيضاً تعاقب الغزوات الأجنبية المتكررة والمتعددة والدائمة للأمة العربية ، وكلها تشابهت في سياستها تجاه الشعب العربي وإن اختلفت عقائدها ومذاهبها الطائفية والدينية .

لقد كان التعصب سبباً رئيسياً لكثير من الأخطاء والأخطار الجسام التي حاقت ونزلت بالأمة العربية . فهذه المعارك والحروب الدينية الداخلية والخارجية قد أثرت كثيراً وبشكل غير ذي مقياس على استقرار ووحدة الأمة العربية . وما انقسام تلك الأمة إلى ولايات ودول وممالك معظمها كان دينياً ، إلا نتيجة مباشرة لتلك الحروب والمعارك و التي هي نفسها نتيجة للتعصب . فقد فعلت تلك المعارك والحروب والثورات فعلها الكبير في إضعاف العرب وإنهاك قواهم واستنزاف طاقاتهم لأجل أمور ما كان يجب أن تحدث أو كان بالإمكان استدراكها ومعالجتها حتى بعد حدوثها ، أو التخفيف من هولها وآثارها على حياة الإنسان العربي ، إذا لم يكن بالإمكان إزالتها ومحو آثارها ولكن التعصب كان يقف بالمرصاد .

فبدل أن تخمد تلك الأمور أو تعالج أو تخف آثارها مع مرور الزمن ، ازدادت حدةً ، وقويت وتشعبت وطالت معظم نواحي الحياة الاجتماعية والدينية للإنسان العربي .

فدينياً أصبح الإنسان مقيداً تماماً للمذهب أو الطائفة وخاضعاً لتعاليم طائفته أو مذهبه وطقوسها الدينية والروحية بغض النظر عن اختلافه مع باقي المذاهب والطوائف الأخرى أو مدى موقعها بالنسبة للتعاليم الرئيسية للشريعة الإسلامية .

أما من الناحية الاجتماعية فقد أصبح الإنسان العربي نتيجة لانتمائه المذهبي والطائفي خاضعاً للأمور الاجتماعية التي تفرزها تعاليم الطائفة والمذهب كعدم الزواج من الطائف الأخرى . والتجمع والتحزب ضمن مكان معين ، وعدم الاختلاط بباقي أفراد الطوائف الأخرى يضاف إلى ذلك العلاقات

والأحداث التاريخية التي ربطت مذهب هذا الإنسان العربي أو طائفته بباقي الطوائف والمذاهب الأخرى كالحروب والصراعات والأحداث التي تعرضت لها من باقي الطوائف ، وهذا بالتأكيد سيؤثر على عقلية وتفكير ذلك الإنسان العربي و نظرته إلى بني قومه الذين هم من الطوائف الأخرى والسبب في كل هذا ... التعصب الديني الذي خضع له العرب .

لقد اجتمعت الخلافات الدينية العقائدية الروحية الأولى مع الرواسب القبلية في الجاهلية أو بالأصح مع سيكيولوجية وعقلية الإنسان العربي لتجعل التعصب مقترناً بثلاثة أمور : التعنت ... الحقد ... التكفير .

فالتعنت جعل الإنسان العربي لا يقبل ولا بأي شكل من الأشكال التخلي ولو عن جزء بسيط من آرائه وأفكاره ، أو التخلي عن نظام طائفته ومذهبه ، والحقد جعل هذا الإنسان يكره ويحقد لا بل ويشن الحرب على كل من هو من غير طائفته أو مذهبه . والتكفير أيضاً جعل الإنسان العربي لا يقبل فكرة التفاهم أو النقاش مع الغير وذلك من منطلق أنه هو الصح وغيره الخطأ وهذا ما أضفى الشرعية الروحية أو الدينية على ذلك الخلاف وبالتالي القاعدة والأساس لاستمراره . ومن هنا كان التعصب العربي يقف بالمرصاد لكل بادرة حل أو معالجة للأحداث الحاصلة في التاريخ العربي . ومن هنا أيضاً كان من الصعب بل من الاستحالة استدراك تلك الأمور ومعالجتها .

ولعل من أكثر الأضرار فداحة بالإضافة للحروب والانقسامات والتي ألحقها التعصب بالأمة العربية وكانت سبباً رئيسياً في تخلفها وتأخرها عن بقية الأمم والشعوب ، هو التأثير على عقلية الإنسان العربي وشل تفكيره ، حيث تنعدم النظرة العملية الواقعية إلى الحياة البشرية الاجتماعية وإلى الهدف الأساسي منها ، وتحل محلها نظرة عاطفية مشحونة ومهيجة ومحددة في مجال ضيق جداً ، فينصرف الإنسان من التفكير في معالجة قضايا وشؤون حياته اليومية العامة ، الفردية والاجتماعية ، إلى التفكير ضمن حيز ونطاق طائفته ومذهبه والتفكير في الأحداث التاريخية التي ربطتها بالطوائف الأخرى وكيفية التعامل والرد على تلك الطوائف والمذاهب المعادية لطائفته ومذهبه ، خاصة عندما تكون العداوة مستحكمة ويكون

هناك احتكاك مباشر وتماس ساخن . فيتحول اهتمام ذلك الإنسان وتفكيره من مجتمعه العام إلى مذهبه الخاص ، ومن الإبداع إلى الجمود وهذا الأمر يترتب عليه أن يترك ذلك الإنسان العمل الاجتماعي والحضاري ويبتعد عن العلوم التطبيقية العملية إلى الانكماش والانقياد والتبلد ، ويبتعد بالتدريج عن المحاكاة العقلانية الواقعية المادية نحو العصبية العاطفية الغيبية ، و هذا للأسف الشديد ما نراه الآن في الواقع العربي سواء بشكل مباشر أم غير مباشر و حتى على وسائل الإعلام المرئية أو المقروءة أو المسموعة و هو أمر ينحصر فقط بالمسلمين و لا طوائف غيرهم ... هم الوحيدون الآن الذين يتميزون بهذه الميزة .

وبما أن التعصب لا يتيح أي نوع من أنواع التقارب والتعاون بين الطوائف بل على العكس من ذلك ، فهو إذاً يقوم بدور تقطيع أوصال الأمة والمجتمع وبالتالي لا يعيق تقدم هذا المجتمع ، بل يعمل على تخلفه وإبقائه في مستنقعات الجهل ، فقد كان التعصب أحد أهم العوامل الرئيسية التي جعلت الخط البياني الحضاري للأمة العربية يبدأ بالانحدار منذ نهاية العصر العباسي وإلى يومنا هذا .

وإذا تتبعنا عوامل ومسببات ضعف الأمة العربية وانهيارها وتفككها ، كالثورات الداخلية في العصرين الأموي والعباسي وما رافقها من حروب ومعارك ضارية أنهكت الجيوش العربية وبعثرت طاقاتها في معارك دينية داخلية وقسمت الشعب العربي وجعلت الأعاجم والبيزنطيين يهاجمون الثغور الإسلامية وفيما بعد الأراضي العربية ، فلسوف نجد أن التعصب هو المحرك الأول لكل هذه الأحداث والثورات. فقيام دولة الأمويين وانهيارها ، وقيام دولة العباسيين وانهيارها ، والأحداث التالية الحاصلة في تاريخ الأمة العربية ، كل ذلك كان سببه التعصب .

وتكمن الصعوبة في مناقشة العوامل المسببة للتعصب أو الموجدة له ، وبالتالي إيجاد الحلول له أو التخفيف منه ، تكمن في أن التعصب يرتكز في الأساس على أمور دينية عقائدية ، ويأخذ في معظم الأحيان الصفة الروحية الغيبية ويعتمد عليها لتثبيت وجوده في عقلية الإنسان العربي ، وإيجاد منطلق

وقاعدة للتأثير في تصرفات ذلك الإنسان وتوجيهها حسب معطيات وأمور تكون عادة فوق استيعاب ذلك الإنسان أو خارج نطاق الإدراك أوالإلمام بها بشكل كامل ، وهذا يقودنا إلى نتيجة حتمية وهي أن تأثير التعصب على فكر الإنسان هو تأثير خفي وثابت . والسبب في ذلك هو أن تلك الأمور غير مبرهن عليها علمياً ومنطقياً وحتى دينياً بشكل كامل ، وذلك لكي يبقى الإنسان فكرياً خاضعاً لها ومشدودٌ باتجاهها . وهذا ما يقودنا إلى التساؤل : هل معنى أن تلك الأمور غير مبرهن عليها ، بأنها عملياً ودينياً غير موجودة أو غير واقعية ، ولذلك فإنه لا يوجد بطبيعة الحال برهان ديني علمي عليها أم أنها موجودة منطقياً وواقعياً ولكن البرهان الناقص لها ، هو عملية مقصودة لتثبيت التعصب وجعل الإنسان خاضعاً له ومشدوداً إليه ولا يحيد عنه .

في الواقع أن هذه النقطة بالذات هي عبارة عن حلقة مفقودة وغامضة ولا يمكن البت بها تماماً ، وهذا ما قد يفسر لنا كيف كان العرب في بداية الخلافات الدينية الأولى ينجرون دون إدراك ووعي إلى حروب دموية طاحنة . ففكرة ومقولة البرهان الناقص تستدعي بالضرورة ، الغيبية والروحية ، وتؤدي إلى أمرين أساسين هما : الاعتقاد والثبات . الاعتقاد ومن ثم الارتباط بذلك الاعتقاد واستحالة التحرر منه أو الخروج عن نطاقه فكرياً . فوجود البرهان يؤدي منطقياً إلى الاعتقاد والارتباط ، وكون هذا البرهان نفسه غير كامل ، فإن ذلك يؤدي إلى الحاجة إلى معرفة الكمال والوصول إليه وبالتالي الارتباط بذلك البرهان الناقص والاندماج معه لأنه حسب الاعتقاد ، هو بداية الوصول إلى الحقيقة ، وبالتالي لا بد من التشبث به لأنه حسب ظن واعتقاد الشخص المؤمن به ، هو المفتاح إلى البرهان الكامل .

والحلقة المفقودة هنا هي كيفية تحول البرهان الناقص إلى عدة براهين ناقصة يحتاج كل منها إلى برهان كامل ، وكل برهان ناقص من تلك البراهين كان السبب الرئيسي لنشوء التعصب لطائفة أو مذهب معين ، وهذا ما يستدعي بالضرورة التساؤل عن وجود عملية مقصودة من وراء ذلك.

إن فرضية البرهان الناقص لشيء ما تستدعي بالضرورة أن يكون هذا الشيء خارج استيعاب أو إدراك الإنسان بشكل كامل ، وإبقاء جزء أو قسم منه يلفه الغموض والإبهام وغير معرف للإنسان العادي . وهذا الأمر بالذات يفتح مجالاً لعملية الابتكار والتوجيه الإيديولوجي لأية فكرة حتى ولو كانت تلك الفكرة هدامة وتؤدي إلى عواقب وخيمة ، لأن عدم الإدراك الكامل لشيء ما ، يبقي الإنسان متأثراً بأية فكرة تخرج ضمن إطاره ويجعله مهيأً وميالاً لتقبل كل ما يبت بشأن هذه الفكرة . وذلك لكونه ليس لديه المعرفة الكاملة بجوانب تلك الأفكار الدينية التي لديه فهو خاضع للبرهان الناقص وبمعنى آخر لا يملك جميع المفاتيح بيديه ، فهو إذاً لا يستطيع ذهنياً ومنطقياً وحتى بالضمير والوجدان الحكم على تلك الفكرة بأنها سلبية أو غير ذلك .

وإذا افترضنا أو اعتمدنا فرضية أن البرهان الناقص هو عملية مقصودة ، فإن ذلك بطبيعة الحال يستدعي وجود طرفين : طرف يعرف وطرف لا يعرف ، طرف مسيطر وطرف خاضع ، طرف بيده المفاتيح والقيادة وطرف منقاد . وهذا ما قد يفسر لنا انجرار العرب في بداية الخلافات الداخلية إلى الصراع والقتال بدون مناقشة أو رادع ، ونستطيع أن نلاحظ من خلال ذلك تسارع الأحداث المؤلمة والتي جرت في النهاية الأمة العربية إلى الانهيار والسقوط .

لقد امتزجت هذه الأمور كلها مع الأحداث والمعارك الدموية والظروف والتحولات السياسية الطارئة والداخلة في جسم المجتمع الإسلامي لتشكل نواة قوية وصلبة للتعصب الطائفي والمذهبي ، وهذا كله يستدعي بالضرورة الشق أو الطرف الثاني من التعصب ، وهو الثبات أو الشرعية الدائمة فمع وجود كل عوامل ومقومات التعصب وكل محفزاته المادية والمعنوية والروحية والغيبية وعدم وجود مجال في فكر الإنسان العربي للتراجع والاستدراك أو محاولة السيطرة العقلانية على التعصب والخلاف الديني ، فإن عملية ثبات التعصب هنا وترسيخه في فكر الإنسان العربي قد أصبح أمراً حتمياً لا بد منه ، وواقعاً لا مجال لإنكاره أو دحضه ، خاصة بعدما أتت المعارك والنزاعات والخلافات الدينية لتثبته وتخرجه إلى

حيز الوجود المادي الملموس والفعلي ، لأن تلك الأحداث والخلافات التي حصلت ما هي إلا نتيجة عملية للتعصب .

وبداية نقطة اللاعودة وكلا صفتي التعصب العقائدية والاستمرارية ، تؤدي بالإنسان إلى عملية الانجرار أو الانقياد اللاواعي ، وهذا بالذات ما كان يحصل أثناء المعارك والحروب والخلافات الدينية العربية ، فكان كل طرف من أطراف النزاع سواء الأمويون أو الخوارج أو أبناء الصحابة الكبار أو الحركات الدينية الأخرى ، كان كل طرف من هؤلاء يتبعه مؤيدوه ، بدون نقاش أو تفكير وينجرون معه في حروب ومعارك دموية لا هدف منها سوى إضعاف الدولة الإسلامية . وحتى الثورات التي كانت تقوم ضد الأمويين والعباسيين كالقرامطة والبرامكة وغيرهم ، كانت لها نفس السمة والميزة ، فكان الناس ينجرون وراء قائد الثورة أو الحركة بدون أي إدراك أو تردد وبدون أي دافع سوى العصبية الدينية .

وإذا رجعنا إلى التاريخ وتقصينا سير أحداث أية ثورة أو معارضة لحكم ما في تلك الفترات (لن نحدد هنا أسماء معينة لأن معظم الثورات والحركات المعارضة كانت متشابهة من حيث سير الأحداث) ، لوجدنا مثلاً أن زعيم أو قائد تلك الحركة المعارضة قد انتقل مثلاً إلى الكوفة وهناك تبعه ستة آلاف شخص على سبيل المثال ثم أرسل مندوبيه إلى البصرة فتبعه خمس عشرة ألف ثم أرسل مبعوثاً إلى مكة فتبعه كذا ، الخ .. ، وفي النهاية يعلن العصيان الذي يقوم على شعارات وأهداف دينية متناقضة مع الطرف الحاكم ، فيقوم هذا الأخير بإرسال وتجريد حملة لتأديب ذلك المنشق معتمداً هو الآخر على الدين وشرعية الخلافة ، فتدور المعارك بين الطرفين وتؤدي إلى خسائر فادحة لا يتحمل وزرها غير العرب أنفسهم وهذه الأمور كانت تحصل كثيراً، علماً أنه كان من الواجب والمفترض أن يدرك الإنسان العربي الذي ينضم إلى هذا الطرف أو ذاك ، أن هذه الأمور تصب جميعها في خانة تدمير الأمة العربية . وإذا خسر الطرف المعارض الجولة فإنه يلجأ مرة أخرى لجمع الأنصار لمعاودة الحرب والانشقاق مرة

أخرى ، ومرات أخرى عديدة حتى يتم إنهاك الأمة والمجتمع وترسيخ التفرقة بين الناس وكل هذا بسبب ذلك الانجرار اللاواعي والذي سببه التعصب .

ومرد ذلك الأمر يعود إلى أن كل فئات المسلمين ومن مختلف المناطق العربي قد انجروا إلى ذلك النزاع والخلاف ولم يبق أي فرد عربي مسلم إلا وانتظم في طرف من الأطراف المتنازعة ولم يبق هناك من طرف أو جهة محايدة وهذا الأمر بالذات قد تمثل وتجسد في فترة قيام الدولة الأموية وما تلاها ، حيث أنه في بداية نشوب الخلاف الذي ابتدأ بمقتل الخليفة عثمان بن عفان ، كانت هناك أطراف أعلنت حياده الرسمي وعدم انضمامها إلى أي طرف من أطراف النزاع فلم تشارك في المعارك الحاصلة آنذاك ولم يكن لها أي دور فعلي لافت .

ولكن وبعد قيام الكيان السياسي للدولة الإسلامية وظهور التنظير العقائدي والتوجيه السياسي الديني إذا صحت التسمية والذي فرضته الأحداث الحاصلة كعملية حتمية لا بد منها لتجميع الأنصار وتشكيل الأحزاب ، لم يعد هناك مجال للمحايدة وأصبح من المحتم الانضمام إما إلى هذا الطرف أو ذاك ، لأن أطراف النزاع الرئيسية أخذت تطرح الإيديولوجيات العقائدية الدينية السياسية للبرهنة على صوابية و صحة موقفها معتمدة بذلك على الغيبيات و الأفكار الجديدة الوافدة والتي هي فوق مستوى إدراك الإنسان العربي العادي بالإضافة إلى ظهور مفهوم الدولة والسلطة السياسية الإسلامية وما رافق ذلك من ظهور مفاهيم جديدة وتغيرات اجتماعية وقيادية جديدة ، أملتها تلك الظروف والمفاهيم السياسية كالمصالح الاقتصادية و السياسية والفكرية والمادية والمعنوية بالإضافة أيضاً إلى تلك الحروب والثورات والحركات السياسية التي رافقت ظهور الدولة والسلطة السياسية ، حيث تأثرت بها وبشكل حتمي الاعتبارات القبلية و الإقليمية الاجتماعية .

ولهذه الأسباب جميعها ، كان من الطبيعي أن تتأثر تلك الأطراف المحايدة بتلك الأحداث والظروف السياسية ، وبالتالي أصبح لزاماً عليها اختيار أحد أمرين ، إما أن تنضم إلى أحد الأطراف المتنازعة بشكل إرادي أو قسري ، أو أن تقوم هي نفسها أيضاً بخلق أفكار دينية عقائدية وإيديولوجيات فكرية معينة تدعم استمراريتها في الحياد ، شأنها في ذلك ، شأن تلك الأطراف التي طرحت أفكارها وإيديولوجياتها الخاصة بها كواقع عملي ملموس . ولكن تلك الأطراف المحايدة اعتمدت الخيار الأول . وهنا يبرز سؤال وهو : لماذا لم تقم تلك الأطراف المحايدة والتي تبنت رأي الاعتزال والحياد ، بطرح أفكار أو نظريات عقائدية معينة تدعم حجتها وموقعها ، وتثبت وجودها كطرف أساسي في تلك الأحداث ، له مدلولاته وبراهينه الفكرية والعملية ، خاصة وأن بعض أصحاب هذا الرأي كانوا من الصحابة أو من الذين لعبوا أدواراً هامة في عهد الرسول (ص) ؟؟؟!!! .

يمكن تفسير هذا الأمر بأن دخول السياسة والارتباط السياسي الديني ، وتفاعل الأهداف والوسائل السياسية والدينية في تلك الفترة قد فرض على الناس الانضمام إلى أحد أطراف النزاع المباشرة ، وذلك لكون السياسة تتمتع بميزة المناورة والقدرة على التبرير والتأويل والتنظيم ، وبالتالي فإن فكرة الصراع وصحة موقف الأحزاب والأطراف المتنازعة يمكن إثباتها بكل سهولة وإضفاء الشرعية الدينية عليها ، يضاف إلى ذلك بأن تخلي الأطراف المحايدة عن المشاركة في الأحداث واعتزالها الحرب والقتال قد أفسح المجال للأطراف الأخرى بالتمدد والظهور وفرض أفكارها وموقفها كخيار أوحد .

فربما ارتأت الأطراف والفئات المحايدة في البداية أن الحياد الكامل بشقيه الفكري والعملي ، هو أفضل وسيلة ، خاصة وأن الحروب الدينية الأولى قد مست معظم فئات الشعب وطبقاته ، ولكن بعد ذلك جاءت الفتوحات الإسلامية لتجبر الناس وجميع الأطراف على الانضواء تحت لوائها ، وتفرض عليهم الانضمام والمشاركة في الحروب الخارجية .

إذاً فعملية البحث أو التقصي في أسباب ظاهرة ومفهوم التعصب ستقودنا إلى المواجهة والاصطدام بأمور فكرية فلسفية وسياسية أكثر منها دينية بحتة . وذلك لأن جميع تلك الظروف والأحداث التي حصلت ، كانت بشكل من الأشكال تعتمد على التنظير والتوجيه العقائدي وتتبنى أفكاراً إيديولوجيةً معينة للوصول إلى السلطة والحكم السياسي فيما بعد . فقد كانت جميع أطراف النزاع تعتمد أسلوب الخطابة والبلاغة والبيان وعرض الانتقادات الدينية والإيديولوجية للطرف الآخر ، فكان كل رئيس حزب أو حركة أو طرف معين يقوم بإلقاء الخطب والمواعظ والأفكار معتمداً بذلك على كبار الخطباء والمفكرين واللغويين ، وكثيراً ما كانت المنابر وسيلة لإلقاء الخطب والآراء السياسية الدينية .

وبناء على ذلك كان لا بد من ظهور أفكار وعقائد وفلسفات جديدة ، وكلها تخدم أحد أطراف النزاع المنبثقة عنه وتؤجج الناس لمصلحته ضد الطرف الآخر ، وهذا ما سيحتم علينا الخوض في متاهات فكرية سياسية دينية وكلها خاضعة للجدل والنقاش ، للنقد أو التبرير ، وهذا ما يدل عليه كثرة المؤلفات والتعليقات والكتب الدينية السياسية التي ظهرت بعد ذلك والتي كانت بشكل ما تميل إلى تثبيت أفكار معينة أكثر من كونها ذات موضوع ديني بحت وعام .

ومن الناحية العملية فإنه من الصعوبة بمكان الولوج إلى اعتقاد وتفكير شخص ما أو محاولة تغيير هذا المعتقد ، خاصة إذا كان هناك نوع من الإجماع أو الإقرار الجماعي حول هذا المعتقد أو تلك الفكرة .

وحتى نصل إلى شيء من التفسير المنطقي لمفهوم التعصب ، سنضطر إلى لإسقاط هذا المفهوم وتوابعه وعوامل مقوماته من أفكار وعقائد ، على المفهوم السياسي ، لأنه هو المفهوم الوحيد الذي رافقه تاريخياً منذ نشوء وظهور تلك الأحداث والوقائع الدينية والتي أدت إلى ظهور التعصب .

إن المفهوم السياسي القديم لا نستطيع أن نطلق عليه أو نعرفه إلا كمفهوم أو ظاهرة وليس كعلم ، لأنه قديماً لم تكن السياسة كما هي عليه الآن من توسع وتشعب وظهور كعلم . وهذه الميزة أو الصفة تجعل من الصعب في التاريخ القديم وخاصة في فترة ظهور الأديان السماوية وبالذات في المنطقة العربية ،

الإدراك الكامل والواعي لعملية الارتباط السياسي الديني وذلك بالنسبة لتفكير إنسان تلك المرحلة . علماً أن السياسة بكافة صفاتها وميزاتها كانت موجودة في المجتمعات وفي فكر الشعوب ، و ذلك من خلال تصرفات الأفراد ولو بشكل بدائي على الأقل أو ممارسة غير كاملة .

في الجاهلية كانت الروابط الاجتماعية في مجتمع الجزيرة العربية تتميز بالدرجة الأولى وبشكل أساسي بالرابطة القبلية سواء داخل أفراد القبيلة نفسها من خلال العلاقات والصلات القائمة ، أو العلاقة القائمة بين القبائل العربية ككل ، وهذه الرابطة تميزت بالحس القبلي الموجود داخل عقل وتفكير الإنسان العربي في الصحراء .

وكانت تلك الفترة تاريخياً ومن حيث تطور الأحداث والوقائع الاجتماعية والاقتصادية ، تتميز بالثبات وعدم التطور ، أي أن تسارع الأحداث والمتغيرات الآنفة الذكر كان بطيئاً بشكلٍ كبيرٍ جداً . فقد كانت فترة الجاهلية في الجزيرة العربية تتميز بصفات ثابتة ومحددة . فمن الناحية الاقتصادية كان هناك تربية الماشية والزراعة البعلية والتجارة عند بعض القبائل . أما من الناحية الدينية ، فقد كانت منتشرة بشكل كبير عبادة الأصنام والأوثان وما شابه . ومن الناحية الاجتماعية أيضاً تميزت تلك الفترة بعلاقات الجوار بين القبائل والغزو وبعض التقاليد الاجتماعية الأخرى . ولكن الميزة التي كانت طاغية بشكل كبير هي الميزة الاجتماعية ، وهي تمثلت هنا بالرابطة القبلية ..... أو العصبية القبلية .

أما الناحية السياسية فقد انعدمت تماماً أو تضاءلت إلى حد كبير جداً (وذلك فيما يختص بالجانب العربي فقط) . بينما انحصرت الناحية الاقتصادية كالتجارة ، ببعض القبائل العربية القليلة العدد كقبيلة قريش ، وبمناطق محددة . وكذلك الناحية الدينية حيث لم يكن لها أي أثر فعال في التوجيه الاجتماعي أو التأثير على الأحداث الاجتماعية الحاصلة ، فقد كان لكل قبيلة مفهومها الخاص بها حتى أنه كان لكل فرد أو مجموعة صنم خاص بها وإذا جاعوا التهموه (إذا كان مصنوعاً من التمر أو قابلاً للأكل) .

فإذاً لم يبق غير الناحية الاجتماعية المتمثلة بالرابطة القبلية ، وهذه الرابطة قد أثرت بشكل كبير جداً على عقلية ومفهوم الإنسان العربي وأضحت محوراً لتفكيره وتصرفاته . وتجلى هذا الأمر بحب القبيلة والتعلق بها ، أي بمعنى أوضح .. العصبية القبلية ، وبالتالي فإن جميع الأفكار العقائدية والإيديولوجية للإنسان العربي في الجاهلية كانت مرتبطة بالرابطة القبلية وبالعلاقات والعصبية القبلية في المجتمع الجاهلي بالجزيرة العربية . ومما يؤكد هذا الرأي ، هو أن التراث العربي في الجاهلية ألا وهو الشعر والذي كان بمثابة التعبير الفكري للمجتمع الجاهلي ، كان في معظمه وبشكل مطلق يعبر عن تلك العلاقات ، وحتى تصرفات ذلك الإنسان العربي نفسه ، كانت أيضاً تعبيراً عن تلك الرابطة . بينما على سبيل المثال لا نلحظ في شعر الإنسان العربي بالجاهلية أي أثر تقريباً للدين والسياسة.

إذاً ومن هذه النتيجة يمكن القول أن الأفكار العقائدية والإيديولوجية للإنسان العربي كانت منحصرة في حيز الرابطة القبلية أو بشكل أدق .... الإيمان القبلي . بينما لم يكن هناك وجود للأفكار والإيديولوجيات السياسية أو الدينية ، أو على الأقل كان وجودها شبه معدوم ومحدود جداً.

وما نريد الوصول إليه من كل هذا الكلام ، هو تبيان تطور الأحداث فيما بعد والتي تميزت بدخول المفهوم الديني والسياسي إلى المجتمع العربي ، وبالتالي ربط العلاقة بين هذين المفهومين ومقارنة الميزات العقائدية لكل منهما ومقارنتها مع الميزة الجاهلية .

لقد نجم تطور الأحداث فيما بعد عن ظهور الدين الإسلامي في الجزيرة العربية . وهذا الظهور للدين الإسلامي ، لابد ، بل من المؤكد أن تنعكس آثاره على الأفكار والعقائد و الإيديولوجيات السائدة في المجتمع الجاهلي ، وهذا الانعكاس تميز بأمرين أساسيين هما التغير والتطوير وهذا ما لم يلاحظ في فترة الجاهلية . فمن ناحية التغيير ، قام الدين الإسلامي بتغيير معظم العقائد والأفكار السائدة في الجاهلية وأهم هذه العقائد الرابطة القبلية ، أي العصبية القبلية ، أي الإيمان القبلي ، وطرح بدلاً من

ذلك أفكاراً وعقائد جديدة لم تكن موجودة من قبل ، أهمها : الإيمان بالله الواحد الخالق لهذا الكون وطاعته طاعة مطلقة والقيام بعبادته عن طريق الصلاة والصيام وغيرها من فرائض الإسلام .

ومن ناحية التطوير قام الدين الإسلامي أيضاً بتطوير بعض العادات الموجودة في الجاهلية والتي كانت تمثل الإيجابيات أو المحاسن وذلك بما يتلاءم مع الشريعة الإسلامية . إذاً في الواقع نستطيع أن نلاحظ عملياً بعد ظهور الإسلام في الجزيرة العربية الأمور التالية :

أولاً : تغيير الواقع الاجتماعي والديموغرافي للجزيرة العربية حيث زالت التفرقة القبلية وحل محلها مجتمع إسلامي عربي واحد .

ثانياً : تغيير الإيمان والعقيدة العربية من الإيمان بالقبيلة أو الأوثان إلى الإيمان بالله ، أي وبشكل أوضح ثم تبديل عملية الإيمان عند الإنسان العربي .

ثالثاً : سرعة تقبل الإنسان العربي للدين الإسلامي ، أي أن انتشار الدين الإسلامي في الجزيرة العربية قد تم في فترة قياسية وقصيرة نسبياً .

رابعاً : إن عملية تغيير الإيمان أو تبديله من الإيمان بالعصبية القبلية أو الطقوس الدينية الفردية إلى الإيمان بالله ، قد رافقه عمليات حربية قتالية مع المشركين كموقعة بدر وأحد والخندق وفتح مكة وغيرها . وهو بين فريقين لا ينتميان إلى دين واحد . ومن خلال المقارنة بين الإيمان القبلي و الإيمان الديني . نجد أن الإيمان القبلي الذي كان يتميز بالعصبية القبلية كان مؤلفاً من عدة عصبيات مختلفة على عدد القبائل العربية وهذه العصبيات تميزت بالاختلاف والتغيير والصراع المادي والقبلي ، بينما الإيمان الديني قد ألغى العصبية القبلية وأصبح الجميع مرتبطين بإله واحد .

في الإيمان القبلي ، ارتكز الصراع والقتال بين القبائل العربية والذي كان متمثلاً بالغزو ، ارتكز على أمور مادية أكثر منها عقائدية أو سياسية ، أو على أمور ارتبطت بالعادات والتقاليد وذلك لعدة أمور منها أن السياسة كما ذكرنا لم تكن موجودة أو ظاهرة في المجتمع الإسلامي أو في فكر الإنسان العربي

فمن الطبيعي إذاً ، أن لا يرتبط الصراع بأمور سياسية ، كما أن الأفكار العقائدية أو الإيديولوجية أو الدينية أيضاً لم تكن موجودة بهذا الكم الواسع والكثير حيث إن القبائل العربية وإن كانت تنتمي إلى نفس العرق والجنس فإنها لم تكن تشكل شعباً أو مجتمعاً متحداً ، فقد كانت عبارة عن قبائل متفرقة في قلب الجزيرة العربية وبالتالي فإن مقومات نشوء الأفكار الاجتماعية كانت شبه معدومة . كما أن الدين أيضاً والذي هو مصدر للعقائد والأفكار الإلهية والاجتماعية لم يكن موجوداً .

إذاً ومن كل ذلك نستنتج أنه من الطبيعي ألا يرتبط الصراع بأمور عقائدية اجتماعية أو دينية . فقد ارتبط الصراع كما ذكرنا بأمور مادية معيشية كالماء والكلأ والماشية ومعظم الحروب بين القبائل العربية ، كانت لهذا السبب كحرب البسوس مثلاً . أو أن الصراع كان مرتبطاً بأمور متعلقة بالعادات والتقاليد كالثأر مثلاً وهذا ما كان يحصل أيضاً في معظم القبائل العربية ، وهو بالتالي كان صراعاً آنياً وعارضاً ولا يتميز بصفة الثبات والديمومة .خاصة وأنه كان هناك علاقات قربة بين القبائل العربية كالزواج ، وهذا كله كان من منطلق الرابطة أو العصبية القبلية أو الإيمان القبلي والذي هو القناعة بأن القبيلة هي الأساس وهذا كله فرضته طبيعة الصحراء في الجزيرة العربية والتي أجبرت الإنسان العربي على الانتقال المستمر وعدم الثبات بحثاً عن الرزق . إذاً لا نستطيع أن نقول أنه كان في الجاهلية تعصب .

أما في فترة ظهور الإسلام ، فقد ظهرت هناك أفكار وعقائد وتعاليم دينية روحية في المجتمع العربي ، فرضت على العرب جميعاً التخلي عن المفهوم السابق والارتباط بمفهوم جديد واحد قائم كله على التعاليم والعقائد الإلهية الدينية وله مظاهر عملية مادية تدل عليه ، تمثلت بأركان الإسلام وكان لهذا الدين أيضاً مظاهر فكرية عقائدية كمكارم الأخلاق والآداب العامة والعلاقات الاجتماعية بين الناس ، وهذه الأمور كلها ارتبطت فقط بالله الواحد الخالق لهذا الكون ولم ترتبط بأي مفهوم سياسي ، لأن السياسة لم تكن قد ظهرت بعد .

إذاً نستطيع أن نقول إن عقيدة وفكر الإنسان العربي في الجاهلية تمثلت بالعادات والتقاليد والرابطة القبلية والتي ارتبطت بشكل مباشر أو غير مباشر مع الطبيعة في الجزيرة العربية ، بينما عقيدة وفكر الإنسان العربي في فترة ظهور الإسلام تمثلت بالتعاليم الدينية التي ارتبطت بشكل مباشر مع الله وفرضت على الإنسان العربي التقيد بها .

وأدى تطور الأحداث بعد فترة الرسول (ص) وفترة الخلفاء الراشدين إلى ظهور المفهوم السياسي الذي تمثل بظهور الدولة الأموية وما تلاها ، وقد تميزت هذه الفترة بعدة أمور أهمها :

. أنها أدخلت أفكاراً وعقائد ومفاهيم جديدة إلى المجتمع العربي اندمجت مع الأفكار والمفاهيم الدينية التي كانت سائدة في مرحلة ظهور الإسلام .

. هذه المفاهيم والأفكار الجديدة لم تُلغي الأفكار والعقائد السابقة والتي هي العقائد الدينية وإنما اندمجت معها .

. هذا الاندماج كان سبباً ونتيجة في آن واحد لأحداث وصراعات دموية بين المسلمين ولكن هذه المرة كان بين فريقين أو فرقاء من نفس الدين أو الشريعة على عكس فترة ظهور الإسلام .

– هذا الاندماج أدى إلى ولادة أو خلق نوع من الإيمان الجديد وهو التعصب .

إذا عدنا مرة أخرى إلى مقارنة سريعة بين الفترات التاريخية التي مرت بالجزيرة العربية في الجاهلية وصدر الإسلام وعصر الدولة الأموية ، لرأينا أنه في فترة الجاهلية كانت الميزة السائدة في الجزيرة العربية هي الميزة الاجتماعية أي أنه كان هناك نظام مجتمع بحت هو المجتمع القبلي ولكن غير موحد. وكان يوجد أفكار وعقائد وعادات وتقاليد اجتماعية ارتبطت بهذا النظام الاجتماعي وانبثقت من أسسه وقوانينه ثم جاء الإسلام ليغير تلك العقائد والأفكار والعادات ولكنه أبقى على صيغة ومفهوم المجتمع ، أي أنه فقط جرى إبدال العقائد والأفكار القبلية بأفكار دينية .

ولكن عندما جاءت السياسة فيما بعد تغيرت صيغة النظام الاجتماعي من مفهوم المجتمع إلى مفهوم الدولة والكيان السياسي وبقيت العقائد والأفكار والتعاليم الدينية على حالها ولكنها اندمجت مع هذا المفهوم أو الكيان السياسي الذي أصبح له مفهومه وأفكاره وعقائده .

الإسلام غير العقائد والعادات القبلية ، وأبقى على صيغة ومفهوم المجتمع بينما السياسة ألغت المجتمع وتعايشت مع الإسلام بمفاهيمها وميزاتها وصفاتها . إذاً وبشكل أدق وأوضح تكونت فترة الجاهلية من (مجتمع + عقائد وعادات قبلية) وتكونت فترة صدر الإسلام من (مجتمع + عقائد دينية) وتكونت فترة بداية الدولة الإسلامية من (عقائد دينية + أفكار وميزات سياسية) فترة الجاهلية تميزت بالعصبية القبلية ، وفترة صدر الإسلام تميزت بالإيمان الديني ، وفترة الدولة الإسلامية تميزت بالتعصب الديني .

إذاً فإن صيغة المجتمع + العقائد القبلية يقابلها العصبية القبلية ، وصيغة المجتمع + العقائد الدينية يقابلها الإيمان الديني ، وصيغة العقائد الدينية + الميزات السياسية يقابلها التعصب الديني ومن هنا نستطيع أن نشكل المعادلات التالية :

(مجتمع + عقائد قبلية = عصبية) . (مجتمع + عقائد دينية = إيمان ديني) .

(عقائد دينية + أفكار وميزات سياسية = تعصب ديني) .

مما سبق نلاحظ أنه في كلا الحدثين الذين طرآ على حياة الإنسان العربي ، الدين والسياسة ، حصلت تغيرات وجميعها استهدفت المرحلة الأولى وهي الجاهلية . فالحدث الأول وهو الإسلام قام بتغيير العقائد والأفكار الجاهلية ثم جاء الحدث الثاني وهو المفهوم السياسي الذي تجسد في بناء دولة عربية إسلامية ليلغي مفهوم ونظام المجتمع عند الإنسان العربي ، وبالتالي تكون هنا نظام جديد لا علاقة له بالفترة الجاهلية بتاتاً . ونلاحظ أيضاً أن كلا الحدثين الديني والسياسي والذين أثرا وغيرا في مفهوم

ونظام العصر الجاهلي وألغياه في النهاية ، لم يستطيعا أن يؤثرا أحدهما على الآخر أو يلغيه ، بل اندمجا معاً ليكونا نظاماً جديداً ، وهذا ما سوف يقودنا منطقياً إلى التساؤل حول كيفية الارتباط بين الإيمان الديني والإيمان السياسي ، حيث أن هذه العملية هي التي أدت إلى نشوء ظاهرة التعصب التي كانت السبب في كل الأحداث الحاصلة .

لقد جاء الدين الإسلامي الذي خرج من الجزيرة العربية إلى بني البشر وبالذات العرب وعن طريق الرسول (ص) وبواسطة الوحي الإلهي . وتمثل الدين الإسلامي في بدايته بالدعوة التي أُمر الرسول (ص) بأن يقوم بها ، وتجسدت تلك الدعوة بالإيمان بالله الخالق الواحد لهذا الكون ، وهذا الإيمان تمثل بأركان الإيمان في الإسلام وهي الإيمان بالله وملائكته ورسله وكتبه واليوم الآخر والقضاء والقدر خيره وشره ، يضاف إلى ذلك الشهادة أي شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .

والإيمان هو عقيدة وقناعة ، وهذه العقيدة والقناعة تمثلت كما ذكرنا بالدعوة إلى هذا الإيمان . وهذه الدعوة إلى الإيمان تميزت بأمور ثلاثة :

ـ أولاً : أنها كانت دعوة علانية واضحة ومكشوفة حيث أن الرسول (ص) عندما بدأ بهذه الدعوة ، فإن أول عمل قام به هو أنه جمع الناس في جبل قريب من مكة وهناك خاطبهم بكل صراحة ووضوح وبلا مقدمات أو نظريات ، ودعاهم بشكل مختصر إلى الإيمان بالله . أي أن هذه الدعوة لم تتسرب إلى عقل وفكر الإنسان العربي تدريجياً وبشكل ضبابي غمض ومبهم ، بل على العكس من ذلك فإن الإنسان العربي قد تعرف على هذه الدعوة من اللحظة الأولى لبدايتها وعرف ماهيتها وأهدافها بشكل واضح ومفصل لا لبس فيه .

ـ ثانياً : إن هذه الدعوة إلى الإيمان تمت بأمر من الله سبحانه وتعالى ، حيث أمر الرسول (ص) عن طريق الوحي بأن يخبر الناس ويبلغهم بهذه الدعوة ، أي أن الله سبحانه وتعالى قد عرَّف عن نفسه أمام الناس بشكل واضح لا لبس فيه .

ـ ثالثاً : إن هذا الإيمان الجديد لم يكن أفكاراً أو مفاهيم نظرية بحتة بقدر ما كان قناعة وعقيدة .

إذاً فإن الإيمان بالله قد ظهر إلى الإنسان العربي منذ بدايته وبشكل واضح ، وبالتالي فإن الإنسان العربي عندما تبنى هذا الإيمان واعتنقه ، فإنه كان واعياً ومدركاً له تمام الإدراك ويعرف ماذا يفعل ، أي أنه يعرف أنه اعتنق هذا الإيمان . وهو قد دخل في هذا الإيمان واعتنق الإسلام عن قناعة ورضىً تامين وبدون أي ضغط أو إكراه ، فكان كل شيء واضحاً تماماً .

وتجلى هذا الإيمان وتجسد ، بتعاليم وفرائض عرفت بأركان الإسلام وشكلت أساس الدين الإسلامي ، وهي : الصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد في سبيل الله (و الذي هو مفهوم نفسي إيماني و ليس مفهوم عسكري سياسي كما تم تحويره فيما بعد .

وانطلاقاً من هذا الإيمان ظهرت العقائد والأفكار الدينية بالتدريج وعرفت فيما بعد بالشريعة الإسلامية ، وكان ذلك عن طريق مصدرين أساسيين هما : القرآن الكريم و سنة الله . وهذا يعني أن الإيمان بالله لم يأتِ إيماناً مجرداً بحتاً ، بل رافقه أفكار وعقائد وتعاليم دلت عليه وجعلته معرفاً ومميزاً للإنسان العربي ، أي قابلاً للإدراك والفهم بشكل ملموس .

ونتيجة لذلك ، فقد تشكل مجتمع عربي إسلامي قائم على الشريعة الإسلامية التي كانت عبارة عن أفكار وعقائد وتعاليم شكلت النظام الأساسي لهذا المجتمع ، وكل ذلك تم ربطه ضمن حيز الإيمان بالله والذي هو المصداقية الشرعية لتلك الضوابط والأفكار الإسلامية . وبالتالي فقد أصبح الإنسان العربي جزءاً لا يتجزأ من مجتمع إسلامي ، خاضع لتعاليمه ومتقيداً بها ، مؤمناً بأساس هذا المجتمع ومنطلقه . وبما أن الشريعة الإسلامية قد دعت إلى التسامح والمحبة والتعاون ونبذ الفرقة والقتال والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وبما أنها كانت شريعة واحدة غير مجزأة إلى مذاهب وطوائف فإن ذلك يعني أن فترة صدر الإسلام قد خلت تماماً من أي صراع عربي ـ عربي(باستثناء حرب الردة) وكانت

فترة استقرار وهدوء عمت المجتمع العربي الإسلامي بأسره ، والسبب المباشر لهذا الاستقرار هو ذلك الارتباط الكامل والسليم بين الإيمان بالله والشريعة الإسلامية .

لقد حددت الشريعة الإسلامية للإنسان العربي ضوابط وقيود وأهداف أخلاقية وروحية سامية ، وكان الإيمان بالله هو الوعاء الذي احتوى تلك الضوابط وجعلها غير قابلة للتجزئة والاقتطاع أو التأويل ، وبنفس الوقت غرسها بعقل الإنسان العربي كأمور وتعاليم ثابتة واضحة وموحدة . وبتعبير آخر يمكن القول أن الإيمان بالله كان بمثابة طوق أو دائرة حول الشريعة الإسلامية التي تضبط الإنسان العربي الذي كان بدوره أداة مجسدة لهذا الإيمان ومحافظ عليه . وهنا يتجلى الارتباط المتبادل السامي والحقيقي لهذا التكامل بين الإيمان بالله والشريعة الإسلامية وبين الإنسان العربي . ثم تطورت الأحداث التاريخية فيما بعد ، لتؤدي إلى بروز نظام الدولة وكيانها السياسي .

وظهور الكيان السياسي للدولة الإسلامية والذي كان يعني ضمناً ظهور المفهوم السياسي ، كان نتيجة لظروف وأحداث تاريخية مرت بها الأمة العربية ابتدأت بخلافة عثمان بن عفان ومن ثم الأحداث والمعارك في عهد الإمام علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان وما تلاها . وقد تميزت هذه الفترة بعدة أمور وهي :

ـ أولاً : أنها ابتدأت بالقتال والخلاف والنزاع وبشكل فجائي ، على أسلوب حكم الخليفة عثمان ابن عفان، وهي لم تكن خلافاً على الدين والشريعة بل خلافاً سياسياً ، وهنا كانت البداية ، بداية ظهور المفهوم والصراع السياسي حيث طالب المعارضون الخليفة عثمان بتغيير بعض الولاة وتغيير بعضٌ من أنظمة الجباية وتوزيع المال .... الخ .

ـ ثانياً : سرعة نشوب الحرب والقتال فوراً بعد مقتل الخليفة عثمان بن عفان وتسلم الإمام علي الخلافة ، كحرب الجمل وصفين وغيرها .

ـ ثالثاً : قيام الدولة الإسلامية وظهور المفهوم السياسي بعد مقتل الإمام علي واستلام معاوية السلطة.

ـ رابعاً : قيام الثورات والحركات والأحزاب السياسية المعارضة للأمويين فوراً بعد نشوء الكيان السياسي للدولة العربية الإسلامية .

إن المفهوم السياسي وما انبثق عنه من اعتقاد وإيمان قد ظهر مباشرة بعد استلام الأمويين السلطة وتشكيل نظام ومفهوم الدولة ، حيث عمد معاوية إلى تغيير عدة أمور كانت في العصر الراشدي ومنها إلغاء انتخاب الخليفة بالشورى حيث أصبحت الخلافة بالوراثة ، و إطلاق لقب ملك على نفسه إلى جانب لقب الخليفة ، وتشكيل الأطر والمقومات الأساسية السياسية لنظام الدولة من جيش نظامي عامل وشرطة ونظام ولاية وقضاء وبريد ومال وضرائب ووزارة وحجابة .... الخ . وهنا نلاحظ الأمور التالية :

ـ إن ظهور السياسة والمفهوم السياسي في تلك الفترة لم يكن ظهوراً واضحاً ومعرفاً كما كان ظهور الدين ، بل كان ظهوراً غامضاً مستتراً وغير واضحاً بشكل مباشر .

ـ إن هذا الظهور رافقه بروز أفكار وعقائد وإيديولوجيات عدة ، برز منها مذاهب وأحزاب وفرق ارتبطت بالدين والسياسة معاً .

ـ إن ظهور المفهوم السياسي وظهور الأفكار والعقائد الدينية السياسية ، قد رافقه حدوث معارك وثورات ونزاعات دموية وعمليات قتل وتصفية لم تكن موجودة في فترة الجاهلية أو صدر الإسلام وهذه الأحداث كلها استمرت قرون عديدة واكتسبت صفة الديمومة بل وصفة الشرعية أيضاً حيث نتج عنها وظهر معها بنفس الوقت مفهوم التعصب .

فمن حيث بداية ظهور المفهوم السياسي ، نرى أن السياسة ظهرت نتيجة لأحداث وأمور حصلت بشكل طبيعي وكان أساسها الخلاف . فالأحداث جميعها بدأت من الخلاف الذي تمثل بظهور اعتراضات واحتجاجات على أسلوب حكم الخليفة عثمان بن عفان (بغض النظر عن صحة وخطأ تلك الاعتراضات) . المهم أنه خلاف كان ظاهره دينياً وجوهره سياسياً وذلك بدون أن يشعر أي من أطراف النزاع بذلك . فالخلاف لم يكن على أمور دينية بحتة ، بل كان في مجمله على أمور يمكن تصنيفها بأنها أمور

اجتماعية سياسية ، كبيت المال وتعيين الولاة والحكام . ولكن هذه الأمور يمكن اعتبارها أيضاً من منطلق أمور دينية ، لأن الإسلام تناول هذه الأمور جميعها بما فيها الأمور المالية وطريقة توزيع المال وطبيعة أسلوب القيادة والتوجيه في المجتمع الإسلامي . وهذا يقودنا إلى نتيجة محتملة وهي أن أطراف الخلاف الأساسية كانت وبشكل عام تنظر إلى طبيعة وقضية ذلك الخلاف من منظور ديني ، وتنطلق في صراعها ونزاعها من أمور دينية تستند عليها باعتبارها وجهة نظرها . ولكنها كانت عملياً وبدون أن تدري تناقش وتجادل في أمور سياسية وتتصرف وفق هذا النحو ، لأن الشريعة الإسلامية لا يمكن الخلاف عليها ، فهي شريعة واحدة وثابتة وواضحة ، وهذا ما كان يحدث في عصر الرسول (ص) وبالتالي فإن هذا الأمر لا يستوجب الخلاف أو النقاش أو القتال وسفك الدماء .

ولكن الشق السياسي أو الوجه السياسي من ذلك الخلاف كان يفرض استمرار النزاع وإيجاد وجهات نظر عديدة ، وهذا كله يتأتى من ميزة وصفات السياسة . ونحن إذا رجعنا إلى تلك الفترة لرأينا أن هذا الخلاف كان عبارة عن وجهات نظر مختلفة ومتباينة وكان يأخذ وجهين ، وجهاً سياسياً ووجهاً دينياً ، فهو يمكن اعتباره دينياً لأن الدين يتناول تلك المسائل والمقومات التي ظهر عليها ذلك الخلاف، ويمكن اعتباره سياسياً لأن السياسة أيضاً يمكن أن تتناول تلك الأمور والمسائل . وعامل الاعتبار هنا يتحكم فيه الإنسان نفسه ، فهو الذي يحدد من منطلق ومنظور فكره ووعيه ، اعتماد أحد الوجهين .

ولكن الذي يجب أن يكون قد حصل هنا ، هو أن الإنسان العربي ربما قد اعتمد الخيارين معاً ولكن بدون القدرة على تمييز إلا الخيار أو الاعتبار الديني ، لأنه كان واضحاً ومعرفاً له مسبقاً ، بينما الخيار أو الاعتبار السياسي لم يكن واضحاً أو مفهوماً له . لكن وفي الواقع ، فإن الإنسان العربي كان يعتمد على الاعتبار الثاني من منطلق الاعتبار الأول، أي أنه يعتمد على الاعتبار السياسي من منطلق الاعتبار الديني بالرغم من أن الاعتبار السياسي لم يظهر له بشكل واضح ومعرف . وتفسير هذه المقولة هو في الحقيقة حلقة مفقودة وغامضة ، ولذلك لا بد من معايشة العصر أو الفترة التي حصلت فيها تلك الأحداث

وهذا من المستحيل . فقد تكون السياسة قد ظهرت من خلال مناقشة وطرح الأفكار والعقائد الدينية للبت في أمور النزاع والخلاف الحاصل . فمع بروز الحاجة إلى خلق أفكار وعقائد دينية جديدة لمواكبة المستجدات والأحداث الحاصلة وذلك كأمر بديهي لا مفر منه ، تم إدخال أفكار وعقائد دينية جديدة تحمل في طياتها بذوراً سياسيةً ، وذلك على اعتبار أن عوامل ومسببات الخلاف كانت تحتما التأويل الديني والسياسي معاً .

وظهور السياسة الرسمي الذي ظهر مع ظهور نظام الدولة وكيانها السياسي في المجتمع العربي لم يكن ظهوراً معرفاً وذلك بالرغم من أن ظهور الدولة الإسلامية بكيانها السياسي كان واضحاً وبشكل معلن . ومرد ذلك الأمر يعود إلى أن ظهور الدولة الإسلامية نفسها وبكيانها السياسي قد اعتمد على الدين والشريعة لتثبيت وجوده ، وذلك كنتيجة حتمية للحروب والصراعات السابقة التي ولدها وأوجدها أطراف النزاع . هنا برزت الحاجة وخاصة بعد قيام الدولة الأموية يقابلها الأحزاب والثورات المعارضة ، إلى اعتماد الدين والسياسة بنفس الوقت .اعتماد الدين كغطاء شرعي وركيزة ثابتة ، واعتماد السياسة كميزة للمناورة وقدرة على القيادة والسيطرة والحكم ، خاصة بعد استحالة الاستمرار بالقيادة الروحية التي كانت سائدة في صدر الإسلام وذلك بعد كل هذه المعارك التي سفكت فيها الدماء وذهب ضحيتها الكثير . وبما أن الدين بطبيعته لا يمتزج مع السياسة التي من طبيعتها القدرة على الامتزاج والتفاعل مع الدين ، فإن ذلك قد جعل من الصعب على الإنسان العربي إدراك العنصر السياسي بكامل أبعاده ، وبالتالي تكون السياسة قد ارتدت حلتها الدينية ، وبالتالي أدى ذلك إلى ظهور الإيمان والاعتقاد السياسي ، وهذا بالضبط قد استوجب ظهور التعصب .

ولكن طالما أن الدين بطبيعته لا يمتزج مع السياسة بالرغم من أن السياسة بطبيعتها ممكن أن تمتزج مع الدين ، فلماذا لم يقم الدين الإسلامي بعملية إزالة أو فصل ذاتي للسياسة عنه . ؟ الجواب هو أن السياسة كمفهوم ، ظهرت بعد ظهور الدين الإسلامي بل بعد أن أخذ الدين الإسلامي كامل أبعاده وتم

واكتمل كما ورد في الآية الكريمة (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً) [المائدة ٣] . لأن الدين الإسلامي عندما ظهر في الجزيرة العربية لم تكن السياسة موجودة في المجتمع العربي آنذاك وبالتالي فإن الإسلام لم يبت في أمرها كظاهرة أو كمفهوم أو كعادة ، وهل يجب الإبقاء عليها أو إلغائها أو فصلها . وهل يعني ذلك أن الدين الإسلامي لم يستطع وفقاً لتلك المعطيات والأسباب ، التمكن من السياسة والبت في أمرها .

ولكن وبالرغم من أن السياسة لم تكن موجودة في الجزيرة العربية ، فإنها كانت موجودة في المناطق والدول المجاورة كبلاد الروم وفارس ، وما يتبعها من مناطق عربية خاضعة مباشرة لإحدى الإمبراطوريتين ، من المفترض أن تكون السياسة لها وجود فيها ، ولكن ذلك لم يحدث وهذا الأمر يقودنا إلى تفسيرين :

ـ التفسير الأول : هو أن الإسلام لم يأت إلى البشرية جمعاء ، وإنما أتى إلى العرب فقط ، وبذلك فإنه لاداعي للتعرض للسياسة لأنها لم تكن موجودة في الجزيرة العربية .

ـ التفسير الثاني وهو الأرجح : أن الإسلام قد أتى للبشرية ككل ، ولكنه لم يتطرق إلى السياسة كونه اعتبرها مفصولة تماماً عن الدين ولا علاقة لها به ، وكونه قائم على علاقة الإنسان بالله بالدرجة الأولى . وطالما أن السياسة بمفهومها وميزاتها وطبيعتها التي تقبل التغير والتناقض والخطأ ، قد تفاعلت مع الدين الذي لا يقبل التغير ولا التناقض ولا الخطأ ، فإن هذا التفاعل ولد التعصب الديني .

إذاً فقد ظهر التعصب الديني من تفاعل مفهوم يقبل الخطأ مع مفهوم لا يقبل الخطأ ، من تفاعل مفهوم يقبل الجدل والنقاش مع مفهوم لا يقبل الجدل والنقاش ، من تفاعل مفهوم ليس من عند الله مع مفهوم من عند الله .

السياسة ممكن أن تحتمل وجهات نظر وآراء متباينة ومتناقضة ولكن الدين بطبيعته ومفهومه لا يحتمل ذلك ، ولا وجود فيه لتعاليم وآراء وأفكار متناقضة . في السياسة يمكن أن يكون هناك وجهات نظر

خاطئة وغير سليمة ، بينما في الدين لا يمكن ذلك . ونستطيع أن نلاحظ بكل سهولة أنه في عصر الرسول (ص) حيث لم تكن السياسة موجودة ، لم يكن هناك خلاف أو تعارض أو تباين في الآراء والعقائد الدينية ، كما لم يكن هناك تعدد في وجهات النظر بل كان الجميع متشابهين حول فكرة وعقيدة واحدة ، صحيحة ومتجانسة ، علماً أنه كانت هناك نقاشات واستفسارات وإيضاحات بين الرسول (ص) وبين المسلمين ، وكان الرسول (ص) بعد نزول كل آية ، يقوم بشرحها ، وكان أيضاً يورد أحاديث وأمثلة كثيرة للإيضاح . بينما عندما دخلت السياسة فيما بعد في المجتمع العربي الإسلامي ، نرى أنه ظهر هناك خلاف وتعارض وقتال ومعارك اتخذت فيما بعد الطابع الديني وأفرزت مذاهب وطوائف دينية عديدة .

وطبيعة العلاقة بين دخول السياسة في الدين وبين التعصب تتضح أكثر إذا نظرنا إلى أساسيات ومقومات كل من السياسة والدين والتعصب . فالتعصب يقوم أساساً على التعنت والكره والتكفير، وهو ناتج من تفاعل السياسة مع الدين ، أي أن التعنت والكره قد نتج من تفاعل ميزة التباين والخطأ والتضاد ، مع ميزة التجانس والتوافق والثبات .

فعندما تتفاعل صفة وطبيعة التباين مع صفة وطبيعة التجانس ، فإن طبيعة التجانس لا تتغير ولكنها تنقسم إلى عدة تجانسات متباينة ، أي تصبح الصفة هنا تجانساً متبايناً وهذا الأمر منطقياً لا يمكن أن يكون إلا إذا كان هناك تعدد وانقسام . فمنطقياً لا يمكن أن تجتمع صفة التجانس والتباين في شيء واحد ، إلا إذا انقسم هذا الشيء إلى عدة أشياء وبالتالي يمكن هنا أن تتواجد هاتان الصفتان أي أن يوجد هناك تجانسات مع تباين بينها ، وهذا الأمر تجلى في تعدد الطوائف والمذاهب في الإسلام والتي ظهرت بعد قيام الكيان السياسي للدولة الإسلامية . فالطائفة أو المذهب هي عبارة عن تجمع أو تحزب بشري متجانس من حيث العقيدة والارتباط والفكرة ، ولكن العلاقة بين هذه الطائفة أو المذهب مع الطوائف أو المذاهب الأخرى هي علاقة تباين .

كما أن تفاعل أو وجود التوافق والتضاد ، لا يمكن أن يكون عملياً ومنطقياً في شيء أو مفهوم واحد إلا إذا انقسم هذا الشيء وتعدد ومن ثم ظهرت عملية التوافق والتضاد بين هذه الأشياء أو المفاهيم ، وهذا الأمر منطقياً لا يمكن أن يكون إلا في حالة واحدة وهي وجود عدة أشياء أو مفاهيم متضادة مع بعضها البعض ، متوافقة كل مع ذاته . أي أن كل شيء من هذه الأشياء متضاد مع الآخر ولكنه متوافق مع نفسه . وهذه المقولة تنطبق تماماً على وضع تلك الطوائف والمذاهب الدينية التي تشكلت بعد قيام الكيان السياسي للدولة الإسلامية ، حيث أن كل طائفة من تلك الطوائف متوافقة مع نفسها وذاتها ومتضادة مع غيرها . وهذا الأمر تجلى بالاختلاف بين تلك الطوائف والمذاهب .

وإذا تطرقنا أيضاً إلى قضية التفاعل بين مفهومي الخطأ والصواب أو الحق والباطل ، لرأينا أنه لايمكن منطقياً وعملياً أن يكون شيء أو مفهوم ما ، صحيحاً وسليماً ويكون بنفس الوقت خاطئ إلا إذا ارتبط بأمرين هما التعدد والنسبة ، أي أن يتحول هذا الأمر الصحيح إلى عدة أمور صحيحة أو قائمة على الحقيقة ولكنها بالنسبة لبعضها البعض أمور خاطئة أو باطلة . أو أن يكون هذا الأمر صحيحاً ، ولكنه بالنسبة لأمور أومفاهيم أخرى هو أمر خاطىء وقوانينه تتخالف مع قوانين وقواعد تلك الأمور ولا تتقاطع معها في قواسم مشتركة . وهذا الأمر ينطبق تماماً على وضع الطوائف والمذاهب الدينية الناشئة بعد قيام الكيان السياسي للدولة الإسلامية . فكل طائفة أو مذهب تعتبر أن تعاليمها صحيحة وغيرها العكس ، وهذا الأمر تجلى بالتكفير .

والتفاعل أو الاندماج أيضاً بين مفهومي التغير والثبات ، ينحو بنفس طريقة التفاعلات السابقة ، فلا يمكن أن نقول أن شيئاً ما يتصف بالثبات وفي نفس الوقت بالتغيير إلا إذا انقسم إلى عدة أمور وأشياء ثابتة كأساس ولكنها متغيرة كفروع ، أو إذا كان هذا الشيء ثابتاً بالنسبة لأمر ما ومتغيراً بالنسبة للآخر أو ثابتاً من حيث الشكل ومتغيراً من حيث المضمون . وهذه المقولة تنطبق أيضاً على الطوائف والمذاهب

المذكورة حيث تمسكت هذه الطوائف والمذاهب بعقيدتها وأفكارها الأساسية ، وأبقت على خلافها مع الطوائف والمذاهب الأخرى وسايرت بنفس الوقت الظروف والأحداث الزمنية التي تعرضت لها من حيث الإفتاء والاجتهاد الديني وهذا الأمر تجلى بالتعنت.

وحتى إذا تطرقنا إلى عملية التفاعل أو العلاقة بين شيء أو مفهوم يقبل الجدل والنقاش وبين شيء أو مفهوم آخر لا يقبل الجدل أو النقاش ، لرأينا أنها تأخذ المنحى ذاته فإذا أخضعنا أو حولنا شيئاً غير قابل للجدل والنقاش إلى شيء قابل للجدل والنقاش ، لأدى هذا الأمر إلى ظهور خلافات ونزاعات وتفرقة ، سواء بالرأي أو العقيدة أو المنطق وذلك حسب ما يكون عليه هذا الشيء . فإذا كان هذا الشيء أو المفهوم هو بالدين ، فإن ذلك يعني أن هذا المفهوم الديني سيتحول إلى عدة آراء ومفاهيم وعقائد وأفكار ، موضع خلاف ونقاش ونزاع ، وهذا بالضبط ما حصل في بداية وخلال الأحداث والفتنة في أواخر العصر الراشدي وما بعده ، حيث تحول الخلاف الإسلامي فيما بعد إلى خلاف على أمور دينية جوهرية وثابتة ، خاصة إذا عرفنا أن جميع الطوائف والمذاهب والحركات والفرق الدينية ، بالرغم من اختلافها مع بعضها البعض ، فإن كل طرف منها كان يعتبر أن الشريعة الإسلامية المتمثلة بالقرآن الكريم مرجعاً له .

إذاً نلاحظ من كل ذلك أن التفاعل بين ميزات وصفات السياسة وبين ميزات وصفات الدين ، قد نتج عنها ظهور ميزات وصفات التعصب . وتبقى هنا الصفة الثالثة وهي صفة الحقد والكره ، وهذه الصفة ليست موجودة في صفات السياسة ولا في صفات الدين ولكنها موجودة كميزة من ميزات التعصب الديني الذي نتج من تمازج وتفاعل العنصرين السابقين . والتفسير هنا يكمن في أن السياسة لا يمكن أن تتفاعل مع الدين من تلقاء نفسها ، فهي أساساً مفصولة عنه ولا يوجد هناك أي قاسم مشترك بينهما ، ولهذا فإن التفاعل هنا سيحتاج إلى وسيط يؤمن عملية الالتقاء ، وهذا الوسيط تمثل في عقلية وتفكير الإنسان العربي ، وتجلى ذلك بشكل واضح من خلال علاقة الأطراف العربية تجاه بعضها البعض سواء

من خلال الثورات أو الحروب الداخلية الدامية أو عمليات القتل والتصفية التي ابتدأت منذ نهاية العصر الراشدي وما تلاه . وقد أمنت هذه الميزة استمرارية التفاعل بين الدين والسياسة ، وبنفس الوقت أبعدت الإنسان العربي عن التمييز بينهما وبالتالي الانتباه إلى عملية دخول السياسة في الدين وتفاعلها معه .

إذاً ومن خلال كل ما تقدم نستطيع أن ندرك ماهية وطبيعة الأثر السلبي الكبير للتعصب والأحداث والوقائع التي نتجت عنه في تاريخ الأمة العربية . كما وندرك أيضاً صعوبة المناقشة والتحليل في عوامل ومسببات التعصب وإيجاد الحلول لها .

العرب ... نظرة شمولية و استخلاص

لقد برهنت الأحداث الحاصلة في التاريخ العربي ، أن الأمة العربية قديماً وحاضراً ، تأثرت ظروفها التاريخية بثلاثة عوامل أو مفاهيم وهي ، الدين .. القومية .. السياسة .وهذه العوامل أو المفاهيم الثلاث كانت دوماً تحدد سير الأحداث والمراحل والظروف التاريخية التي كانت ولا تزال تمر بها الأمة العربية ، وذلك من خلال تفاعل تلك العوامل والمفاهيم مع بعضها البعض ومن خلال طريقة تعامل الإنسان العربي معها ووعيه لها ، كل ذلك كان يحدده نظرته ومفهومه لها وتأثره بها .

ودراسة علاقة تلك الأحداث بالأمة العربية والإنسان العربي هي علاقة شائكة ومعقدة جداً ، لأنها علاقة متبادلة . ومتداخلة ، فهي علاقة مؤثرة ومتأثرة بنفس الوقت ، فالإنسان العربي تأثر بتلك العوامل والمفاهيم من خلال نظرته ومفهومه لها ، وأثر هو فيها أيضاً من خلال مفهومه ونظرته لها ، وهنا تكمن صعوبة دراسة ومناقشة آلية وسير تلك العلاقة بين الإنسان العربي وبين هذه المفاهيم وتحديدها بشكل دقيق .

فمفهوم الدين الذي جاء إلى الإنسان العربي في الجزيرة العربية قد أثر على الإنسان العربي وغير من تقاليده وعاداته ، وذلك من خلال تقبل ذلك الإنسان لهذا الدين ونظرته إليه . وهو أيضاً من خلال تقبله للدين ونظرته إليه أثر هو الآخر فيه بمقدار ما تقبله وتفهمه ونظر إليه . فنظرة الإنسان العربي وتقبله للدين ، لم تأت من العدم بل جاءت من خلال تفاعل ذلك الإنسان مع تقاليده القديمة وتأثره بها ، وبالتالي فقد أثر هو أيضاً بالدين من خلال نظرته

ومفهومه المتأثر بتلك العادات والتقاليد ، بالرغم من أن الدين قد ألغاها أو بدلها بعادات أخرى أو غير في بعضها الآخر .

كذلك الأمر بالنسبة إلى السياسة ، حيث أن الإنسان العربي قد تأثر بها قبل أن يعرفها ويدركها تمام الإدراك ، ونتيجة لذلك أثر هو الآخر فيها من خلال طريقة استخدامه لها حتى بدون أن يدركها تمام الإدراك ويعرف ماهيتها بشكل كامل . وبمعنى آخر فإن الإنسان العربي حتى عندما عرف السياسة وأدركها فيما بعد ، فإن ذلك نتج عن تأثره بها وعدم شعوره بذلك من قبل عندما كانت غير منظورة بالنسبة له .

أما بالنسبة إلى القومية العربية والتي لم يظهر أثرها وتأثر الإنسان العربي بها بشكل كامل إلا من خلال القرن الحالي فقد أثرت هي أيضاً في سير أحداث الأمة العربية وذلك من خلال نظرة الإنسان العربي لها وتأثره بها ، وتعامله معها حتى منذ فترة ظهور الإسلام وإلى الآن .

وهذا التأثر والتأثير المتبادل بين الإنسان العربي وبين تلك المفاهيم كان أحد أهم الأسباب والعوامل التي صنعت الأحداث والوقائع التاريخية العربية .ومن خلال مناقشتنا في الفصول السابقة من هذا الكتاب ، نستطيع أن نلاحظ أن الآلية أو الديناميكية التي ألمت بالأمة العربية كان سببها هو المزج والتفاعل بين تلك المفاهيم وطريقة تعامل الإنسان العربي معها . فالقومية العربية التي لها الأثر الكبير والأساسي في حماية الأمة العربية والأرض العربية من التفكك والانهيار وذلك من خلال معرفة الإنسان العربي لها وإدراكه لماهيتها وبالتالي تعامله معها . لها أيضاً أثر عكسي ، فإذا كان الإنسان العربي محافظاً على قوميته العربية ويعمل لأجلها ومتمسكاً بها فإن ذلك لا بد سيعصمه من الضعف والعجز والصراع الداخلي والخضوع للأمم والشعوب الأخرى .

وبما أن الإنسان العربي حينها لم يكن يدرك القومية العربية تمام الإدراك ولم يكن مهتماً أو مكترثاً بها فقد دفع ثمن ذلك غالياً ، من خلال كيان أمته ووجودها ووحدتها واستقلالها وذلك كله كان نتيجة المزج الخاطئ بين القومية والدين والسياسة وذلك عندما اعتقد أن الدين هو القومية أو اعتبار القومية ضد الدين . ورأينا أيضاً أن الدين كان له أيضاً أثر كبير في توحيد الأمة العربية ، ولكن نتيجة للممارسات الخاطئة للإنسان العربي ، أصبح الدين عاملاً وسبباً رئيسياً من أسباب تدمير الأمة العربية وانحطاطها وخضوعها للأمم والشعوب الأخرى التي استعمرتها واحتلتها قروناً طويلة عديدة . وذلك كله كان أيضاً نتيجة المزج والفهم الخاطئ للقومية والدين والسياسة .

ورأينا أيضاً كيف أنه كان للسياسة دور أساسي وهام في سير الأحداث والوقائع العربية ، ولكن ونتيجة لعدم إدراك المفهوم السياسي وقتها تمام الإدراك ونتيجة للتعامل والمزج الخاطئين بين السياسة والدين فقد أدى ذلك أيضاً إلى ظهور الخلافات والصراعات الدينية وانقسام الشعب العربي إلى طوائف وفرق ومذاهب دينية وسياسية متناحرة ومتعارضة .

من خلال ما تقدم يظهر السؤال التالي : ما هي علاقة تلك المفاهيم الثلاث (القومية والدين والسياسة) ببعضها البعض ، هل علاقة توافق وانسجام ، أم علاقة تنافر وتضاد ، وهل وجود واحدها ينفي وجود الآخر ، وما هو موضع كل واحد منها من الآخر ، وهل يوجد تداخل ونقاط مشتركة فيما بينها أم أنه لا يوجد أي نقاط مشتركة أو متقاطعة ؟ .

إن إلقاء نظرة عقلانية ، تحليلية شاملة وتاريخية على تلك المفاهيم الثلاث ومن خلال ما تناولناه بالدراسة عنها تبين لنا أن هذه المفاهيم الثلاث الدين والسياسة والقومية لا تجتمع مع بعضها البعض أبداً ولا يوجد أي نقاط التقاء أو تقاطع فيما بينها ، كما أنها لا تخضع لبعضها البعض ، ولا يجوز إخضاع أحدها للآخر ، وهي بالرغم من كل ذلك ، لا تنفي بعضها البعض ، ووجود أحدها لا ينفي وجود الآخر أو يتعارض معه .

وهذه المفاهيم أيضاً لا يمكن لإحداها أن يحل محل الآخر أو يغني عن وجوده ، وهي ليست متعارضة مع بعضها بمعنى التعارض المجرد ، ولكن لكل منها قوانينه الخاصة وصفاته المتعلقة به والتي تلازمه هو وحده فقط ولا يمكن أن يتصف بها مفهوم آخر غيره . واجتماع هذه المفاهيم الثلاثة واختلافها هو معيار تطور الدول وتقدمها ، قوتها وتخلفها .

وفي العصر الحالي إذا أردنا أن نورد الشواهد فلا بد من إضافة عنصر أو مفهوم جديد وهو الاقتصاد ، وذلك لكون هذا العنصر قد أخذ يؤثر في المسارات والأحداث التاريخية للأمم والشعوب ، ومنها الأمة العربية ، منذ بداية الثورة الصناعية وحتى الآن ولذلك لا مجال من عدم تجاهل المفهوم الاقتصادي في سياق الدراسة والتحليل .

ففي البلدان المتقدمة والتي هي حالياً البلدان الرأسمالية نجد إذا نظرنا إلى العلاقات المجتمعية ، أن هناك انفصالاً تاماً بين هذه المفاهيم الأربعة ، كما أنه لا يوجد هناك خضوع أي مفهوم منها للآخر . أما في البلدان التي كانت تمثل فيما مضى وإلى وقت غير بعيد المحور إلى الاشتراكي ، فسوف نجد أن هناك انفصالاً بين الدين وكل من الاقتصاد والسياسة وذلك الانفصال تجلى في نفي مفهوم الدين من المجتمع نفياً تاماً بحيث أصبح لا وجود له . وهذا

بطبيعة الحال يعني منطقياً أنه لا يوجد اجتماع بين الدين وبين السياسة والاقتصاد والقومية . ولكن وجد هناك اجتماع أو إخضاع لمفهوم السياسة والاقتصاد . أو ارتباط كلي .

إن هذه الدول التي اعتمدت هذا المنهج كنظام لمجتمعاتها ، قد وصلت إلى درجة من الرقي والتقدم ، ولكن رقيها وتقدمها هذا بقي ناقصاً ، ووصل إلى حدود معينة وقف عندها ، وهذا ما حصل عندما وصلت تلك البلدان إلى مرحلة لم تستطيع فيها أن تتابع تطورها ، بل وحتى عندما كانت في أوج قوتها وتقدمها ، كان لديها هناك أمور ومجالات عديدة بقيت فيها متأخرة عن الدول الغربية التي نهجت منهج الفصل بين تلك المفاهيم . فشعوب هذه الدول التي اتبعت النهج الاشتراكي قد تطورت وبلغت درجة معينة من التقدم ، وذلك بالسلاح وبعض مجالات العلوم التطبيقية والصناعية وفيما عدا ذلك بقوا متأخرين ، وهم قد أدركوا هذا الشيء فيما بعد ولذلك وصل بهم الأمر إلى أن يسقطوا مبادئهم الشيوعية ونظرياتهم الاشتراكية ويتخلوا عنها ويستبدلوها بالنظام الاقتصادي الحر أو ما يسمى بنظام السوق الحر ، أي بمعنى أنهم قد فصلوا الاقتصاد عن السياسة .

والمفهوم الثاني الذي اصطدموا به أيضاً والذي أدى إلى مشكلات وحوادث وحروب جديدة ، هو المفهوم القومي ، حيث أنهم كانوا قد ألفوا أيضاً مفهوم القومية وأخضعوه لمبادئهم ونظرياتهم السابقة ، ودمجوا أو حاولوا أو حاولوا أن يدمجوا جميع الشعوب التي خضعت لمبادئ الاشتراكية والشيوعية سواء بالحروب أو القوة ، أو آمنت بها من تلقاء نفسها ، إلى قومية واحدة ، هي القومية السوفيتية أو ما كان يعرف سابقاً بالاتحاد السوفيتي . ولذلك فما أن بدأت بوادر الحرية تظهر في الاتحاد السوفيتي ومنها حرية التعبير ، حتى أخذت الدول التابعة للاتحاد والتي لها قومية غير القومية الروسية تطالب بالانفصال والاستقلال كأرمينية وأوكرانيا والبلطيق

والشيشان وغيرها ، ونشبت لذلك حروب أهلية وصراعات منها ما زال متفجراً إلى الآن . ولعل قضية البوسنة والهرسك في يوغسلافيا السابقة وما نتج عنها من حروب أهلية ومجازر كبيرة ، والتي أخذت الجانب الديني والقومي معاً ، لهي خير دليل على استحالة إخضاع المفهوم الديني أو القومي لأمور وقضايا سياسية .

أما البلدان النامية أو ما يسمى بلدان العالم الثالث فإننا نرى إذا نظرنا إلى العلاقات الاجتماعية والنظم السائدة فيها ، أن هناك ربطاً بين السياسة والدين والاقتصاد . والقومية وجميعها متداخلة مع بعضها وتخضع إما للمفهوم الديني أو المفهوم السياسي ، أو الاثنين معاً ، وهذا الأمر نراه بشكل خاص في البلاد الإسلامية وبشكل أخص في البلاد العربية ، فهي قد دمجت بين هذه المفاهيم جميعها وأخضعتها لبعضها البعض ، وجعلت منها مفهوماً واحداً ، وهي ما زالت إلى ألان مستمرة في هذا النهج . فمعظمها حتى الآن لم يراع للقومية العربية حقها ، وهي بتشتتها وانفصالها عن بعضها البعض بالرغم من كونها شعب واحد وأرض واحدة ولغة واحدة ، لا تعترف بمبدأ القومية العربية الذي من أساسه وأهم مقوماته الوحدة العربية والاندماج والتضامن العربيين . وبالتالي فهي أسيرة الضعف والعجز والتخلف ، وخاضعة لهيمنة وسيطرة الدول والأمم الأخرى المتقدمة . وهذا الأمر ينطبق أيضاً على المفهوم السياسي والديني حيث هما مرتبطان في البلاد العربية .

وهناك أيضاً بعض البلدان النصف متقدمة والتي فصلت بين الاقتصاد من جهة وبين الدين والسياسة من جهة أخرى كالهند والباكستان مثلاً ، فهما دولتان متقدمتان في الصناعة بعض الشيء وتقومان بعمليات تصنيع محدودة ولهما إمكانيات صناعية معينة ، ولكنهما يبقيان دولاً غير متقدمة تكنولوجياً لأن المفهوم الديني خاضع ومرتبط بالمفهوم السياسي .

وإسرائيل مثلاً تأخذ أيضاً نفس المنحى ، فهي كيان سياسي قائم على الدين والسياسة مرتبطة بالدين وخاضعة له بشكل غير مباشر بالرغم من قوة النظام العلماني فيها ، ولذلك فهي وإن كانت متقدمة في بعض المجالات العلمية ، فإنها تبقى قائمة على الهبات والمساعدات الخارجية . وإذا أخذنا دولة جنوب أفريقيا كدولة حديثة الوجود فهي هنا تمثل حالة غير حالة إسرائيل ، لأن النظام المجتمعي فيها ، قد فصل بين الدين والسياسة والاقتصاد والقومية . ولذلك يبقى اقتصادها قوياً بالرغم من أنها شهدت اضطرابات عرقية عنيفة جداً ، وتعرضت للخطر وقطع المساعدات عنها مرات عديدة .

إن تفسير حتمية الانفصال بين القومية والدين والسياسة والاقتصاد ، ينطلق من أن أصول ونظم وقوانين هذه المفاهيم ، مختلفة عن بعضها تماماً ، ولا يوجد بينها تقاطع أو تطابق ، بحيث يسمح لأحدها بالحلول مكان الآخر أو الاتكال عليه ، فعلم الاقتصاد ليس تعاليم إلهية أو قوانين حربية أو سياسية . كما أن الدين ليس علاقات مالية ونظريات اقتصادية أو قوانين ومبادئ سياسية . والسياسة أيضاً ، ليست تعاليم دينية أخلاقية وضوابط منهجية ونظريات اقتصادية كذلك القومية ، إنها ليست تعاليم دينية أو نظريات اقتصادية أو مبادئ سياسية ، إنها علاقة انتماء بين الإنسان والأرض ، وبمعنى أدق بين الجماعة والوطن ، وهي علاقة ظهرت منذ نشوء وقيام الأمم والشعوب ، وفرضت نفسها من منطق أنه لا يوجد أرض وشعب بدون قومية .

إذاً فلكل مفهوم من هذه المفاهيم مجاله الخاص ووجوده بين البشر ، ولكل منها طابعه الخاص الذي يميزه عن غيره ، فالقومية تحمل الطابع المعنوي الحسي ، والدين الطابع الروحي ، والاقتصاد الطابع المادي ، والسياسة الطابع ..... السياسي . فلا يجوز الجمع والخلط بين مفهوم وآخر ، فكيف يمكن مثلاً لرجل الدين أن يكون بنفس الوقت رجل أعمال أو وزيراً

أو عسكرياً أو سياسياً ، كيف يمكن أن يكون رجل الدين الذي يعظ الناس في بالمساجد أو الكنائس أو المعابد ، أن يكون رجل أعمال يتابع المضاربات المالية وكساد السوق والعرض والطلب والبورصة ، إلى ما هنالك ، وكيف يمكن أن يكون دبلوماسياً أو سياسياً ، يدخل في مناورات ومتاهات وحيل السياسة . وكيف يمكن لرجل الأعمال أو السياسي أن يطلق لحيته ويذهب ليجلس في الأماكن الدينية ويعظ الناس ويوجههم ويفتي لهم . هذا الكلام غير منطقي ، وحتى فكرة التعامل به غير سليمة تماماً ، ولكن هذا لا يعني أن رجل الاقتصاد أو السياسة هو أقل مرتبة أو أخلاقاً من رجل الدين . أو أن الاقتصاد أو السياسة هما أخلاقياً ضد الدين . ولكن القضية هنا هي أن طبيعة الانفصال ، تفرضها فكرة أن السياسة والاقتصاد كمفهومين أساسيين سيأخذان حتماً ولزاماً مداهما وسيفرضان بشكل إجباري الصفات والميزات التي يحملها طابع كل منهما على البشر ، لا مناص من ذلك . وهذا ما حصل من خلال اندماج المفهوم الديني والسياسي للدولة الإسلامية . وما تلا ذلك من عصور لاحقة .

فمن المستحيل الجمع بين مفهومين من تلك المفاهيم ، دون أن يتأثر أحدهما بالآخر ، إذاً فالعلاقة بين تلك المفاهيم الأربعة هي التي تحدد وترسم الخط البياني لمجتمع ما أو أمة من الأمم ، وذلك من حيث التقدم والتطور أو التخلف والانحطاط ، أو من حيث الاستقرار والتماسك ، وذلك كله يعتمد على وعي ذلك الشعب أو أفراد هذا المجتمع لتلك العلاقة ، والإدراك الواضح والسليم لكل مفهوم من تلك المفاهيم وكيفية التعامل معه .

من هذا المنطلق سنحاول إيجاد ركيزة ما لنبدأ منها في مناقشة الحلول البناءة والبحث عنها من خلال تلك المفاهيم الأربعة طالما أنها تحدد بعلاقتها وتفاعلها مع بعضها البعض مصائر الأمم والشعوب في العالم ، منذ بدء التاريخ وحتى الآن ، في البداية لا بد من

القول بأن تقدم كل أمة أو شعب مرتبط بانفصال هذه المفاهيم الأربعة عن بعضها البعض وعدم تبعية أحدها للآخر ، ولذلك فإنه لا بد لكل أمة أو شعب يريد التقدم والتطور والقوة والوحدة ، من أن يفصل هذه المفاهيم الأربعة عن بعضها البعض ويتعامل معها إفرادياً وحسب خاصية كل مفهوم منها وميزاته التي تؤثر على تلك الأمة أو ذلك الشعب. وبما أننا قد تحدثنا عن المفهوم الديني والسياسي بشيء من التفصيل فإننا سننظر الآن إلى المفهوم القومي بمعناه العام كونه المفهوم الأشمل والأكثر اتساعاً واستيعاباً لباقي المفاهيم وكونه أيضاً يتميز بحساسية وأهمية كبيرة بالنسبة لنشوء وقيام الأمم واندثارها من التاريخ أو الوجود بشكل عام .

وبالنسبة للأمة العربية ، تلك الأمة العريقة ، الضاربة بجذورها في تراب التاريخ العميق والموغل في القدم ، منذ عهد عاد وثمود ومنذ عهود العرب البائدة وحتى الآن . وبكل ما تعرضت له من تغيرات وهزات ، استطاعت أن تحافظ أو على الأقل أن تبقي على هويتها وأصالتها ، وأن تقدم هذا الكم الهائل من التراث والحضارة ، وإن كانت في الوقت الحالي غير فعالة ونشطة في حقل الحضارة العالمية والأممية ، فإنها كانت في وقت من الأوقات ، ولو لفترة قصيرة المنارة والسراج الذي يضيء الظلام في العالم . وبالنسبة لتلك الأمة فإن القومية العربية هي التي تجسد وتمثل الحل النهائي لخلاص العرب ، من ذلك التاريخ المظلم والانطلاق نحو غد مشرق واعد ، والحلول في المكان الملائم والحيز المناسب بين القوميات العالمية الرائدة .

إن العالم اليوم ، مع ما يحصل به من متغيرات وتحولات جذرية سواء في الأنظمة أو الحكومات أو في العقائد والآراء ، هو عالم القوميات والأمم المتقدمة المتحضرة ، الأمم القوية والمتحكمة وعالم اليوم يشهد سباقاً محموماً بين مختلف المجتمعات والأمم ممثلة بدولها وحكوماتها ، كالولايات المتحدة الأمريكية ، والصين وروسيا ، وأوروبا التي تسعى الآن إلى

الاندماج والوحدة ، واليابان وباقي الأمم والمجتمعات ممثلة أيضاُ بدولها وحكوماتها والتي وإن كانت أدنى مرتبة ، فإنها تسعى إلى احتلال ولو مكانة معينة في العالم .

وطبيعي أن هذا التسابق مع ما يرافقه من التغيرات والتحولات ، لا بد سيؤدي في النهاية إلى عملية فرز في مراتب تلك الأمم والمجتمعات من حيث الصدارة ، وبالتالي ستكون هناك أمم رائدة مسيطرة ومتحكمة في تصريف شؤون هذا العالم ، وأمم تحت السيطرة ، خاضعة وتابعة للأمم القائدة بشكل مباشر أو غير مباشر . سيكون هناك أمم متقدمة علمياً وتكنولوجياً وحضارياً ، وأمم متخلفة متأخرة متعلقة برواسب الماضي المظلم العفن . أمم غنية مترفة وأمم فقيرة بائسة.

إذاً فالتنافس بين الأمم والدول والمجتمعات سيؤدي إلى التصنيف فيما بينها . والتنافس العالمي اليوم هو تنافس ذو بعدين ، علمي وتكنولوجي ، واقتصادي مالي . فجميع الدول الكبر ى اليوم تتنافس في هذين المجالين لتحقيق القوة والزعامة ، والسيطرة على أمور ومقدرات هذا العالم . فالعلم والتكنولوجيا هما من أهم عوامل تطور الدول وقوتها سواء من الناحية العسكرية ، أو غيرها من نواحي الحياة كالرفاه الاجتماعي وإشباع الحاجات البشرية الإنسانية .

والاقتصاد هنا أيضاً ، يعد العامل الرئيسي من عوامل رقي الدول والمجتمعات وتحضرها وتأمين كافة مستلزمات أمورها المعيشية .

وفي خضم هذا التنافس الذي هو في المحصلة تنافس حضاري يظهر بشكل محتم التصنيف والترتيب بين تلك الأمم والمجتمعات وهذا التصنيف هو في النهاية تصنيف قومي ، فعندما يتم التصنيف على أساس القومية ونقول مثلاً : إن أمريكا أو الصين أو أوروبة أو روسيا أو الكونغو أو زائير هي دول متقدمة أو متأخرة ، نستنتج من سياق هذا الكلام نتيجة هامة جداً وهي .... إن التنافس الحضاري يؤدي إلى التصنيف القومي . ونستطيع بسهولة أن ندرك ذلك من وثيقة التاريخ منذ نشوء الحضارات الإنسانية وحتى الآن ، فقد كان هناك دائماً علاقة وثيقة ومتبادلة بين القومية والحضارة . إذاً فالقومية هنا تحمل بعدين أساسيين البعد الأول هو أن القومية هي ماهية الأمة ووجودها على الأرض ، والبعد الثاني هو أن القومية هي أيضاً معيار تقدم تلك الأمة أو تأخذها ، قوتها أو ضعفها ، وحدتها أو تشتتها .

إن القومية كماهية للأمة هي أصل هذه الأمة وكيانها ووجودها والمحور الذي تدور حوله عوامل ومقومات نشوء وقيام الأمم وهي اللغة والأرض والجنس والتاريخ ، وهذه المقولة لا تصح إلا إذا تحولت إلى واقع حي و ملموس ومجسد ، كما هو في العرف والأصل والمنطق . وهذا يعني أن القومية العربية كماهية للأمة العربية ، وكينونة لها ، يجب أن تتحول من المنطق النظري الفلسفي إلى الواقع العملي ، وهذا التحول يجب أن يحمل معه قيماً ومثلاً إنسانية عليا ، كونه عملية تحويل بناءة وخلاقة ، للعنصر البشري فيها دور أساسي لأنه من المفترض أن يتجه إلى الجانب الحضاري الإنساني الخير والخلاق . وعندما لا يتم هذا التحول أو يفشل لأسباب وظروف داخلية من أبناء الأمة نفسها ، أو أسباب خارجية من أمم أخرى ، فإن تلك الأمة تكون قد حكمت على نفسها بالفناء والزوال.

فالقومية كمعيار لتقدم الأمة أو تأخرها ، لقوتها أو ضعفها ، هي السعي لإعلاء كينونة هذه الأمة وماهيتها إلى أفضل مرتبة وأسماها ، وذلك بتسخير الجهد البشري المادي والعقلي مقروناً بالوعي والمعتقد القومي لذلك الغرض ، فلكل أمة من الأمم خصائص وإمكانيات خارقة ، طبيعية أو معنوية ، وهبتها إياها العناية والحكمة الإلهية وهذه الخصائص والإمكانيات تكون إما فردية ، أي تتجلى في أفراد بعينهم ، أو تكون جماعية ، لا تتأثر إلا في حال وجود جماعة ، أو تكون طبيعية ، كالمناخ والثروات الطبيعية والموارد الباطنية . وتضافر كل تلك الجهود والسعي بها نحو الأمام ، ستبلغ الأمة مكاناً متقدماً ومركزاً عالياً في الرقي والتحضر العالميين ، وذلك بشرط توافر البعد الأول للقومية ألا وهو كونها ماهية الأمة وكينونتها ، ويكون بذلك تقدم الأمم يستلزم البعدين معاً ، وبالذات البعد الأول وهو الماهية والكينونة ، لأن عوامل ومقومات وجود الأمة كائنة به ومتأتية منه .

ووجود هذا البعد ،لا يستلزم البعد الثاني بالضرورة ولكن البعد الثاني لا بد له من وجود البعد الأول ، فإذا كان البعد الأول غير موجود ، فإن البعد الثاني هو حتماً غير موجود ، بينما إذا كان الثاني غير موجود ، فإن ذلك لا يستلزم عدم وجود الأول ويبقى في النهاية الدافع والمحرك لكل ذلك ، هو إيمان الشعب بقوميته واعتقاده بوجدها وإخلاصه لها ، ويقينه بأن ذلك هو من أهم عوامل وجوده كشعب له أرض وتاريخ وتراث ، وله الحق في تقرير مصيره ، وأن ذلك حق واجب ، عليه أن يؤديه ويقوم به.

من هنا نستطيع أن ننطلق في تحديد آفاق وأبعاد الوضع العربي العام بشقيه الحالي والمستقبلي ، وذلك بعد أن تطرقنا إلى مناقشة الوضع العربي في الماضي .

فأبعاد الوضع العربي تحدد الحالة الراهنة للأمة العربية بينما الأفاق تعطي تصوراً مستقبلياً وذلك بناء على ثبات أبعاد الوضع الراهن أو تغيرها .

أبعاد الوضع الراهن للأمة العربية

لاشك أن الوضع العربي الحالي هو بمجمل أبعاده وعوامله مرتبط بالعهد الفائت ، وبوقائع وأزمات القرون الماضية وعوامل ومسببات أحداثها ، أي إن العهد الحالي هو بشكل عام نتيجة لأحداث العهد الماضي . ولكن العهد الحالي أو الحديث يتميز عن القديم بأن له طابعه الخاص الذي يعطيه شيئاً من الاستقلالية والميزات الخاصة وذلك كون أن معظم أحداثه هي جديدة كل الجدة على تاريخ الأمة العربية ولها من الأهمية والخطورة بحيث أنها غيرت تقريباً معظم معالم الحياة العربية عما مضى ، كما أنها كانت متلاحقة ومتعددة ومرتبطة بشكل أو بآخر بالأحداث العالمية ككل ومتأثرة بها .

وهذه التغيرات شملت الجانب الديني والسياسي والقومي بل وحتى الاقتصادي للأمة العربية . وهنالك فكرة أو مبدأ قائل بأن المشكلات والأزمات العربية الحالية ، هي نتيجة لعوامل ومؤثرات الماضي وليست وليدة العصر الحالي . هذه الفكرة أو المقولة قد تكون صحيحة ومعقولة إلى حد لابأس به ، وخاصة وأن الكثير من المؤرخين والسياسيين يرون ذلك وينحون نحوه ، ولكن يجب الملاحظة إلى أن تلك المتغيرات والأحداث والتطورات الحديثة والتي ابتدأت بالاستعمار الأوروبي والتي كما ذكرنا كانت من القوة بحيث أنها غيرت الطابع التقليدي الذي كان يتميز به المجتمع العربي ، قد أعطت المجال أو الفرصة للعرب للاستفادة من ذلك خاصة وأن تلك التغيرات قد بدلت مفاهيم وأعراف وتقاليد كثيرة وأتت بأخرى ، وبنفس الوقت أيضاً ظهرت مفاهيم أخرى على العرب ، كانت خافية عليهم وذلك نتيجة للوعي الذي ظهر على أثر تلك الأحداث ومن هذه المفاهيم المفهوم القومي أو القومية العربية والمفهوم السياسي وذلك بالرغم من أن التقاليد والأيديولوجيات الاجتماعية والدينية والسياسية قد بقيت إلى اليوم تحتل معظم مكانتها السابقة في العهود الماضية التي مرت بالأمة العربية .

إن أبعاد الفترة الحديثة للأمة العربية تتحدد بالتالي : البعد العربي السياسي ـ البعد العربي القومي ـ البعد العربي الاقتصادي . وهذه الأبعاد الثلاثة نتيجة للأحداث الحاصلة بالنسبة للأمة العربية هي أبعاد متلازمة مترابطة يتأثر كل منها بالآخر.

فالبعد السياسي للأمة العربية هو الذي يمثل الحالة والوضع السياسي الذي وصل إليه العرب الآن، وأول ما يميز ذلك البعد هو الانقسام العربي إلى أقطار وجمهوريات وممالك وإمارات ، تحددت كل منها عن الأخرى وتميزت بنظام سياسي وقوانين وأعراف اجتماعية بل وحتى لغات ولهجات محلية وإقليمية ، وأصبح كل منها يرتدي طابعه الخاص به ويتصرف وفقاً لذلك مع الخارج ، أي الدول الأجنبية أو الداخل ، أي الأقطار العربية ، فكل دولة من تلك الدول أصبحت تشكل أمة منفردة مصغرة تسعى لإيجاد كافة عوامل ومقومات نشوء تلك الأمة سواء من خلال صهر شعب ومجتمع تلك الدولة في بوتقة واحدة وإعطاء جنسية خاصة تميزه هو فقط عن بقية العرب أمثاله وهذا الأمر لم يقتصر فقط على الانقسام المجرد بل تعداه إلى الاستقلالية في الرأي وتقرير المصير ، وهذا أدى إلى أن تكون سياسة تلك الدول غير متوافقة بالضرورة ، بل وحتى متنافرة ومتعاكسة أحياناً ، وارتباط سياسة كل منها على حدة بالدول الأجنبية وأهمها الدول الغربية ، وهذا الأمر يمكن إسقاطه على البعدين القومي والاقتصادي .

فبما أن الرابطة المشتركة والمرجعية القومية ، وكيان الأمة الواحدة المجسدة للعروبة قد انتفت ، فإن ذلك يعني أن المفهوم أو البعد القومي قد انحسر تماماً وهو عملياً غير موجود إلا في الحالات التي يكون فيها أحد الأقطار العربية يتبنى في سياسته مبدأ القومية العربية . سواء من خلال الأحزاب كحزب البعث العربي الاشتراكي أو وجهات النظر الفردية للقادة والحكام ، وذلك كما في مصر بعد الانقلاب على النظام الملكي فيها ، أو الحالتين معاً عندما تجسدا بأوج قوتهما في دولة واحدة وفترة

واحدة وذلك في سورية منذ عام ١٩٧٠ عندما تبوأ الرئيس حافظ الأسد إلى جانب منصب الرئاسة منصب الأمين العام لحزب البعث العربي الاشتراكي ، وما تلا تلك الفترة بالذات قد شهد لأهم وأخطر الأحداث العربية التي كان يتوقف مصير الأمة العربية منذ العصر الحديث .

وتتجلى المرحلة الحالية في أنها اتسمت بمتغيرات عالمية حساسة وجوهرية ، منها ما مس العرب بشكل مباشر ، وهذه المتغيرات والتطورات الحديثة التي غيرت طابع الأمة العربية وأعطتها نوعاً من الاستقلالية والانفصال عن الفترات الماضية مع ما شملها من متغيرات يوجد بينها (أي المتغيرات الحديثة) وبين المستجدات القديمة نقاط مشتركة أولها أنها كما ذكرنا غير من طابع الأمة العربية السياسي والديني والاقتصادي والقومي تماماً كما فعلت المتغيرات القديمة.

وبالإضافة إلى ذلك ، يوجد هنالك قاسم مشترك آخر وهو أن العرب كما تأثروا بالمستجدات والمتغيرات القديمة وأثروا بها ، فإنهم في الفترة الحديثة قد انجروا أيضاً إلى تلك التغييرات والمستجدات وتأثروا بها ، مع فارق بسيط وهو أنهم لم يستطيعوا أن يؤثروا بها حسب مصالحهم السياسية والاقتصادية والقومية ، بل تعاملوا معها كل قطر على حدة وحسب أنظمة الحكم القائمة وعلقتها بالخارج . وتفسير ذلك مرده إلى أن المستجدات والتغييرات الحديثة هي أولاً تغييرات خارجة حصلت في العالم المتقدم بما فيه أوروبة وآسيا وأمريكا وأتت للعرب عن هذا الطريق . وثانياً : هي تغييرات ومستجدات أقوى من العرب وخارج سيطرتهم المادية والمعنوية ، وليس بمقدورهم خلق الإمكانات والعوامل لمجاراتها والتماثل معها ، ولو بفرق معين أومسافة معقولة ، وذلك حتماً يستوجب التأثر الإجباري بها والخضوع لها ، وصعوبة الاستقلال الانفصال عنها مستقبلاً .

فالإسلام هو من أهم الأحداث والمؤثرات التي غيرت طابع العرب قديماً من قبائل متفرقة مختلفة وضعيفة ، إلى مجتمع وأمة عربية واحدة قوية . ولكن الإسلام أتى من العرب أنفسهم ونزل فيهم ، ولم يأت من الخارج بل أتى بشخص الرسول الكريم محمد (ص) ، كما أنه لم يأت من منطق القوة والفوقية

والإكراه ، أو من وسائل معنوية أو مادية قاهرة ، بل من باب الاقتناع والإيمان والاعتقاد والرأفة والرحمة وحرية الاختيار . وهذا الأمر في الواقع لا يستوجب التأثر فقط ، بل التأثير أيضاً ، وهذا تماماً ما حصل فيما بعد .

ونستطيع إدراك ذلك بكل سهولة ، فالعرب تأثروا بالإسلام من العرب ، من قريش ، من بني عبد مناف ، من بني هاشم من الرسول (ص) ، وأثروا هم فيه أيضاً ومن قريش من بني عبد شمس من بني أمية أبناء عمومة الرسول (ص) ، وذلك عندما أقام معاوية بن أبي سفيان الكيان السياسي للمجتمع الإسلامي الذي تمثل بقيام الدولة الإسلامية ، وذلك عن طريق أمور وأحداث مذكورة سابقاً ولا داعي لذكرها وتكرارها . إذاً فإن التأثر والتأثير كانا من مصدرين متقاربين في المكان . والأشخاص . ومن هنا نستطيع أن ندرك الفرق بين الماضي والحاضر . ومن ناحية ثانية نستطيع أن نلاحظ أيضاً أن معظم المستجدات الحديثة وما ارتبط بها من وقائع وأحداث قد فرضت على العرب فرضاً وتقبلوها بالقوة ، وما استطاعوا رفضه وتجنبه ، فقد رفضوه وتجنبوه ، وذلك في معظم الأحيان حسب القيادة الحاكمة لكل قطر عربي ، وحسب تعاملها ونظرتها وإيمانها بالمفاهيم الثلاث ، القومية والدين والسياسة .

ولكن إذا كانت الأحداث والوقائع الحالية التي يمر بها العرب الآن ، غير مرتبطة بشكل عام ارتباطاً وثيقاً وقوياً بالأحداث والظروف التاريخية القديمة ، فإنها لا بد تعود بجذورها إلى بداية الفترة الحديثة منذ دخول الاستعمار الحديث إلى الأرض العربية ، كون أن الظروف والعلاقات السياسية الحالية مشابهة إلى حد ما لتلك العلاقات التي كانت في فترة الاستعمار والانتداب الغربي للوطن العربي ، ولا يوجد بينها أي فاصل أو حاجز تاريخي معين ، اللهم سوى التغيير في صيغة العلاقات القائمة ، ولكن مع ذلك بقيت العلاقات موجودة ومستمرة حتى بعد استقلال الأقطار العربية عن الانتداب الأوروبي ، وإن أصبح العامل الاقتصادي فيها أكثر من السياسي . ولنا أن نلاحظ ذلك إذا قارنا بين استقلال الأقطار العربية عن الدولة العثمانية ، واستقلالها عن الانتداب الأوروبي في منتصف هذا القرن .

فالعلاقة بين الأقطار العربية والدولة العثمانية بعد الثورة العربية الكبرى أصبحت علاقة محدودة ، وشبه معدومة ، واتصفت بأنها علاقة الند بالند ، يضاف إلى ذلك أن الكيان السياسي للدولة العثمانية قد تغير تماماً وتضاءل وانحسر إلى حدود تركيا الحالية ، التي أصبحت هي نفسها تابعة للدول الكبرى ، بل وألغت كل آثار ومظاهر الحكم العثماني فيها على يد كمال أتاتورك لتعتمد بدلاً من ذلك نظام الحكم العلماني . بينما ازدادت العلاقة بين الأقطار العربية والدول الغربية بعد الاستقلال وأصبحت أكثر تشعباً واتساعاً اتخذت عدة مجالات أهمها المجال السياسي والاقتصادي، وهي ليست علاقة الند بالند ، بل هي إلى حد كبير ، علاقة تبعية ، حيث أصبحت جميع علاقات الأقطار العربية الصناعية والزراعية والعلمية ، بل وحتى أحياناً الثقافية ، تعتمد على الدول الصناعية الغربية . وانعكس ذلك أيضاً على العلاقات السياسية ،الداخلية والخارجية للأقطار العربية ، فأصبحت معظم الأحداث السياسية العربية ، مرتبطة بشكل أو بأخر بالدول الأجنبية .

وإذا كانت فترة الحكم العثماني وما قبلها ، قد ساد فيها المفهوم الديني السياسي ، أو السياسة الإسلامية ، فإن فترة الانتداب الأوروبي وما بعدها ، قد ساد فيها وطغى عليها المفهوم السياسي الاقتصادي . وانطلاقاً من ذلك يمكننا أن ننظر إلى الوضع العربي الحالي المتردي من هذا المنظور .

لقد تحرر العرب من الاستعمار العثماني الذي رزحوا تحته طوال أربعة قرون ، انعزلوا فيها عن العالم وتحرروا أيضاً من الاستعمار الأوروبي الحديث الذي قسمهم إلى أقطار ودول وممالك ، ومع ذلك بقوا في حالة الضعف والعجز والخلاف والنزاع التي كانوا يعيشونها .

وبالرغم من توفر كافة مقومات الوحدة والتقدم لديهم ، فهم لا يزالون يعتبرون من الدول المتخلفة والفقيرة ، فالعرب يمتلكون الكثير من الثروات الباطنية والطبيعية وأهمها النفط ، كما أن طبيعة الأرض العربية وخصوبتها واعتدال مناخها وتوفر المياه فيها ، كل ذلك يعد من مقومات الاقتصاد القومي

المتقدم بشقيه الزراعي ، والصناعي ، يضاف إلى ذلك أيضاً توافر مقومات الوحدة العربية ، الأرض الواحدة والشعب الواحد واللغة الواحدة والتاريخ المشترك . وهذه المقومات هي نفسها أيضاً مقومات وعناصر القومية العربية .

وبشكل عام فإن المشاكل العربية ، أو عوامل انحطاط العرب اليوم ، هي الانقسام السياسي الذي يتطور شيئاً فشيئاً نحو الانقسام القومي ، يضاف إلى ذلك أيضاً ، التخلف الحضاري العام بمختلف نواحيه ، الزراعي والصناعي والعلمي . ويأتي الخلاف والنزاع العربي ـ العربي والذي يأخذ أيضاً عدة أبعاد ، منها السياسي ومنها الديني ، ومنها مازال مرتبطاً بأمور ماضية . وقضية التبعية للدول الأجنبية ، والتي هي حقيقة موجودة ، لا يمكن اعتبارها من المشاكل أو عوامل الانحطاط العربية ، بل هي نتيجة لهذه العوامل والسلبيات .

لقد ظهرت متغيرات وتطورات عربية عالمية جديدة ، منذ بداية القرن العشرين وحتى الآن ، وتأثر العرب بها ، ولكن بقيت عوامل الانحطاط والضعف موجودة لديهم . وتلك الأحداث قد جلبت أمور عديدة على المجتمع العربي ، وغيرت النظم السياسية القديمة ، وأدخلت نظم جديدة بدلاً منها ، وأثر ذلك حتى على الناحية الاجتماعية في الوطن العربي ، والعالم ككل . فقد ظهرت مبادئ سياسية واجتماعية جديدة كحقوق الإنسان ، وحق تقرير المصير بالنسبة للشعوب . وظهرت أيضاً هيئات ومؤسسات ومنظمات دولية وعلمية ، كمنظمة الأمم المتحدة ، ومحكمة العدل الدولية ، وصندوق النقد الدولي .

وبالإضافة إلى ذلك ظهرت أيضاً أعراف وقوانين واتفاقيات عالمية ارتبطت بها جميع دول العالم تقريباً . كما ظهرت أيضاً نظم سياسية أيديولوجية ، تأسس بناء عليها ، دول وحكومات كمنظومة الدول الاشتراكية ، منها ما تغير ، ومنها ما زال مستمراً حتى الآن ، يضاف إلى كل ذلك ، التطور والتقدم العلمي والتكنولوجي الهائل والمتسارع الذي يحصل الآن . كل هذا يعيدنا إلى فكرة ومقولة .... أن التنافس الحضاري يؤدي إلى التصنيف القومي .

وعملية التصنيف القومي تلك هي ليست عملية بحتة مجردة أو فكرة نظرية ، بل هي عملية واقعية حبة ومتجسدة وتستوجب في مضمونها ، مفهوم التبعية والخضوع والسيطرة أو مفهوم الخيار الإلزامي الإجباري ، ولو استلزم ذلك القوة والإجبار ، وهذا بالضبط ما يحصل الآن من خلال الأحداث والتطورات العالمية ، و ما الصراعات والحروب العالمية أو الحروب الباردة وغيرها ، إلا من أجل الوصول إلى ذلك المفهوم . فجميع الدول التي تنحو اليوم هذا المبدأ ، تفعل ذلك إما للسيطرة والريادة العالمية ، أو للدفاع عن نفسها وعدم سقوطها تحت رحمة الدول الكبرى .

فالماضي قد تغير ، والأحداث والنظم السياسية القديمة قد تبدلت بمعظمها ، وظهرت الآن دول جديدة لم تكن موجودة في السابق ، أو كانت عبارة عن مجتمعات فقيرة تابعة لغيرها من الدول والشعوب ، وهذه الدول اليوم أصبحت أما من مصاف الدول العظمى أو من الدول التي لها مكانة مرموقة ومتقدمة . وجميع هذه الأمور حصلت في القرن العشرين وهي بمثابة قاعدة وعرف . والعرب اليوم يمكن اعتبارهم استثناء من هذه القاعدة ،وذلك كله بسبب بقاء مشاكلهم ، وعوامل ضعفهم موجودة ولم تتغير حتى الآن .

إن على العرب أن يدركوا أنهم في خطر يهدد كيانهم ووجودهم ، وعليهم أن يدركوا أيضاً أنهم لو استمروا في ذلك النهج ، نهج اللامبالاة والاستهتار بعروبتهم وقضاياهم المصيرية الجوهرية والقومية فإنهم سيصلوا إلى مرحلة الفقر والمجاعة أيضاً ، إلى مرحلة مشابهة لتلك المرحلة التي كانت في الجاهلية حيث كانوا خاضعين للروم والفرس . فقد حصلت تلك التغيرات والمستجدات العالمية ، وأثرت على شعوب ومجتمعات ودول كثيرة ، ومنهما العرب الذين فقط تماشوا مع تلك المتغيرات وتأثروا بها سلبياً ، فطوروا سلبياتهم وعوامل ضعفهم وانحطاطهم ، بما يتناسب مع تلك المتغيرات . و ما التقسيم

السياسي ، للأقطار العربية اليوم ، وإيجاد قوانين ودساتير ومراسيم خاصة بها ، وفتح السفارات فيما بينها ، إلا كنتيجة سلبية لتلك المتغيرات التي انعكست بشكل عام ، إيجابيا على دول وأمم غير العرب .

إن معظم التغيرات والتطورات في التاريخ البشري ، والتي كانت تحصل في الشعوب والمجتمعات البشرية ، كانت تؤدي إلى تطور تلك المجتمعات وتبديل كيانها وأسسها الاجتماعية والاقتصادية وحتى الفكرية ، وتغير بنيتها الجذرية ،وذلك كله إيجابا فالتغيرات التي شهدتها أوروبة في القرون الوسطى ، والتي كانت تقوم أساساً على الإصلاح الديني والاجتماعي ، أدت إلى انتقال المجتمع الأوروبي ، من الإقطاع الزراعي إلى البرجوازية الصناعية ، وهذا كان بمجمله تغيراً للمسار التاريخي للقارة الأوروبية ، من حال الانحطاط والظلام إلى عصر النهوض والتقدم وذلك كان البداية والسبب الرئيسي لقيام الثورة الصناعية وظهور الابتكارات والاختراعات العلمية ، أي بمعنى أصبح بداية العصر الحديث .

وقد شمل التغيير أيضاً ، كافة النواحي الاجتماعية والفكرية من تغيير للأنظمة والتقاليد الدينية القديمة البالية ، والتي كانت تقوم في أساسها على العصبية الدينية ، وعلى استعباد الإنسان وتسخيره أداة للحروب والإقطاع وإخضاعه لنير الجهل والخرافة ، فقد اتجهت البرجوازية الرأسمالية الأوروبية إلى إقامة المجتمعات الصناعية وتحديثها ، على أساس الحرية الفردية والفكر العلماني الذي يقوم على مبدأ فصل الدين عن الدولة وحرية الرأي والتعبير . فأزالت الرابطة الدينية لتقيم محلها الرابطة القومية ، واتبعت ذلك بإقامة النظام السياسي الكامل والحديث لدولها من تشكيل حكومات ووزارات رسمية ومجالس العموم والنواب ، وإقامة المؤسسات والهيئات الحكومية والاجتماعية ، وذلك كله قائم على النظام والقانون ، واعتبار ذلك من المقدسات التي لا تمس و لا يجوز الاقتراب منها أو العبث بها .

وقد وجهت البرجوازية الصناعية مجتمعاتها نحو الإبداع والابتكار بكافة المجالات وأهمها العلمية والصناعية ، فحققت بذلك أمرين أساسيين .

ـ أولاً : أنها بنت لدولها قاعدة صلبة كبيرة ونواة قوية بنت عليها اقتصادها وسياساتها ، فاستطاعت عن طريق وسائل الإنتاج المتطورة والمتشعبة تأمين كافة المستلزمات الحياتية والاجتماعية لشعوبها ، كما أنها فرضت سياساتها الخارجية وحمتها بواسطة القوة والسلاح المتطور .

ـ ثانياً : أنها عزلت شعوبها وحررتها من الصراعات والحروب الدينية والفكرية ونزعت منها أفكار القرون الوسطى الغيبية ، وكل رواسب الجمود والتخلف ، ووجهتها نحو الائتلاف والاندماج في ظل الرابطة القومية . فانشغلت بذلك عن التفكير بالماضي ، واتجهت نحو بناء المستقبل .

وقد تابعت تلك الدول ذلك النهج واستمرت به ، فاستثمرت كل التطورات والتحولات التاريخية التي حصلت بعد ذلك لصالحها ، ووجهتها لبناء مجتمعاتها وتطويرها . وما نشوء الدول العظمى اليوم كالولايات المتحدة وروسيا واليابان إلا كنتيجة لتلك التغيرات والتحولات التي شملت العالم. حتى التحولات الفكرية والإيديولوجية التي شملت بعض الأمم والشعوب كالشيوعية والاشتراكية قامت على أساسها دول عظمى كدول الاتحاد السوفيتي السابق . بالرغم من اختلافها المباشر وتناقضها التام مع المبادئ والنظريات الرأسمالية التي أدت إلى نهوض وتقدم الغرب . والهدف من ذلك كله هو بناء وإعلاء القومية ، فالقضية ليست قضية مبادئ وأفكار بل قضية قومية وإرادة شعوب وأمم تقف وراءها .

وجميع تلك التغيرات والتطورات ، لم يستفد منها العرب بحال من الأحوال ، بل على العكس من ذلك ، فقد زادتهم ضعفاً وعجزاً وبدوا كمن لا حول له ولا قوة ، علماً أن العرب كان بإمكانهم ركوب تلك المتغيرات وتسلقها ، إذا صح التعبير وجاز الوصف . فهم لديهم جميع المؤهلات لذلك ، خاصة وأنهم كانوا أطرافاً بمعظمها سواء بشكل مباشر أو غير مباشر .

إن التحول الوحيد الذي أثر بالعرب إيجاباً ولو لفترة قصيرة نسبياً هو الإسلام ، وذلك كله في بداية ظهوره ، حيث أثر بالعرب وتأثروا به ، تماماً كما هو منزل ، فكان عاما قوة ووحدة وحضارة ولكن عندما أثروا هم به وتأثر هو بهم كما هم يريدون ، انقلب إلى عامل تفكيك وانهيار ، وما زال هذا العامل والأثر

موجوداً ، وما زال العرب متمسكين به إلى الآن وينهجون نهجه . وهذا ما يفسر عدم استفادتهم من مجمل تلك التحولات والتغيرات . فعوامل ورواسب ومخلفات بداية الصراع العربي القديم ، ما زالت موجودة حتى الآن ، وما زالت آثارها وما انبثق عنها من ثوابت و عقائد فكرية وإيديولوجية ، موجودة في عقل الإنسان العربي .

واليوم فإن الحياة الاجتماعية والسياسية في الأقطار العربية ، تقوم على هذا الأساس ، ولهذا فلن تنفع جميع التغيرات العالمية مع العرب ، طالما هم باقون على هذا النهج ، ولا يغيروه . ونستطيع أن نلاحظ أن أوروبة لم تكن لتستطيع القيام بالثورة الصناعية ودخول عصر التقدم والازدهار ، لو لم تغير أنظمتها وعقائدها القديمة ، وتقوم بتصحيح العلاقة بين الدين والسياسة .

وقد كان بإمكان العرب الاستفادة من التغيرات العالمية وخاصة تلك التي حصلت أوائل القرن العشرين . فهي أولاً مستهم بشكل مباشر وحصلت معظمها في الوطن العربي ، كما أنها أيضاً من ناحية أخرى قد حملت المؤثرات والعوامل الإيجابية المساعدة على الانعتاق والتحرر . فهم تخلصوا من نير الحكم العثماني الأجنبي الذي كان سبباً رئيساً في تخلفهم وعزلهم عن العالم، وقاموا هم أنفسهم بالثورة عليه ، أي هم أنفسهم كانوا أصحاب المبادرة و لكن بمساعدة و دعم الأوروبيين . وعندما تخلصوا من الحكم العثماني ووقعوا تحت وطأة الانتداب الأوروبي ، قاموا أيضاً بمقاومة ذلك الانتداب والثورة عليه حتى حققوا الاستقلال وهو تحول جوهري هام ، وكانوا هم أصحاب المبادرة أيضاً . ولكن ما أن استقلوا عن المستعمر ، حتى رجعوا إلى وضعهم السابق ، فانقسموا إلى كيانات وأقاليم سياسية متنازعة فيما بينها . وهذه القضية تدعوا إلى الشك والريبة في مقولة أن الاستعمار الغربي هو الذي يفرق العرب وهو المسؤول عن انقسامهم . وتعم مقولة وفكرة أن العرب هم وحدهم فقط المسؤولون عما حصل ويحصل لهم ، منذ الماضي وحتى الآن .

فالعرب كان بإمكانهم منذ قيامهم بالثورة العربية الكبرى التي اتفقوا جميعهم عليها وعلى التحرر من الحكم العثماني الأجنبي ، كان بإمكانهم الاستمرار بنهجهم ذلك والاتفاق على مشروع قومي وحدوي مشترك . خاصة عندما تزامن ذلك مع بروز قضية إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين. وعندما وقعوا تحت حكم الانتداب الأجنبي ، اتفقوا بمعظمهم على مقاومة ذلك الانتداب ومناهضته (باستثناء الفئات الرجعية منهم) ، وشاركوا جميعهم بكل فئاتهم القومية والشعبية بالثورات ضده للحصول على الحرية والاستقلال . وذلك على الرغم من أن الدول الأوروبية ساعدتهم للتخلص من الحكم العثماني الاستعماري ، وبالرغم من أن الانتداب الأوروبي كان بشكل عام أخف وطأة بكثير من الحكم العثماني وأقصر مدة منه .

فالانتداب الأوروبي كان أثناء فترة وجوده في الأرض العربية يعطي العرب كامل أو بعض السلطات السياسية والبرلمانية كما في مصر والمغرب وسورية ، ولكن بالطبع ، تحت رقابة دولة الانتداب وإشرافها . وبواسطة دول الانتداب الأوروبية أيضاً ، استطاع العرب الاختلاط مع شعوب تلك الدول والتعرف على حضاراتها وإنجازاتها وحياتها الاجتماعية المحدثة ، واقتباس معظم النظم والقواعد والقوانين السياسية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية الحديثة من تلك الدول بعد أن كانت مجهولة لديهم .

وذلك لم يتوفر في ميزات الاستعمار العثماني الذي دمر العرب واستغلهم وأخرهم أربعة قرون إلى الوراء . وجميع حروب السلطة العثمانية كان العرب وقوداً لها ، حتى آخر الحروب التي شاركت فيها السلطنة العثمانية وهي الحرب العالمية الأولى ، سخرت العرب وجندتهم للقتال نيابة عنها . بينما لم تفعل الدول الأوروبية ، لا في الحرب العالمية الأولى التي كانت أيضاً طرفاً فيها وكانت تحتل بعض أجزاء الوطن العربي ، ولا في الحرب العالمية الثانية التي كانت أشد خطراً وكانت تحتل معظم أجزاء الوطن العربي . ولذلك فإن مقولة أن الاستعمار هو سبب تخلف العرب وضعفهم لا تنطبق إلا على الاستعمار العثماني.

حتى عند استقلال العرب عن الاستعمار الأوروبي بعد كفاح مرير أُعلنت دولة إسرائيل ونشبت حرب ١٩٤٨ التي تفرق العرب فيها وانسحبت جيوشهم . وكان إعلان قيام دولة إسرائيل بعد انسحاب الاستعمار الأوروبي من معظم الأراضي العربية وبالذات الأقطار المجاورة لإسرائيل . أي أنها كانت مستقلة وغير مقيدة سياسياً وعسكرياً .

إن الشيء الذي نريد استخلاصه من كل ذلك ، هو أن معظم الفرص والإيجابيات التي تعرض لها العرب في مطلع القرن العشرين ، لم يحسنوا استغلالها وتجيرها لمصلحتهم .

فالدافع والمحفز القومي الوحدوي لديهم معدوم ، هذا الدافع الذي هو الأساس الوحيد الذي تبنى عليه كافة التحولات والتغيرات الإيجابية المؤدية إلى تقدم الأمم والشعوب وعظمتها ، وهو نفسه الدافع الذي ارتكزت عليه الرأسمالية الأوروبية في عصر الثورة الصناعية ، لتوجيه مجتمعاتها وشعوبها نحو الاتحاد والاندماج في ظل روابط سياسية واجتماعية وفكرية متماسكة .

وقد طورت الرأسمالية الغربية الأوروبية ، هذا الدافع الآن بالسعي نحو توحيد أوروبة كلها في ظل نظام سياسي اقتصادي واحد . وهذا الدافع اعتمدته جميع الدول القومية المتقدمة في مطلع القرن العشرين لبناء كيانها وتقويته كاليابان وأمريكا وروسيا .

وأمام هذه الوقائع والأحداث يصبح لزاماً على العرب الأخذ بعين الاعتبار واقعهم الحالي تحسباً من المستقبل المجهول الذي سيؤولون له إذا ما استمروا في هذا المسار .

آفاق الوضع العربي
و المتطلبات العربية

إن العرب اليوم يمرون بأخطر مرحلة من مراحل تاريخهم هذه المرحلة التي اتسعت فيها الهوة والمسافة ، بينهم وبين الأمم والشعوب الأخرى بشكل هائل وكبير ، وهم معرضون الآن أكثر من أي وقت مضى لخطر الاندثار .لأنه في الماضي كان الذي يملكه غيرهم يملكونه هم . أما الآن ، فإن ما يملكه غيرهم ليس فقط لا يملكونه هم ، بل لا يستطيعون امتلاكه ولا يملكون أية فكرة عنه أو أي استنتاج وتصور .وهنا مكمن الخطورة حيث إن ذلك يعني أنهم خاضعون لرحمة الدول الأخرى ، كما أنهم من ناحية أخرى ، إذا استمروا في نهجهم الداخلي المتمثل في علاقاتهم مع بعضهم البعض من صراعات ونزاعات فكرية عقائدية سياسية تتجلى أحياناً بالقطيعة والمؤامرات وحتى الحروب . فإن ذلك أيضاً كافٍ لتدمير كيانهم وهويتهم وتمزيق الرابطة فيما بينهم .

إذاً فالوضع الحالي الذي هم فيه يعرضهم لخطرين أساسيين هما الخطر الخارجي والخطر الداخلي . وهذان الخطران ، كافٍ أحدهما للقضاء على الأمة العربية . وكلاهما نتجا من السياسات والتصرفات العربية .

إن على العرب اليوم تحمل جميع مسؤولياتهم التاريخية والماضية والحالية والقيام بعمليات النهوض القومي الشامل في كل أنحاء الوطن العربي . خاصة وإن الأوان لم يفت بعد بشكل نهائي ، كما أنه لا يزال هناك عدة عوامل إيجابية بدأت منذ مطلع القرن العشرين وأهمها ظهور الحركات الوطنية العربية وما تلاها من حركات وأحزاب قومية في الخمسينات .

إن أولى أولويات العرب تتحدد في السعي لإقامة الوحدة العربية بين جميع الأقطار العربية والانطلاق في بناء المشروع القومي الذي يتجسد في إحياء الأمة العربية الواحدة ودعمها ونفخ روح الوعي القومي فيها ، وضخ دم العروبة بعروقها ، للوقوف على قدميها ، أمة قوية حضارية متقدمة . ويتجلى ذلك في الخروج من حالات الضعف والانحطاط والخلاف التي يمر بها العرب ، وذلك لا يكون إلا بالتغيير الذي يشمل كل المظاهر السلبية في التاريخ العربي ، وأهمها : نبذ كل عوامل الخلاف والتفرقة بكل مظاهرها السياسية والدينية ، والتي كانت السبب الرئيسي في تقويض كيان الأمة العربية ووضعها تحت حكم المستعمرين الأجانب طوال قرون عديدة ، وخلق كافة أشكال التقارب والتوافق العربي وسلوك سياسة التضامن الواحد .

إن ذلك كله يجب أن يتوج بالولاء للقومية العربية والإخلاص لها والعمل من أجلها ، وأن تكون هي الهدف الأول لكل فرد عربي تماماً كما فعلت جميع الشعوب والأمم الأخرى .

يجب على العرب خلق كافة الفرص والظروف التي تساعدهم على بناء كيانهم السياسي والاقتصادي والاجتماعي بشكل متقدم متطور ، حتى وإن اضطروا إلى الكفاح من أجل ذلك واستخدام القوة . و يجب أن ينتشر الوعي القومي في عقل وتفكير كل إنسان عربي لكي يتم إيجاد القاعدة الجماهيرية الواسعة للبناء والنهوض القومي ، لأن الشعب العربي هو الأساس لأية عملية بناء حضارية قومية .

إذاً فقبل أن يتجه العرب إلى الخطر الخارجي والنظر في مشاكلهم مع الدول الأجنبية وقياس واقعهم الراهن بواقع تلك الدول عليهم أولاً النظر في مشاكلهم الداخلية لأنها هي السبب الرئيسي والأول في كل ما حصل و يحصل لهم . فبداية التفكك والانهيار العربي كانت لأسباب داخلية تم ذكرها سابقاً . ولذلك فعلى العرب أن ينظروا أولاً إلى تلك المشاكل ويعملوا على تجاوزها وحلها أو تحجيمها وتلافيها قدر الإمكان .

يجب على العرب إيجاد معادلات واضحة صحيحة لكل مفهوم من المفاهيم الثلاث ، الدين السياسة والاقتصاد وإيجاد علاقات متكافئة سليمة بينها ، حيث أن تلك المفاهيم ونتيجة لأمور معينة في الماضي كانت المحور الأساسي لكل الصراعات والحروب والخلافات العربية ـ العربية ، و كانت المولد الفكري العقائدي المغذي والداعم لها . ولذلك يجب على العرب أن يدركوا هذه المسألة تمام الإدراك ويعوها بشكل جيد ويبحثوا في تفاصيلها وأسبابها مسبباتها وينظروا إلى غيرهم من الشعوب والمجتمعات والأمم كيف تصرفت في هذا الشأن . فهناك قواعد وضوابط منطقية منهجية تحدد لكل مفهوم من تلك المفاهيم وظيفته ودوره في المجتمع . وهذا يعود إلى وعي العرب لهذه المفاهيم وإدراكها والنظر إليها من منظار العقل والمنطق . ومن ثم معرفة كيفية التعامل معها . وهذا ليس بالأمر العسير ، فلكل مفهوم من تلك المفاهيم مجاله الخاص به وهو يحدد نفسه بنفسه ، وخاصة المفهوم الديني . الذي هو أكثر المفاهيم استقلالية وتجرداً .

يجب أن تكون السياسات العربية سياسات تقارب وتوافق وتشترك جميعها في نقاط إيجابية بناءة تشمل كل العرب وتحفزهم للعمل في بناء الأمة الواحدة المتقدمة .

يجب على العرب إزالة كافة الحواجز السياسية والنفسية والتاريخية والطائفية فيما بينهم . وإن حتمية المشروع القومي العربي الآن ، هي فكرة لا غنى عنها ولا بديل لها ، فهي الطريق الوحيد لكي ينقذ العرب أنفسهم ويحموا أمتهم العربية في هذه المرحلة العصيبة التي باتت التكنولوجيا الحديثة المتشعبة، قادرة على اختراق عقلية الإنسان وتفكيره والتحكم بها . هذا غير السيطرة المادية والمعنوية . ولا بد من ازدياد الشعور القومي والحس العربي بالخطر الداهم الذي يهدد الأمة العربية وأمنها.

يجب على العرب اقتباس كل التغيرات العالمية الإيجابية والتي أصبحت سمة العصر الحالي ، كنشوء التكتلات القومية والسياسية والاقتصادية العالمية والسعي نحو محاولة تطبيق ذلك على الأمة العربية .

وكل ذلك مرتبط بالوعي العربي الذاتي لكل تلك الأمور الموجودة أمام العرب كواقع ملموس .

– انتهى –

سعر الكتاب ١٠ دولار

القارئ المحترم .. إذا كنت قد قرأت كتابي هذا و أعجبك ، و أحببت أن تساهم بمبلغ ما .. أنت تراه مناسباً ، يمكنك مشكوراً التحويل إلى حسابي البنكي التالي مع ذكر أسباب التحويل (نزار يوسف)

INTERMEDIARY BANK : BYBLOS BANK SAL BEIRUT LEBANON
SWIFT CODE : BYBALBBX
BENEFICIARY BANK : BYBLOS BANK SA SYRIA
SWIFT CODE : BYBASYDA
BENEFICIARY A/C NO : 2200405395001 165089
BENEFICIARY NAME : NIZAR SLEIMAN YOUSEF
REASON OF PAYMENT : (needful) يُذكر سبب التحويل

العنوان أعلاه للتحويل من خارج سورية ، أما للتحويل من داخل سورية ، يُكتفى فقط برقم الحساب

المراجع و المصادر

١- الطبري .
٢- الكامل في التاريخ .
٣- تاريخ ابن خلدون .
٤- مروج الذهب ، المسعودي .
٥- البداية والنهاية ، ابن كثير .
٦- سيرة ابن هشام .
٧- السيرة الحلبية .
٨- كتاب المحن ـ محمد بن أحمد التميمي .
٩- أدباء العرب ـ بطرس البستاني .
١٠-شذرات الذهب ـ شهاب الدين الحنبلي الدمشقي .
١١-الطبقات الكبرى ـ ابن سعد .
١٢-تاريخ الخلفاء ـ السيوطي .
١٣-تاريخ الإسلام ـ حسن إبراهيم حسن .
١٤-تاريخ الإسلام السياسي ـ حسن إبراهيم حسن .
١٥-الإمامة والسياسة ـ ابن قتيبة الدينوري .
١٦-أحداث التاريخ ـ عبد السلام الترمانيني .
١٧-سوسيولوجيا الفكر الإسلامي ـ محمود إسماعيل .
١٨-دراسات في الفكر والتاريخ الإسلامي ـ محمود إسماعيل .
١٩-تاريخ الحضارة العربي الإسلامية ـ محمود إسماعيل .
٢٠-الحكومة والسياسة في الإسلام ـ طارق إسماعيل .
٢١-تاريخ الدول العربية ـ د. عبد العزيز سالم .
٢٢-تاريخ الإسلام السياسي ـ صائب عبد الحميد .
٢٣-النظام السياسي في الإسلام ـ أحمد حسين يعقوب .
٢٤-موسوعة الحضارة العربي الإسلامية ـ المجلد الثاني .
٢٥-تاريخ الشعوب الإسلامية ـ كارول بروكلمان .
٢٦-تاريخ المشرق العربي ـ د. عمر عبد العزيز .
٢٧-الشخصية العربية ـ السيد يسين .
٢٨-القضية الفلسطينية ـ محمد عزة دروزة .
٢٩-الوثائق السياسية والإدارية للعصور العباسية ـ محمد ماهر حمادة .
٣٠-التاريخ الإسلامي ـ محمود شاكر .
٣١-محنة ثقافة مزورة ـ الصادق النيهوم .
٣٢-الدولة العربية الكبرى ـ محمود كامل .
٣٣-الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية ـ ترجمة محمد صفوة .
٣٤-تاريخ العرب الحديث ـ زاهية قدور .
٣٥-تاريخ العربية السعودية ـ أ. فاسيلييف .
٣٦-تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ـ د. سيد عبد العزيز سالم .
٣٧-تاريخ الوقائع والأفكار الاقتصادية ـ د. إسماعيل سفر .
٣٨-التاريخ الأندلسي ـ عبد الرحمن علي الحجي .
٣٩-تاريخ الدولة العثمانية ـ د. علي حسون .
٤٠-الخليج العربي ـ قدري قلعجي .

٤١-التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني - عبد المجيد أبو الفتوح .
٤٢-صراع الهويات في العالم العربي - السيد يسن .
٤٣-الثورة العربية - جلال يحيى .
٤٤-الإسلام وأصول الحكم - علي عبد الرزاق .
٤٥-المدخل إلى التاريخ الإسلامي - محمد فتحي عثمان .
٤٦-الأمويون بين الشرق والغرب - محمد السيد الوكيل .
٤٧-الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة - د. محمد حميد الله .
٤٨-الموسوعة الفلسطينية - هيئة الموسوعة الفلسطينية ، دمشق .
٤٩-تاريخ فلسطين - عمر صالح .
٥٠-تاريخ الحركة الصهيونية - ألن تايلر .
٥١-جذور القضية الفلسطينية - إيميل توما .
٥٢-صراع على أرض الميعاد - محمد عطا .
٥٣-فلسطين في خطط الصهيونية والاستعمار - أحمد طربين .
٥٤-أبعاد المواجهة العربية الإسرائيلية - بهاء الدين أحمد .
٥٥-دراسات في المسألة اليهودية - إسحاق دويتشر ، ترجمة مصطفى الحسيني .
٥٦-ماذا حدث في تشرين - جان ألكسان .
٥٧-شريعة حمورابي - عبد الرحمن كيالي .
٥٨-الدولة السعودية في الجزيرة العربية - محمد طارق .
٥٩-ابن سعود - مصطفى الحفناوي .
٦٠-مذكراتي - الأمير عبد الله .
٦١-الأسد ، الصراع على الشرق الأوسط - باتريك سيل .
٦٢-نشرة وزارة الخارجية اليابانية في العيد الوطني ١٩٨٥ .
٦٣-المخابرات والعالم - سعيد جزائري .
٦٤-السلام المفقود - كريم بقرادوني .
٦٥-العرب في إسبانيا - ترجمة علي الجارم .
٦٦-نفح الطيب - المقري .
٦٧-الثقافة القومية - المقرر الجامعي في سوريا .
٦٨- مذكرات غولدا مائير

هذا الكتاب

الزمن العربي الرديء للباحث نزار يوسف الذي تغلغل في العالم العربي بكل جرأه، وحرية، موضحا دون خوف أو وجل أن لاوجود للقومية العربية. رغم وجود المقومات الهامة التي تربط العرب مع بعضهم .كاللغة، والدين ، والأرض جغرافيا ، والتاريخ المشترك والعادات والتقاليد.

ورغم كل تلك المقومات فقد تفكك العرب بعد الإسلام وانهارت حضارتهم التي لم تدم طويلاً. إذ مزقتها الفردية والتسلط والتضليل

يوضح الكاتب فقر التاريخ البعيد من أي جذور قومية أو اكتراث بتلك الفكرة حتى من قبل الحكام وزعماء الدين الذين تعاقبوا على الأمة العربية. لا بل ساهموا في زرع بذور الطائفة والبغضاء وذلك باتباعهم سياسة التسلط والعنف والقهر والإذلال .

الزمن العربي الرديء كتاب يلامس كل المشاعر المتوقده العطشى للقومية العربية.

يضع الباحث الصادق . في نقل الأحداث يده على الجراح النازفة خلال عرضه للأحداث التاريخية الجسيمة التي جرت على أرض الوطن العربي قاطبة محذراً من خطورة الموقف الحالي والأحداث العالمية التي تتجه كلها للانقضاض على الوطن العربي.

دون أن يلاقي ذلك الوضع أي اهتمام في نفوس العرب

لنبق مع الباحث نزار يوسف بكل المعاناة التي جرت على رأس تلك الأمة.

الناشر